جان بول سارتر

عاصفة على السكر

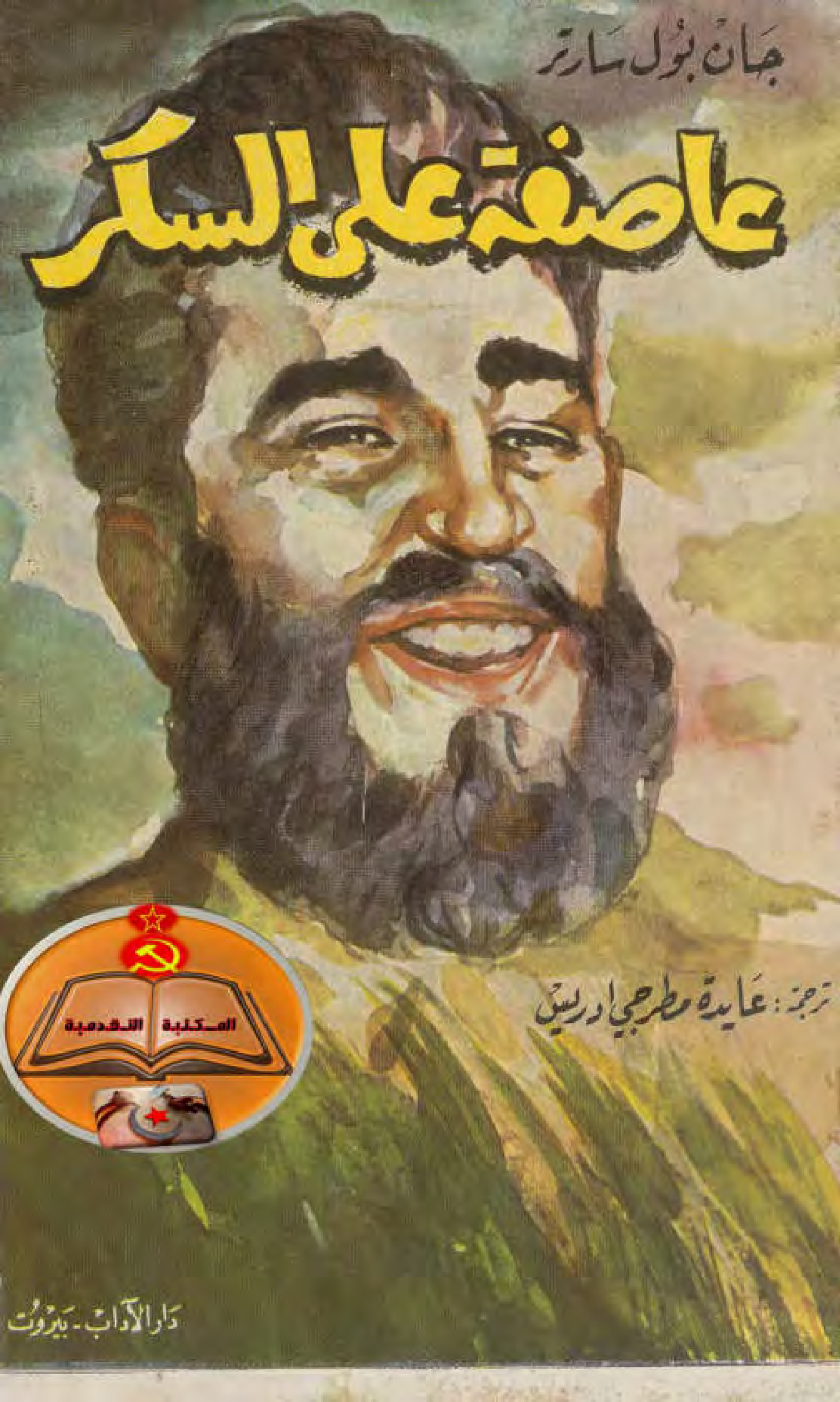

ترجمة: عايدة مطرجي ادريس

دار الآداب - بيروت

عاصفة على السكر

جان بول سارتر

عاصفة على السكر

ترجمة

عايدة مطرجي إدريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

تشرين الثاني ١٩٦٣

مقدمة

كوبا : اجمل بلاد الدنيا

« ان كوبا هي اجمل ارض أُتيح لعينين بشريتين ان ترياها » هكذا قال كريستوف كولومبس حين اكتشف في عام ١٤٩٢ هذه الجزيرة التي هي اكبر جزر الانتي .

كوبا : ١١٤,٥٠٠ كلم مربع ، أي ان مساحتها تعادل خمس مساحة فرنسا ، وعدد سكانها ٦,٤٠٠,٠٠٠ نسمة ٧٦٪ منهم بيض ، و ١٥٪ سود و ١٠٪ خلاسيون. اللغة الرسمية هي الاسبانية . الدين : الكاثوليكية . المدن الرئيسية : هافانا العاصمة ، وسنتياغو دوكوبا .

كانت الجزيرة مستعمرة اسبانية حتى عام ١٨٩٨ . ثم أصبحت تابعة مباشرة للولايات المتحدة الاميركية حتى عام ١٩٠٢ . وفي هذا التاريخ صوّت سكانها على دستور جمهوري . وبعد الحرب العالمية الأولى قام ماشادو بانقلاب عسكري فقامت الدكتاتورية ، ولكن ثورة ديمقراطية نشبت

عام ١٩٣٣ فأطاحت بماشادو. وبعد اشهر استولى على السلطة دكتاتور آخر هو باتيستا الذي أجرى في عام ١٩٤٤ انتخابات شرعية اطاحت به ففر الى الولايات المتحدة.

وعاد الى كوبا عام ١٩٥٢ ليرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. ولكنه نظم في أبان المعركة الانتخابية حركة انقلاب ضمنت له السلطة المطلقة. وحكم كوبا بالارهاب حتى أواخر ١٩٥٨ : وفي هذا التاريخ دخل الثوار التابعون لفيديل كاسترو الى هافانا العاصمة منتصرين، وكانوا يقاومون باتيستا منذ عامين. وهكذا بدأ عهد كاسترو.

●

وهذا الكتاب دراسة مستفيضة كتبها الفيلسوف والاديب الفرنسي المعروف جال بول سارتر، وهو دراسة غايتها شرح ثورة كوبا وسياسة رئيسها فيدل كاسترو، وقد كتبها بعد أن امضى عدة أسابيع في كوبا تصحبه رفيقة عمره سيمون دو بوفوار.

ويسرنا أن نقدم الترجمة الكاملة لهذا الكتاب الهام الذي يحلل فيه سارتر بعمقه وحرية فكره وجرأته اوضاع هذا البلد تجاه الاستعمار الاميركي الذي حاول منذ سنوات ان يخضعه لسيطرته بمختلف الوسائل ولا سيما الاقتصادية. وما يزال

هذا الكتاب يثير ضجة كبيرة في العالم ، وقد ترجم مؤخراً الى الانكليزية . وقد رأينا ان في اطلاع القارىء العربي عليه فائدة كبيرة .

المترجمة

الفصل الأول

انما هو الذهب الأجنبي ...

هافانـــا ....

هذه المدينة التي كانت بسيطة ســـهلة عام ١٩٤٩ [١] تحيّرني الآن. وقد كدت هذه المرة لا أفهم منها شيئاً.

نحن نسكن في ما يسمى بالأحياء الجميلة.

وفندق « ناسيونال » قلعة للترف والبذخ، يحيط بها برجان مربعان مسنّنان.

ويُطلب من زبائنه الذين يقصدونه من القارة ميزتان: الثروة والذوق. ولما كانت هاتان الميزتان نادراً ما تلتقيان، فان كنت تملك الأولى، أُعطيتَ الثانية من غـــير مشقة كبيرة.

---

(١) كان سارتر قد قام برحلة اولى الى كوبا عام ١٩٤٩ .

وانا ألتقي غالباً في الباحة اميركيين ذوي قامات طويلة ، وهم انيقـــون ورياضيّون ، فأنظر بدهشة الى وجوههم المقرّسة ، وأتساءل : ما الـــذي يسحقهم ؟ الملايـــين ام الحساسية ؟

وعلى كل حال ، فهذه قضية لا تعنيني .

وفي غرفتي الفخمة ، غرفة الملياردير ، يمكن ادخال شقتي في باريس برمتها . ماذا أقول عنها ؟ ان فيها انواعاً من الحرائر والبرافانات والزهور المطرزة او الموضوعة في الاواني ، وفيها سريران مزدوجان لي وحدي ، وبالاجمال جميع وسائل الراحة .

وأفتح الهواء المكيّف على آخره لأنعم ببرد الاغنياء . واذ تبلغ الحرارة ثلاثين درجة في الظل ، أقترب من النوافذ ، واتطلع ، وانا أرتعش ارتعاشات زاهية ، الى المارة وهم يرشحون عرقاً !

وليس لي ان ابحث مطولاً عن الاسباب التي تجعل فندق الناسيونال متفوقـــاً ، وهي أسباب لا جدال فيها . فقد كان حسبي ان ارفع الاستار ، منـــذ وصولي : لأرى اشباحاً طويلة ضامرة تتمطى نحو السماء .

كان الناسيونال يطـــل على البحر كما تطل القـــلاع الاستعمارية منذ ثلاثة قرون ، ساهرة ، على المرفأ ؛ ولم يكن خلفه شيء الا « الفيدادو » .

« والفيدادو » ارض للصيد محروسة . محروسة من الناس ،

لا من النبات . فالواقع ان هذه الأرض الممنوعة كان يتأكلها جنون العشب ، فقُسّمت ، فاختفى العشب فجأة عام ١٩٥٢ . وبقيت أرض جرداء ما لبثت ان أنقلبت بثورة هذه النتوءات المجنونة : ناطحات السحاب .

وانا شخصياً أحب ناطحات السحاب ؛ ونـــاطحات « الفيدادو » جميلة اذا أُخذت واحدة واحدة ، ولكنها منتثرة في كل مكان ، فهي فوضى من الأشكال والألوان ، واذا حاول النظر ان يجمعها افلتت منه : فليس ثمة من وحدة ، وكل منها لنفسه . وان كثيراً منها فنـــادق ، « الهابانا هيلتون ، « الكابري » وعشرون أخرى .

انه سباق الطوابق . فمن الذي لا يفضل زيادة طابق آخر ؟ وهي اذ تبلغ الخمسين طابقاً ، تصبح ناطحـــة سحاب جيب . وكل ناطحة تتمطى قليلاً لتنظر الى البحر من فوق كتف الناطحة الجارة . أما الناسيونال فهو يولي ظهره لهذا الاضطراب كله ، ويبدو قوياً محتقِراً . انـــه ستة طوابق ، لا اكثر : وهذا عنوان نبله وشرفه .

وهناك شيء آخر : ان الثورة تخترع هندستها المعمارية التي ستكون جميلة ؛ فهي تُخرج من الأرض مدنها الخاصة . وبالانتظار تحارب « الأمركة » بأن تنصب في وجهها ماضي المعمّرين .

كانت كوبا في محاربتها للمتروبول النهم ، اسبانيا ، تستشهد في الماضي باستقلال الولايات المتحدة وحريتها .

وهي في محاربتها للولايات المتحدة اليوم تبحث عن جذور قومية وتبعث المعمّرين الموتى .

وناطحات سحاب الفيدادو هي شهود انحلالها : فهي قد وُلدت مع الدكتاتورية . صحيح ان فندق « الناسيونال » ليس قديماً جداً ، ولكنه خرج من الأرض قبل السقوط ، قبل الاستسلام .

وانك ترى الثوريين لا يتسامحون الا مع البنايات التي شيّدها أجدادهم في عهود الديمقراطية الأولى .

يبقى أن شكلاً من البذخ كان يُنصب في وجه شكل آخر . وكنت أقول لنفسي : ليس هذا ما يبغيه الشعور القومي في كوبا . صحيح أنهم كانوا يحدثونني عن الثورة الكوبية كل يوم : ولكن كان ينبغي ان نراها في حيّز التطبيق ، وان نرى البرنامج الذي تتبعه .

وفي انتظار ذلك كنت التمسها في شوارع العاصمة . وطوال ساعات كنت امشي انا وسيمون دو بوفوار ؛ وكنا نذهب الى كل مكان ، وكنت أجد ان لا شيء قد تغير . بلى : ففي الأحياء الشعبية لم تبدُ لي حالة الفقراء أفضل ولا أسوأ من ذي قبل ؛ اما في الاحياء الأخرى فان مظاهر الغنى المرئية قد تضاعفت .

فعدد السيارات اصبح ضعفين أو ثلاثة : شفروليه ، كرازيلر ، بويك ، ديسوتو ؛ جميع الانواع . وكنا ننادي سيارة تاكسي ، فتقف ، فاذا هي من نوع كاديلاك ،

كانت هذه المركبات الضخمة المفرطة الزينة تجري بخطوة الانسان او تصطف خلف عربة تُجرّ باليد.

وكان كل مساء يدفق على المدينة شلالاً من النور الكهربائي. فالسماء تصطبغ باللون الوردي واللون البنفسجي، والنيون يشع في كل مكان مفاخراً بمنتوجات الولايات المتحدة.

ومع ذلك فقد كنا نعرف ان الحكومة كانت تفرض الضرائب على مستوردات الترف. وكنا نعرف ايضاً، او نظن اننا نعرف، انها كانت تراقب القطع النادر، ولا تشجع رحلات الترفيه الى الخارج، وتتخذ سلسلة من التدابير لتشيع السياحة في الداخل؛ وذلك لم يكن يمنع احدى شركات الطيران من أن تعلن بأحرف من نار، على مجرى واسع عند شاطيء الاوقيانوس، انها مستعدة لنقل الكوبيين الى ميامي.

والمطاعم الباذخة كثيرة: صحيح ان الانسان يأكل فيها طعاماً كافياً ولذيذاً، ولكن الثمن مرتفع: فهو لا يقل قط عن ثلاثة آلاف فرنك للشخص. وغالباً ما يفوق خمسة آلاف.

وقد كان احد هذه المطاعم في الماضي «كعبة» وزير مهمل لواجباته: فبنى «سعادته» فيه حديقة من حجر: حصى وصخور مستديرة؛ ونقش الحجارة على صورة الحياة، ونصب على ترابة الممرات إلاهات ازهار

وحيوانات محجرة ، وبلغ من اهـــتمامه انه أعاد خلق العالم المعدني : فنُحتت الحجارة على شكل حجارة ! ولكي يحمي هذا العالم الصغير قرر ان يضيف اليه اسوداً حقيقية في الأقفاص . وظلت الأقفاص فارغة .

وبدلاً من الأسود والوزير ، كنا نرى فساطين فاتحة تدور ؛ فقد كان بعض السادة ، العالميون كما يدل مظهرهم ، يحبون ان يتأملوا بهيئة شاردة هذه المعدنيات المسحورة .

وحين دخلت هذا المطعم ، كان الجميـــع يتحدثون الإنكليزية على الموائد ، وكانوا يتناولون عشاءهم عـــلى ضوء الشموع . وهذا منتهى البذخ بالنسبة لمواطن حر من مواطني الولايات المتحـــدة : فان الكهرباء تتدفق لمجرد اشارة ؛ ولكنهم لم يكونوا يقومون بهذه الاشارة ؛ انهم يحتقرون الغزارة الدنيئة ؛ فبدموع الشمع كانوا يقدمون للجميع اتلافاً واضحاً لبذخ الاستهلاك .

أما الملاهي الليلية فعددها لا يحصى . وهي كثيرة حول « البرادو » وفوق أبوابها تستعيد الكهرباء حقوقها ، وتفقأ عيني المارة اسماء مغرية ، متلألئة .

وفي « التروبيكانا » ، اكبر مرقص في العالم ، كان ثمة حشد كبير حول الطاولات الخضراء . انهم اذن يقامرون في كوبا ؟ انهم ما يزالون يقامرون ؟ وأجاب احد مرافقينا باختصار :

ـــ نعم ، يقامرون .

صحيح ان آلات الدراهم قد الغيت . ولكن اليانصيب الوطني مستمر . وهناك كازينويات ، وفي جميع الفنادق قاعات قمار .

اما البغاء ، فكانت بعض البيوت التي تمارسه قد أغلقت باديء ذي بدء ، ولكنهم لم يمسوها فيما بعـــد . وقد قلت لنفسي اكثر من مرة ، في الأيام الأولى ، اذ كنت استعيد هذه اللائحة التي هي أقرب الى السلبية : ان للثورات جميعاً ، في أول عهدها ، طابع الزهد والتقشف ، فأين هو التقشف الكوبي ؟

لقد جلست اليوم على طاولتي ، والصبـــاح صافٍ بلا غيوم . فرأيت من النوافذ خليط متوازيات المستطيلات ، وأحسست انني قد شفيت من تلك العلة الخبيثة التي كادت تحجب عني حقيقة كوبا : « مرض شبكية العين » .

وليست هذه هي عبارة من قاموسي . فقـــد كنت أشهد حتى هذا الصباح الداء الذي كانت تعنيه . ولكني وجدت معناها وانا أقرأ خطاب وزير كوبي اسمـــه « اوسكار بينوس سانتوس » ، القـــاه في أول تمـــوز ١٩٥٩ ، وقال فيـــه :

« اعتقد ان السائح الاجنبي اذا قضى بضعة ايـــام او بضع ساعات في هافانا لا يستطيع ان يفهم ان كوبـــا هي واحدة من الامم المصابة اكثر من سواها بهذه المأساة العالمية : التخلف الاقتصادي ..

« فهو لن يرى من هذه الجزيرة الا مدينة ذات شوارع رائعة تبيع أحسن انواع البضائع في احدث المخـــازن والحوانيت . وكيف تراه سيكتشف بؤسنا اذا احصى في طريقه اعمدة « انتين » التلفزيون الخ ... الا يعتقد بعـــد هذه العلامات الكثيرة اننا اغنياء ، واننا نملك وسائل حديثة تمكّننا من مستوى انتاجي رفيع ؟ »

حسناً . ان السائح القليـــل المعلومات لن يفتقر الى الاعذار ؛ وقد قلت لنفسي ، مطمئناً ، انني سأكون معفياً من المحاكمة . ولكن لا . على الاطلاق . فانهم يرهقونه فجأة ، فاذا ترك لنفسه ان يضل او ينخدع ومضـــى مسروراً ، فسيعتبر سائحاً مريضاً .

ان « بينوس سانتوس » يقول ما معناه : « ان هناك مرضاً للعيون يسمى « مرض شبكية العين » ويتجلى بفقد الرؤية الجانبية . فان الذين عادوا من كوبا برؤية متفائلة ، مصابون بهذا المرض : انهم يرون مواجهة ، ولا يـــرون قط من جانب العين . »

« مرض الشبكية » : كنت لا أعرف هذه الكلمة . ولكن ها قد مضى عليّ أيام أدركت فيها خطئي العميق . لقـــد احسست آرائي المسبّقة تتأرجح وتنقلب : فان اكتشاف حقيقة هذه العاصمة يقتضيني فجأة أن آخـــذ الأمور من الطرف الجانبي .

الوقت ليل ؛ وكنت عائداً بالطائرة من رحلة في داخل

الجزيرة . وناداني الطيار ليخبرنا اننا سنهبط . وكنا قد بدأنا فعلاً ننقضّ على منثور الجواهر واللآلىء والعقيق .

وعاودتني ذكرى محاورة حديثة العهد في تلك اللحظة ، فمنعتني من ان أتأمل هـذا الأرخبيـل الناري بـإزاء زجاج البحر الاسود : ان هذه الثروات لم تكن كوبية . لقد كانت شركة اميركية هي التي تؤمن للجزيرة برمتها انتاج الطاقة الكهربائية وتوزيعها .

وكانت قد وظفت في كوبا رؤوس أموال اميركية ، ولكن مركزها الاجتماعي كان باقياً في الولايات المتحـدة وكانت تنقل اليه ارباحها .

كانت النيران والأنـوار تتضخم ، وكانت الجواهـر واللآلىء تنتفخ فتصبح ثمـاراً ناضجة ، وكانت سجادة الليل تتمزق ؛ وعـلى مستوى الأرض ، كنـت ارى الذهب الأجنبي الذي يضيء .

وحين كنت بعد ذلك اضغط في المساء عـلى احد الأزرار ، كنت أعلم ان غرفتي تخرج من الليل بفضـل شركة أجنبية هي التي كانت ، كما قيـل لي آنذاك ، تملك امتياز احتكار الكهرباء في جميع دول اميركا اللاتينيـة تقريباً . وفي مرفأ نيويورك ، كان المصبـاح الذي يحمله « تمثال الحرية » الضخم اللامجدي يكتسب معناه الحقيقي : ان اميركيي الشمال كانوا يضيئون « العالم الجديد » اذ يبيعونه كهرباءه بالذات بسعر مرتفع جداً .

وكان التلفون الكوبي هو أيضاً ملك شركة اميركية : كانت قد وظفت لهذا المشروع رؤوس أموال فائضة . وحين كان الكوبيون يتبادلون مخابرة تلفونية ، فانما كانوا يتصلون ببعضهم ، في حقيقة الأمر ، بإذن كـــريم من الولايات المتحدة .

لقد سبق لي ان فهمت كل شيء بالمقلوب : فان ما كنت اعتبره علامات ثروة وغـــنى ، كان في الواقـــع علامات تبعية وفقر .

فعند كل رنة تلفون ، وعند كل تلألؤ نيون ، كانت قطعة دولار صغيرة تترك الجزيرة وتشكل في القارة الاميركية دولاراً كاملاً مع سائر القطع التي تكون في انتظارها .

فما هو الرأي في بلدٍ خدماتُـــه العامة مستأجرة من الخـــارج ؟

ان المصالح تتعارض ؛ فماذا بوسع الكوبيين ضد هذا « التروست » الهائل الذي يحتكر المجرى الكهربائي في جميع الدول اللاتينيـــة ؟

لا بد لهذه الشركة أن تكون لها سياسة أجنبية ، وليست كوبا الا بيدقاً على رقعة الشطرنج .

والواقع ان الامة تصنع وحدتها بمقدار ما يتصل اعضاؤها فيما بينهم . فاذا كان الأجنبي ، أيـــاً كان ، بانتظام او بلا انتظام ، يفرض نفسه على المواطنين كوسيط دائم ، واذا كان من الواجب الاستعانة به لإضاءة العمل أو الدروس ،

او حتى الحياة الخاصة ، واذا كانت كهربة الأرياف والقرى تُقرّر أو تُرفَض في عاصمة اخرى ، من قبل سكان بلد آخر ، ووفقاً لاعتبار مصالح بلد آخر ، فان الامة تتصدع وتتفسخ ، وتعاني الانشقاق في اعمق أعماق وحدتها : ان المواطنين هم منفصلون هنا في الاتصال . وان امتيازات الاحتكار الاميركية تدخل الى كوبا دولة في الدولة ، وهي تسيطر على جزيرة افقر دمها نزيفُ القطع النادر .

ففي كل مرة تُنزِل فيها الآلات الرافعة سيارةً جديدة من صنع اميركي على بلاط المرفأ ، يسيل الدم اقوى واسرع . وقد سبق ان قيل لي : « ان هذه السيارات تكلفنا المليارات كل عام . »

وأنظر اليها بامعان ، فينتهي بي الأمر الى ان اكتشف عليها مخلب « الثورة » الأول : صحيح انهم يلمّعونها ، وصحيح ان النحاس والنكل يبرقان ، ولكن عهدها غير قريب : فان أجدّ السيارات ترجع الى ما قبل أربعة عشر شهراً على الأقل وربما ثمانية عشر ؛ ففي شيكاغو ، وفي ميلووكي ، تكون اخواتها التوائم قد ألقيت منذ حين في مقابر السيارات .

وبالاجمال ، لم تكن كوبا بعد مشتركة في السباق : ولقد عرفت الحكومة ما كانت تفعله حين ضربت بتلك الشدة على استيراد الكماليات ، ان مالكي السيارات لم يكونوا يستطيعون بعد أن يماشوا ايقاع القارة .

واذ كنت أتابع بعيني الصف الذي لا ينتهي والـذي كان يدهشني كثيراً حتى مساء الأمس ، كنت اقول لنفسي باني انما كنت ارى امواتاً : وكانت « الثورة » هي التي بعثتهم ، وهي التي كانت تفرض مراعاتهم : فقد كان ينبغي ان توضع تحت الخدمة .

وبنات التبني هذه ستخدم كوبا سنوات طويلة اخرى ، وبعد عشرة اصلاحات او عشرين ، تكون قـد اتاحت الاحتفاظ في الجزيرة بعشرة أضعاف او بعشرين ضعف ما كلفته من ملايين عند شرائها . ففي هذا القطاع ، على الاقل ، كان النزيف قد أوقف .

وفيما بعد ، فهمت فهماً أفضل النظام الذي بموجبه امتلأت شوارع هافانا بهذه الآلات الثقيلة . فالواقع انه لم يكن لي بد من ان الاحظ ان الركاب كانوا يُركمون فيها ستة او سبعة ، وان اصحابها كانوا يرتدون ثياباً بسيطة واحياناً فقيرة .

أما في اوروبا ، فقد كانت السيارات تمضي مع بذخ الثياب ومع البحبوحة . والطبقات المتوسطة هي التي تشتريها في غالب الاحيان .

ولكن كوبا قد خضعت وقتاً طويلاً لتأثير الولايـات المتحدة : فان البورجوازية الاميركية الصغيرة والعمـال المأجورين ارفع الاجرة ، يملكون في القـارة الاميركية وسائل شراء سيارة . ولقد قلد الكوبيون الاميركيين من

غير ان يكونوا مالكين وسائلهم. وبالاجمال، كانت أغلى السيارات في متناول اصحاب الأموال المسطحة، شرط ان يموتوا جوعاً؛ وقد قبلوا ان يموتوا قليلاً، خلف جدرانهم، ليظهروا علناً وراء مقود كريزلر.

وتعلمت ايضاً ان ارى «الفيدادو» وناطحات سحابه على نحو آخر. فقد سألت ذات مساء «فرانكي» مدير جريدة «ريفولوسيون» عن الحمّى التي استولت على «الفيدادو»، عام ١٩٥٢.

من الذي بنى؟ كوبيون. بأية رساميل؟ برساميل كوبية.

ـ وهل هم أغنياء؟

فقال لي: ـ ليسوا حتى أغنياء. صحيح ان هناك مبالغ ضخمة موظفة، ولكنها قبل كل شيء ناشئة عن توفيرات الطبقة الفقيرة والمتوسطة. تصور أصحاب حوانيت في سن ناضجة قد وفروا خمسة آلاف او عشرة آلاف دولار خلال حياتهم؛ فأين تريدهم أن يوظفوها، ما دامت الصناعة الكوبية غير موجودة؟

ـ ألم يعرض عليهم أحد ان يخلقوها؟

ـ بعض المغامرين احياناً؛ تجار صغار كانوا يريدون ان ينمّوا أعمالهم. غير ان ذلك لم يكن ينتهي قط نهاية طيبة: لقد كان الملاكون الكبار لا يحبون ذلك، كانوا يصرحون بهذا، وكان الأمر ينتهي بالصانع الجريء الى ان يفهم. وعلى اي حال، ما كان ليستطيع ان يبيع اي سهم. تلك

هي العادة عندنا : ان البناء يستأثر بكل شيء ؛ وهو في نظر طبقاتنا المتوسطة اضمن توظيف للمال .

ويخيل الي ان نظري يمر الآن عبر البنايات الشاهقة ويكتشف أصل هذه القصور العصرية في العادات السيئة التي تعوّدها بلد متخلف اقتصادياً .

ان الثروة في كوبا هي الأرض ؛ وقد عادت على بعض العائلات بالمليارات وبالنبل تقريباً . فان البورجوازيين قد تخيلوا ، بسبب جمود الأراضي الظاهري ، ان هذا الجمود يؤمّن ثبات العائدات المالية ، فاشتروا اراضي ؛ ولما كانوا عاجزين عن زرعها ، فقد غطوها بالبنايات . انهم يفضلون على المغامرة الصناعية ثبات الايجار الخادع . فالآلات تدور ، وهي تتغير ، وهم يغيرونها وكل شيء يتحرك ، فالى اين المصـــير ؟

اما الاملاك « العقارية » ، فانها تبعث على الاطمئنان من مجرد اسمها ، ان الحجارة المبنية جامدة ، فهي اذن ثابتة . وهي لن تذهب الى أي مكان ما دامت لا تتحرك .

وبتحريض من « باتيستا » ومن المضاربين الذين كانوا يحيطون به انطلق هؤلاء الأغنياء الصغار في بلد فقير ، في مغامرة منافسة ميامي ، من غير أن يدركوا النتائج . وها هي هذه الجمادات ، الرائعة تثقل الآن على أذرعهم ، ان ناطحة سحاب « فيدادو » نسخة تناقض نموذجها : ففي الولايات المتحدة ، كانت الآلة هي التي جاءت اولاً وهي

التي حددت طريقة السكنى .

أما في كوبا ، فليس لهذه الانطلاقة « البنائية » الا معنى واحد : انها تكشف لدى البورجوازي المقتصد رفضاً عنيداً لتصنيع البلاد .

الفصل الثاني

كانوا ثمانين ...

الثورة هي طب شديد الفعالية : فالمجتمع يحطّم عظامه بضربات المطرقة ، ويهدم بُنيانه ، ويقلب موٴسساته ، ويغير عهد الملكية ويعيد توزيع أملاكه ، ويوجه انتاجه وفق مبادىء اخرى ، محاولاً ان يضاعف بأسرع مدة مستوى التنمية ، وفي لحظة الهدم الجذري نفسها يسعى الى اعادة البناء ، الى اكتساب هيكل جديد بواسطة تلقيحات عظمية ؛ ان الدواء شديد التأثير . ويجب غالباً فرضه بالعنف .

واستئصال العدو وبعض الحلفاء ليس أمراً لا مفر منه ، ولكن من الحكمة الاستعداد له .

وبعد ذلك ، ليس ثمة ما يضمن بأن النظام الجديد لن يسحق في المهد من قبل العدو في الداخل وفي الخارج ، وليس

ثمة ما يضمن بأن الحركة ، اذا انتصرت ، لن تنحرف بفضل معاركها او انتصارها بالذات .

وان مثل هذا التغيير الذي يجيء على هذا الشكل من الاتفاق والصدفة ، من المعقول ان يخشاه المضطهَدون انفسهم ، ما دام وضعهم يظل تقريباً محتملاً .

فالجموع لا تبت في الأمر الا بداعي اليأس حين يكون كل شيء قد جُرّب : من تعديل للمصالح ، وتنازلات متبادلة ، واصلاحات . بل انه يبقى ثمة شك في أن تبتّ في الأمر .

انها عادةً ما تُقذف الى ذلك بفعل الانقلابات والانهيارات الكبيرة . فالافلاس الاجنبي والهزيمة هما اللذان يقرران لها ويجبران ، احياناً ، الحزب الثوروي نفسه على ان يتولى السلطة في لحظة غير مناسبة .

وان ما يدهشني هنا ، هو ان تكون الاضطرابات قد بدأت على هذا النحو من الفجاءة . لم يكن شيء يمهد لها ولم يكن ثمة اية كارثة واضحة . وقبل أربع سنوات كان انقلاب عسكري قد وضع السلطة في يد باتيستا ، وقليلون هم الذين احتجوا : لقد كانوا يستسلمون للدكتاتورية بدافع من الاشمئزاز من مجالسهم النيابية الثرثارة الفاسدة .

ومع ذلك ، فذات يوم ، هو يوم ٢٦ تموز ١٩٥٢ ، قام محام شاب اسمه فيدل كاسترو على رأس حفنة من رفاقه بهجوم على ثكنة « مونكاد » . ولكن قُبض عليه .

ووُضع في قلعة ثم حكم عليه . ولم يدعمه الرأي العام على الاطلاق : « من هو محطّم الصحون هذا ؟ وما هي هذه القحمة ؟ والتي لا تؤدي الى شيء ؟ لو غضب باتيستا لأطلق علينا النار ! »

ولم تكن أحزاب المعارضة قد قصّرت في توبيخ هذا الجسور الذي فشل . وكان الحزب الشيوعي الكوبي يتحدث بصدده عن نزعة المغامرة . وكان « الحزب الحقيقي » يرفع ذراعيه ، أما « الحزب الارثوذكسي »[1] فقد كان اشدها قسوة : كان كاسترو عضواً فيه حين قام بمحاولته .

وقال جميع هؤلاء الرجال الناضجون المفكرون : « إننا بحاجة الى يسار » ، فهو يحمل آمال البلاد . وسوف يتساهل الرئيس من جهته بشأنه ، بدافع من الديماغوجية ، وليقنع القارة بأن الآراء حرة في كوبا ، شرط أن لا يرفع هذا اليسار بنصره . حسناً ! لا نفعلْ شيئاً الا أن نكون حاضرين : ان الزمن يعمل في صالحنا ! ولكن ينبغي ان لا يقوم مغامر غير مسؤول فيحاول أن يفسد هذا التوازن بعملية تسرّع . »

وعاد السكون يشمل الجزيرة .

وبعد عامين أوحى مستشار رديء للدكتاتور بأن يُصالح الشعب باتخاذ تدابير عفوٍ ومسامحة ، فأفرج عن كاسترو ولكنه نفاه ، فسلك كاسترو طريق المكسيك . ولم تخدع هذه

---

(١) اسما حزبي المعارضة في عهد باتيستا .

الشهامة الزائفة أحداً ، ولم تخدم في تلك اللحظة سواه .

وبعد ذلك ، لا شيء . سوى اضطرابات صماء في بعض مناطق الفلاحين . ولكن صداها كان يضيع في الحقول ولا يصل الى المدن . كان النظام يسود كوبا .

وكان الدكتاتور ، وهو في ذروة قوته ، يدعمه خمسون الف جندي وشرطة قادرة على فعل كل شيء ، يبيع الاميركيين سُكراً وملذات ويشتري من الانكليز أسلحة . ولم يكن ثمة افلاس منتظر : صحيح ان الجزيرة لم تكن تبدو في وجه مشرق ، ولكن ذلك كان مألوفاً ؛ أما باتيستا ، فقد كانت صناديقه تغص بالدولارات .

وكان رئيس الشرطة يعبد العهد ؛ وكان على استعداد للاخلاص له حتى الموت . ذلك انه كان يقبض كل صباح عشرة آلاف دولار ضريبة على العاب القمار في هافانا . وكانت الأيام تتتابع . وكانت تتشابه ، في مظهرها على الأقل .

كان المضاربون يضاربون ، والمهربون يهربون ، والعاطلون يعطلون ، والسواح يسكرون : وكان الفلاحون الذين تتأكلهم الحمى والطفيليات ويعانون من قلة الغذاء ، يشتغلون على أرض الآخرين يوماً كل ثلاثة أيام .

ومن كل كوبيْين ، كان كوبي واحد يعرف القراءة : ولكنه من جهة اخرى لا يقرأ بعد : فان الصحف التي كانت تُراقب مراقبة شديدة ، اصبحت لا تُقرأ ؛ وكانت الرقابة تمارس أيضاً على الكتب ، وتكتسح المكتبات والجامعة .

وكانت أحزاب المعارضة ما تزال تتكلم : كانت تعتبر نفسها حامية الحريات الديمقراطية ؛ وكانت كلها ، وحتى الحزب الشيوعي ، تطلب استفتاء انتخابياً . ولكن صوتها كان ينخفض عاماً بعد عام حتى لم تعد البلاد تسمعه .

صحيح ان باتيستا كان مكروهاً ، ولكن لم يكن ثمة من يعرف من الذي ينبغي ان يوضع بدلاً منه . وكنتَ اذا حدّثت الناس عن انتخابات عامة ، استهزأوا بك . وبالاختصار كان بلداً يبدو خاضعاً : مصيبة ثابتة تحت حرارة ثابتة .

وقد جاء يوم لم يكن ينبيء بانه أفضل من سواه او اسوأ . وفي هافانا كانت الشرطة تقوم عند الصباح الباكر ، على عادتها كل صباح ، بدورتها في الملاهي وأندية القمار وتجمع ضريبة رئيسها ، وكانت فرقة الاخلاق ، في ساعات الفجر نفسها ، تأخذ الفدية من الفتيات .

كانت الصحف تتحدث عن « وول ستريت » وعن الحياة الاجتماعية : من الذي ذهب الى اي مكان ، عشية الأمس ؟ وكانت تنشر لائحة الضيوف الذين يثيرون الاهتمام في كوبا . وستكون السماء غائمة . نسيم قوي ، حرارة في أعلى الدرجات . ٢٨٠ في الغرب ؛ ٣٠٠ في الشرق واكثر قليلاً . وكان ذلك يوم ٢ كانون الأول ١٩٥٦ . وفي ذلك اليوم بالذات ، بدأت الثورة ، دون سابق انذار .

●

كانوا ثمانين ، قدموا من المكسيك ، مركومين في سفينة صغيرة . وكان البحر هائجاً ؛ وقد قضوا زهاء أسبوع لعبور الخليج ؛ وحين وضعوا أقدامهم على الشاطيء ؛ يوم ٢ كانون الأول ، غير بعيد عن سانتياغو ، كانوا يظنون انهم سيسلمون الروح ؛ كان كثيرون منهم يجرجرون أقدامهم في وهن ، وقد أرهقهم القيء واستنفد قواهم .

وكان الجنود والشرطة ينتظرونهم : كان المفروض ان يثير بعض الشبان المدينة دعماً منهم لعملية الانزال . ولكن العاصفة كانت قد أخّرت وصول السفينة . وكان الاضطراب قد انفجر في الموعد المضروب فاذا بالشبان الثائرين وحيدون وبلا عون ؛ واذا بهم يهلكون على بكرة أبيهم .

وها ان قوى الأمن الآن في حالة استنفار : وطوردت الفرقة الصغيرة ولوحقت في كل مكان ، فانقسمت الى عدة فرق كومندوس . وكان لها هدف واحد : ان تبلغ الجبل ، حيث تلتئم من جديد . وكثيرون هم الذين اخلفوا الموعد . فقد حوصر البعض ، وقتل البعض ، وأسر البعض ، وتاه آخرون ؛ بينما تسلل فريق صغير الى العاصمة ليقيم فيها شبكة سرية .

وبلغت قبضة من الرجال قمم جبال « ماسترا » اعلى سلسلة جبال في الجزيرة ، واختبأوا في فراء الغيوم التي تحيط القمم احاطة دائمة .

وفي أول كانون الثاني ١٩٥٧ ، بدا الوضع واضحاً :

كان الجيش والشرطة يشرفان على المدن والسهل ، وعلى قمة وعرة ، كان زهاء ثلاثين من « العُصاة » يكادون يموتون جوعاً : وسوف ينتهي بهم الأمر الى الاستسلام ، هذا اذا لم يوقعهم في كمين فلاحٌ أُغري بجائزة يُعطاها .

وكان كثير من الناس في المدن يهزون اكتافهم في غضب :

ــ هذا هو أيضاً كاسترو يعود الى ارتكاب حماقاته . ولكنه سيهلك هذه المرة : لقد ظن انه يقوم بضربة يد ، ولكنه لم يقم في الحقيقة الا بضرب عناد .

منذ أيام ، التقيت في هافانا بصديق لكاسترو ، رفيق من رفاق الأيام الأولى . فقال لي مبتسماً :

ــ اعترف أن الأمر كان يأخذ في البدء طابع عملية « إنقلاب »

ولكنني لم اكن متفقاً معه تماماً : ان عمليات الانقلاب تُربَح أو تُخسَر في المدن ؛ فيتولى فريق صغير من المتآمرين على الوزارات والمراكز الرئيسية ، ومرافق العاصمة الحسّاسة . ويكونون مدينين بنصرهم ، اذا أحرزوه ، لعنصر المفاجأة . ان المدينة تكون قد نامت تحت عهد ، فتستيقظ تحت عهد آخر .

فما شأن رجال ٢٢ كانون الأول هؤلاء ؟

لقد قاموا بعكس ما قد يمكن أن ينصحهم به متآمر انقلابي مجرّب : لقد اعلنوا عن أنفسهم ، رافضين ان يوازنوا بالمفاجأة عدم تساوي القوى القائمة ؛ واذا صحّ التعبير ، لقد واعدوا جنود باتيستا على اللقاء . بل

هم قد فعلوا اكثر من ذلك : لقد أعطوا عنوانهم . وأخبروا الجزيرة كلها بأنهم كانوا يعسكرون في جبال « ماسترا » : ومنذ الثاني من كانون الاول اخذت الطائرات العسكرية تقوم بدورياتها فوق الغيوم .

ولئن كانوا منذ اليوم الأول قد كشفوا على هذا الشكل عن وجودهم ، فليس ذلك طبعاً بسبب قلة الحيلة والدهاء : فقد شوهدوا وهم يهاجمون العدو خفية ويضربون بسرعة ويختفون ، كلما رأوا ذلك مناسباً . ولكنهم اذ التحقوا بالجبل ، حددوا لأنفسهم هدفاً مباشراً : الدعاية . أرادوا أولاً أن يعرّفوا بأنفسهم ؛ وان يختبئوا عن فرق باتيستا ، ولكن لا عن البلد ، لتمتلىء الجزيرة كلها بالضجة والصخب : فقد كانوا يعتمدون على الفرق النظامية ليصمّوا البلد ؛ أوامر وضجيج أحذية وطلقات نار .

ولم يكونوا على خطأ : فقد كانت قوى الأمن تزرع الاضطراب في كل مكان ، وتعيش على الفلاحين ؛ وقد أخذت تطوف حول الجبال ؛ واذا كان الشعب يستسلم احياناً للطغيان حين يتلبس وجه ضابط يقيم منذ وقت طويل في المنطقة ، فانه لا يستطيع أن يتحمله بعد ، اذا اقبل عليه تحت أقنعة جديدة .

كـــلا ! لم يكن تبجحاً . ولا رهاناً بليـــداً ، وذلك الجهد الذي كان بعض الشبان يبذلونه ليجذبوا اليهم جميع قوى الرجعية .

بل انهم كانوا يجازفون مجازفة الموت لينبئوا مواطنيهم بأن أعلى منطقة في الجزيرة كانت تفلت من سلطة باتيستا : وتبعاً لذلك فان السهل سوف يعي عبوديته ، وستتعمّد التسعة والتسعون جزءاً من أجزاء الجزيرة المئة باسم « الأراضي المدعوة للتحرر » .

ولم يكن الأمر قد بلغ الى هذا الحد طبعاً أثناء شتاء ٥٦ ــ ٥٧ : ولكن كان يجب ايحاء الثقة . وكان ذلك يقتضي الثبات ، ولا شيء غير هذا ؛ كانت الغاية إثارة غضب العسكريين ، وتقديم هذا المشهد للفلاحين : فرق تتعلق بأطراف الجبل ، وتصعد بمشقة كبيرة حتى منتصف طريق القمم ، ثم تهبط بخفيّ حنين ، لتعود فتصعد فيما بعد ، وتعود فتهبط في الاودية ، متميزة بعناد الذباب البليد .

ولم يكن عدد العصاة كافياً للقتال : ولكن ذلك سيجيء . ينبغي الافلات بلا انقطاع من هذه الوحدات الثقيلة ، بفضل عملية تحرك مستمرة ، وينبغي بعد ذلك ، اذا أتيحت الفرصة ، نصب كمين ، واطلاق نار ، وبث الذعر في فرقة ، ثم الفرار .

وهذا العمل الشاق ، الرتيب ، الخطر ، يجب القيام به كل يوم ، وما دام ضرورياً .. الى أن يزداد اعضاء الفرقة الصغيرة بالانصار ، المسلحين تسليحاً أفضل ، فتصبح أبعث على الخوف ، وتقنّي آمال الأمة جميعاً ، الى ان يتمكن الشعب ــ وقد أصبح شاهد هذا الصراع غير المتكافي ــ من تحطيم قيود الشك والاستسلام وتحويل معرفة مشكوك بأمرها

الى ثورة .

وهذا ، كما نرى ، هو عكس ما يُسمى بالمؤامرة الانقلابية : ففي بلد فتّته الطغيان ونصف قرن من النحس ، نجد عدداً من الشبان يجازفون بحياتهم ، معزولين ، ولكنهم في الوقت نفسه معروفون هنا ، ليبعثوا من جديد متطلبات وحدمة الامة .

●

ولقد تحقق كل شيء ، نقطة فنقطة ، كما توقعوا تماماً . واذن ، فقد كانوا على حق . ولكن لماذا !

كانت الدكتاتورية ، بكل تأكيد ، تثقل على الكوبيين . ولكن اذا نفر بلد ما رويداً رويداً من موسساته الديمقراطية ، فيمنكه أن يتدبر أمره طويلاً بقبول عهد دكتاتوري ، بحيث لا تعود السياسة مجدية .

ولكن الأمر ليس كذلك على الاطلاق . فلا بد من مصيبة فظيعة لتطلق شعباً بهجوم على الثكنات ، حتى يحارب بأيدٍ عارية رجالاً مسلحين . بل ان الأمر يحتاج الى اكثر من ذلك ، فلا بد من تعميق مستمر لهذه المصيبة .

فحين التحق الفلاحون بالعصاة ، وقبلوا أن يجازفوا بأن يُقتلوا او يموتوا ، فهذا يعني أن العصيان بكل تأكيد قد استحق ثقتهم أخيراً ، ولكن الثقة وحدها لا تكفي . كان لا بد من تحقيق شرطين آخرين : اقتراب وقوع كارثة ،

واعلان أمل جديد ، سفينة انقاذ جديدة . وسأتحدث عن الشرط الثاني فيما بعد . فلنحاول أن نفهم الشرط الأول فهماً أفضل .

لقد قلت ان السماء كانت صافية ؛ ولم يكن في شرق الجزيرة وغربها اي جديد ، الا الجمود والجمود . وما دام انه لم يكن ثمة أي خطر ظاهر يهدد كوبا ، فقد كان لا بد من ان يكتسحها انهيار ارضي ، وكان لا بد من ان تُجرّ جميع طبقاتها الاجتماعية او معظمها بجمودها الظاهر ، الى دائرة مجنونة أو مميتة ؛ وكان لا بد من ان تزداد سرعة الاعصار السري يوماً بعد يوم ؛ وفي النهاية حين ينحاز الشعب الى كاسترو ، فانه لا بد من ان يكون المجتمع الكوبي ، قد أصبح على وشك أن يبلغ نقطة انفصاله .

كانت القضية قضية باتيستا حقاً ! وسوف يبدأ الأمر بطرده ، بكل تأكيد . غير ان المشكلة كانت خطيرة ، من زاوية اخرى : ان هذه الأمة سنتفجر أو تعدّل بُنيانها تعديلاً جذرياً .

وهذا ما كان الرؤساء المتمردون قد أدركوه : كانوا ينتظرون أن يشعر الشعب بأنه في وضع خطير للغاية .

كانت الجزيرة تعيش من السكّر ؛ ولاحظت ذات يوم انها كانت تموت من السكر . وهذا الاكتشاف الذي حوّل الاستسلام الى غضب ، والجمود الى ثورة — كما يتمنى كاسترو — لمسته انا نفسي ، بدوري ، ما ان غادرت المدن الى الأرياف .

الفصل الثالث

بريق الدولارات .. الهاربة

حقل لقصب السكر ، ليس في رأيي شيئاً يبعث على المرح بصورة خاصة . وقد سبق لي أن رأيت في « هايتي » حقولاً لقصب السكر كان يقال انها مسكونة ؛ واني اتذكر الأرض الحمراء لطريق مهدومة وعليها قصب قد فسد واغبرّ تحت الشمس .

وفي كوبا التقيت من جديد ، في شعور الاحترام نفسه ، حشداً من هذه السيقان لا يمكن النفاذ منه : فهي تتلاصق فيما بينها حتى ليبدو انها تتلوّى حول جاراتها ، ثم يكتشف الانسان ، بين الفينة والفينة ، شقاً فيما بينها يشبه نفقاً عالياً عميقاً وأسود .

وهي تتميز بجميع أنواع اللون الاخضر ـ أخضر معتم ،

اخضر مصفر ، اخضر ملفوفي ، اخضر فاقع ، اخضر رمادي ـ شريطة أن تحمل طابع الهجوم ، في امتدادها على مدى النظر :

وفي كل عام ، تقصّ سيقانها ، فتعود الى النمو سبعة أعوام متتالية . وهذا العنف ، وذلك العناد في الخصب كانت تترك لدي ، كما في « بور او برنس » الشعور بأني أشاهد مهرجانات سر من اسرار النبات .

وكان المصنع على بعد خطوتين : فقصدته . كانت المراكز السكرية منتشرة في كل مكان من الجزيرة ، بعيدة عن المدن لتكون على مقربة من المزارع . وكان يصنع فيها هذا المنتوج نصف الناجز : السكر الخام . وعند المداخل يفقد العمل الزراعي حقوقه . وينتهي بنوع من الاختلاط . فان عربات الثيران ، والشاحنات ، تدفق سيقان القصب على سجادة قابلة للف ، ويبدو ذلك كأنه تنازع وتخاصم وسقوط غير منتظم لأغصان خضراء متسخة ؛ وكانت دوامات من الذباب تغطس وراءها في الحفرة ، ثم ترفع السجادة هذه الخضرة كلها الى المرحلة الأولى من التحول ، الى الأسنان الحديدية التي ستطحنها.

وتنتج لمفا مختلطة ، فتطرح النفايات في مساخن تذكي لهيبها : وعلى هذا يُقدّم القصب المادة والوقود : فيكفي المصنـــع .

وقد عبرتُ أتوناً من نار ، فرشحت عرقاً ، وافرط الذباب في الترحيب بي . وشاهدت عبر الكوى تحولات النسغ ؛ ورأيت تبخر السائل ، وعجين التفل . وفي وسط

حلة ، كانت صفيحة تدور على نفسها مستعملة الطاقة المركزية في عملية فرز أخيرة . وينتهي هذا كله بوضع المربعات الرطبة السمراء في الأكياس .

وتُنقل الأكياس ، على ما أعتقد ، الى اقرب مرفأ ، فتركم في السفن ؛ ولكن ذلك كان يكفيني : فلذت بالفرار .

وكان أشد ما ارهقني الرائحة ، ارهقتني اكثر من الحرارة ، رائحة وحش ، كما لو ان السكر كان في وقت واحد نسغاً ووشلاً .

ولم تتركني الرائحة طوال النهار ، اذ كانت قابعة في منخري ، وفي جوف فمي ، مسكّرة اللحم والأرز والسجائر ، وحتى غليوني . وكانت تحتفظ بالمذاق التافه الذي يخلفه تقطير طبيعي . ولكن لزوجته المشيّطة بعض الشيء تكون قد بدأت في بعث الاحتراق وجميع شكليات العمل .

وهذا بالاجمال ما يناسب حقاً منتوجاً نصف ناجز ، وهو في إبان التحول . وانا واثق من ان مصانع التكرير الكبرى في الولايات المتحدة التي تتلقى هذا الرمل الرطب وتجعل منه قطع سكر بيضاء ، ليس لها رائحة . اما في كوبا ، فليست لديهم وسائل التكرير : وهذه الرائحة القوية المفرطة في عضويتها ، هي رائحة كوبا بالذات .

انها هي التي يجدها الكوبيون في أعماق حناجرهم حين يستهلكون هذا المنتوج الدون الاصفر الرطب الذي هو صناعتهم الرئيسية ، والذي يدعى « الغارابا » او بعبارة اخرى « قيح » قصب السكر .

جزيرة من السكر الخام ! فمن ذا الذي يستطيع ان يوقفها وهي في أثناء عملها ؟ كثيراً ما يقال ان المتروبول يشتري من المستعمرات منتوجات الاستخراج ، المنتوجات الغذائية ، ولكنه لا يشجع من جهة اخرى مصانع التحويل .

ان كوبا التي تسيطر عليها نبتة غذائية لا تستطيع حتى ان تصل بها الى مرحلة تحولها القصوى ، تظهر بمظهر البلد المستعمَر ، ولكن ها قد مضى عليها خمسون عاماً وهي مستقلة وسيدة . ولقد شممت خلف هذا التناقض الظاهري ، مصيدة مهزلة ، شركاً من هذه الشراك التي يوقع فيها التاريخ احياناً امة برمتها لينساها فيه بعد ذلك طوال سنوات او قـــرون .

قبل عام ١٩٠٠ كانت زراعة القصب قائمة . وحتى في عهد الاسبانيين كانت ثمة رساميل اميركية موظفة ، ولكن عجز الملاّكين المتعالي لم يكن يشجع التجميعات الكبيرة .

وكان لم يمض على كوبا الا وقت قصير جداً بعد خروجها من العهد الاقطاعي حين عادت تحمل السلاح ضد المتروبول : ولم تكن الحرب الاسبانية ــ الكوبية الكبرى مجرد تمرد ضد الاستعمار ، فقد أرادت البلاد ان تعدّل بنياتها الفاسدة ، وان تقوم ، ولو بعد مئة عام من التأخر ، بثورتها البورجوازية وان توسس الحريات المدنية على التحررية الاقتصادية ؛ وتوسس حقوق المواطن على حقوق الملاّك . صناعة متواضعة ولكنها فعّالة : تحويل وجلو ؛ وفي نهاية العملية تأتي الفرقة

الخفيفة لمنتوجات الاستهلاك .

ولكن الجزيرة ستبقى قبل كل شيء زراعية . وسوف تُنوّع الزراعات ، بغية تنويع الزبائن : سيُعرض الحصاد على جميع الناس ، فيُباع لأسخاهم يداً . وقد كتب « جوزي مارتي » ، رئيس هذه الثورة الأولى ، الذي مات قبل النصر ، يقول : « ان البلد الذي يتاجر مع بلد واحد يموت » .

وبعد ستين عاماً ، ردَّ عليه خطاب لكاسترو يقول : « نحن الكوبيين ، لم يكن لنا حظ على الاطلاق » .

وقال اجداد الذين يستمعون اليه : « اخفاء آخر للثورة » .

كانوا قد حملوا السلاح في وقت غير مناسب : فقد سبق لهم أن حاربوا استعماراً غاشماً لدولة فقيرة شامخة [1] ، في الوقت الذي كان فيه اسياد العالم الحقيقيون يدخلون واحداً بعد الآخر في ازمة استعمار حادة .

كان رجال يرتدون الردنجوت ، وعسكريون يلبسون اللباس الرسمي يجتمعون حول الخرائط ويقتسمون العالم بضربات قلم . ولم تكن الولايات المتحدة تستطيع تجنب هذا : ذلك أن تنمية الانتاج كان يقلقها . وكانت المنتوجات الفائضة بحاجة الى أسواق ؛ وكانت الرساميل الفائضة تقتضي توظيفاً مضموناً لهـــا .

وغيّرت نظرية « مونرو » معناها : فقد كانت في البدء

---

(١) اسبانيا .

تعريفاً لسياسة . ففي ٢ كانون الاول ١٨٢٣ نشر « جيمس مونرو » رئيس الولايات المتحدة رسالة أعلن فيها : « أن اميركا للاميركيين » : وكان يقول أن الولايات المتحدة لن تتدخل في شؤون اوروبا ، ولكن على اوروبا أن تكف عن إعتبار اميركا ارض استعمار دفاعي وسلمي : ان اميركا للاميركيين لا أكثر ولا أقل .

وحوالي ١٩٠٠ قام جمع من رجال الأعمال والسياسة فترجموا هذا المبدأ بلغة جديدة ، ففهم من العبارة ما يلي :

« اميركا الجنوبية لاميركا الشمالية » .

أما الثورة الصناعية الثانية واخطارها والإنتاج الجماعي المقلق ، مع الأزمات الفظيعة التي كانت تجازف بخلقها ، ان جميع هذه الوقائع التي ما تزال منتثرة وغير مفهومة تماماً ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تزيد الفائدة وتكشف عن النظام في ضعفه — يجب أن نرى فيها مصدر تحول تم ببطء ولم يشر اليه احد : لقد اختفت حرية المشاريع وحرية التنافس ، وولدت التروستات .

وذلك ما كان يشكل سوء طالع الكوبيين : فطوال قرن كامل ، كانت الولايات المتحدة الاميركية موضع إعجابهم بلا تحفظ . وكان كبار محكوميهم او منفيّيهم قد درسوا عن كثب أعمال المؤسسات والتنافس وعلاقة الحقوق المدنية بنظام الملكية . وحين استأنفوا الحرب ، مفيدين من هذا المثل ، كان نموذجهم قد زال : فإن تحررية مظهرية كانت تخفي

استعمار التروستات التي سيكونون هم ضحاياها الاولى.

ولم يكن «تيودور روزفلت» قد أصبح رئيساً للولايات المتحدة الاميركية بعد: فكان رجل الاستعمار الاقتصادي على غرار ما كان قبله «جول فيري» في فرنسا حين كان صاحب نظرية الاستعمار العسكري.

ولم تكن رسائله تدع ظلاً من الشك حول فكرته؛ فإن الولايات المتحدة الاميركية لم يكن أمامها في نظره إلا وسيلة واحدة لإعادة توظيف رساميلها الفائضة: وهي أن تصبها على البلاد الجديدة في اميركا الأخرى، الجنوبية، ولاسيما كوبا التي كان سكرها يسيل اللعاب.

ووضعت القضية الكوبية موضع الدرس بينما كان الكوبيون يقاتلون. فظهر إذ ذاك للصارمين المنتشين أن الله كان يبارك عملهم: لقد كان الأمر يتكشف عن اكثر مما كانوا يظنون. وبعبارة أفضل، لم يكونوا بحاجة الا الى شيء من الذكاء ليحصلوا على نتائج تفوق آمالهم.

فقد كان زارعو الشمندر في جنوب الولايات المتحدة، وزارعو القصب النادرون هناك، ينتجون قليلاً باسعار كلفة مرتفعة جداً: لقد كانوا غير قادرين على أن يسدوا الطلب القوي. وكان لابد، بالاضافة الى ذلك، من فرض ضرائب لحمايتها.

وقد كانت كوبا عبء العناية الالهية، وكان يكفي إدخال الجزيرة في مدار مغلق: فسوف يحدد منتجو القارة اسعارهم

وفق الكلفة ، وتحت حماية جمركية ، من غير أن يقلقوا للاسعار العالمية . وهكذا تستهلك السوق الداخلية انتاجهم ويقدم الزارعون الكوبيون البقية . ولكن تفادياً لانهيار الأسعار ، فان سكر الجزيرة يُشترى باسعار الزارعين الاميركيين أنفسهم . ويكون لهذا الامتياز الاقتصادي ، كنتيجة اخرى ، أن يربط هذه الجزيرة بالقارة .

كان الكوبيون يقاتلون ، وكانت الاوبئة تكتسح جيش اسبانيا ، وفجأة نُسفت سفينة « مين » العسكرية . واليوم لا يستطيع اساتذة التاريخ ، حتى في الولايات المتحدة نفسها ، أن يذكروا هذه الباخرة الحربية نفسها من غير بسمة خفيّة ترتسم على زاوية شفاههم أو في عيونهم ١ .

غير أنه قد سقط ثمة قتلى . والتهب الرأي العام . وقذف « مونرو » والكرم الصارم بالولايات المتحدة في صليبية عنيفة ضد اسبانيا . ونزف دم الملكية الشائخة ، فسحبت أصابعها الى اوروبا . وقبل أن يتاح للكوبيين المشدوهين أن يشكروا حلفاءهم ، تحوّل هؤلاء الى محتلين : ووقّعت في باريس معاهدة تعطيهم حق حكم الجزيرة بصورة موقتة .

ولقد بقوا فيها أربعة أعوام : الوقت الكافي لأن يركزوا فيها جهازهم . وحين تخلوا أخيراً عن مكانهم للسكان — وكان ذلك عام ١٩٠٣ — لم يكونوا قد اهملوا شيئاً يمكّنهم من

---

(١) ان انفجار هذه الباخرة الاميركية هو الذي منح الولايات المتحدة الاميركية حجة التدخل في كوبا التي كانت آنذاك تابعة لاسبانيا .

جعل الأمة الوليدة مسخاً يشبه أوزّ ستراسبورغ الذي يموت موتاً بطيئاً وهو يعاني من آلام كبده المفرط الرقة .

بل انهم تنبأوا حتى بالانتفاضات والتشنجات : فكان تعديل « بلات » الذي اضيف الى الدستور بمنح المحررين الحق في أن يعودوا الى الجزيرة في حالة الاضطرابات ـ يعني حين يحلو لهم ذلك ـ وان يحرروا اخوتهم الكوبيين كلما لزم الأمر .

●

ان خصب الجزيرة سيكون غداً حظها ؛ وقد كان في عام ١٩٠٢ مصدر مصائبها . ان الوتد يُزرع فيها فيزهر . وكوبا هي أرخص أراضي الدنيا في كلفة قصب السكر .

وبفضل الاتفاقيات المعقودة مع الاميركيين ، كانت كوبا تبيع سكرها بأغلى الأسعار . ولم يمض وقت طويل على زيارة « ميكويان » لكوبا ـ هذه الزيارة التي أزعجت سفير الولايات المتحدة ، فنشر هذا الانذار :

« ان الحكومة الكوبية تبيع للسوفيات ٢٠٪ من حصادها بالأسعار العالية ، وهي تملك حق ذلك . ولكن اذا قرر اميركيو اميركا الشمالية أن يدفعوا نفس هذا الثمن للسكر الذي يشترونه ، فان كوبا ستخسر كل عام ١٨٠ مليون دولار » .

واكتفى قادة كوبا بأن يجيبوا بكل بساطة :

ـ حاولوا !

والواقع انهم يعرفون منذ وقت طويل ان مصالح بائعي الشمندر الاميركي وزارعي الجزيرة متصلة ومتضامنة. فالمنتوج نفسه سيكون غالياً في نيويورك ورخيصاً في موسكو ، هكذا اراد تيودور روزفلت ، وهكذا اراد من بعده جميع ضيوف البيت الابيض .

والحق ان الرساميل ، في العالم كله ، تبعث الاحلام نفسها : تمويل مشاريع تبيع بأغلى الأسعار ما تنتجه بأرخص الاسعار . ومنذ عام ١٩٠٢ ، في بيتسبورغ ، وفي ديترويت ، وفي شيكاغو ، فردت الدولارات الفائضة جناحيها وطارت لتحط على الأراضي البكر في الجنة الجديدة .

فالمال الصناعي الذي ينتجه على القارة النحاس والآلات كان يصبح سُكراً حين يمس الجزيرة : لقد كان يشتري الحقول ، فيغطيها بقصب السكر ، ويشيد مصانع كانت تطحن السيقان لتأخذ منها سائلاً خليطاً .

تحوّل موقت . فان سكر اميركا الكوبي الذي يبيعه ملاّك اميركيون لمستهلكين اميركيين ، كان يتحول الى دولارات بمجرد وضعه على أرض القارة : وكانت هذه الدولارات تعود اكثر عدداً من حيث انطلقت ، فكانت توزّع على المساهمين بشكل اجمل الحصص التي توزع في العالم .

وكان تيودور روزفلت يرى الى ابعد من ذلك . فان هذه القطع الذهبية والفضية التي كانت ترسل لتقوم بالتمرين

والتدريب في بلد فقير ، ليست الا مظهراً واحداً من مظاهر الاستعمار الاقتصادي ، ربما كان هو أشد المظاهر مباشرة ، واكثرها التماعاً . ولكن ليس أوفرها عمقاً .

لقد كان تضخم قصب السكر يجعل منها القطاع ــ المفتاح للاقتصاد الكوبي ، أما الزراعات الاخرى ، المسحوقة ، فقد كانت تختفي ، او انها لم تكن تستطيع ان تولد . والزراعات التي كانت تقاوم ، كانت تُحصر في اضيق الحدود ، بحيث ان صناعة السكر ، كانت تنمو على حساب الصناعات الاخرى .

انه حظ الاستعمار : فهو بفعل السيطرة الاقتصادية نفسها ، يخلق لدى المضطهَد حاجات لا يستطيع أن يسدها الا المضطهِد نفسه . لقد كانت الجزيرة المصابة بمرض السكر ، والتي كانت مكتسحة بنبات واحد يتنامى دائماً وابداً ، تفقد كل أمل في أن تكفي نفسها بنفسها .

لقد كان للاتفاقات المتصلة بالسكر سيئاتها : فقد وعد الكرم الصارم بأن يحترس من كل شيء . فسوف يُخضع صناعيو القارة للسعر الجاري البضائعَ المصنوعة ، وسيلتزم الزراع الاميركيون واجب بيع المواد الغذائية للفلاحين الكوبيين .

ويجب الاعتراف بأن الكوبيين كانوا مسرورين جداً في البدء . فقد كان كل شيء يبدأ كقصص الجنيات : ان السكر كان يتحول الى ذهب ! وكانت الولايات المتحدة قد استهلكت ٢,٩٦٣,٠٠٠ طن سكر عام ١٩٠١ ، منها ٥٥٠,٠٠٠ فقط من مصدر كوبي .

وفي أقل من عشرة أعوام انقلبت النسبة . فقد استهلكت ١,٦٧٤,٠٠٠ طن من السكر الكوبي عام ١٩١١ من أصل ٣,٨٠٠,٠٠٠ . وفي عام ١٩٢٥ استهلكت ٣,٩٢٣,٠٠٠ طن سكر كوبي من أصل ٦,٩٣٤,٠٠٠ .

وهذا يعني ان الجزيرة ادخلت ٢٧ مليون دولار في العام الأول من القرن ؛ وبعد خمس وعشرين سنة عاد عليها قصب السكر بـ١٩٣ مليوناً . ووصلت الانباء الى أوروبا ، فهاجر كثير من الاسبانيين الى مستعمرتهم القديمة . وكان قصب السكر الطويل القذر يغطّي الجزيرة ، ويمثل ربع الانتـــاج .

وكان لا بد من ربع قرن ومن الازمة الاقتصادية ليوقظ الأمة الجديدة من نشوتها . كانت قد تلقت في عام ١٩٠١ ، في نشوة النصر ، عروضاً ملتبسة : فقد عرضوا عليها — لأنهم كانوا يحبونها — ان يدفعوا لها ثمن منتوجها الرئيسي اكثر مما يساوي .

وبالطبع كان العرض يخفي شركاً ! ولكن أعيان الكوبيين رموا أنفسهم فيه ، ورؤوسهم في الطليعة . وتبعتهم الجزيرة كلها بادىء الامر ، وقد أعمتها ثروتها المفاجئة المجنونة ، وهذا النثار من الذهب فوق حقولها . خمس وعشرون سنة من الجهل والجمود : وبعبارة أخرى خمس وعشرون سنة من المشاركة في الذنب . كانت كوبا قد باعت نفسها . وقد أدركت ذلك بعد فوات الأوان ، لأن الذي كان ينفق عليها

كان يحتقرها قليلاً . كان يفرض عليها ، ليسيطر عليها سيطرة أقوى ، أن تعيش فوق مستوى وسائلها .

والواقع ان المتبصرين فهموا منذ ذلك العهد ان ميزان التجارة مع الولايات المتحدة الاميركية سيظل سلبياً الى الأبد . وكان الاميركيون يهزون اكتافهم حين كان أحد يشكو هذا الوضع أمامهم ، فيقولون :

ـ ان كوبا هي جزيرة متخصصة . فلتشتغل لنا نشتغل لهـــا .

وكانوا يشتغلون شغلاً جباراً حتى ان الجزيرة غرقت في بضائعهم ، من التركتورات والرافعات الآلية حتى السجائر ، مروراً بالغسّالات .

أما بشأن الزراعة ، فقد بلغت الأمور الى حد ان أخصب مقاطعات اميركا ، وجب عليها أن تستورد من الولايات المتحدة الاميركية ثلث مواردها الغذائية اللازمة لها ، بل نصفها في بعض المقاطعات .. وسوف نرى انه كان بوسعها أن تنتج هذه المواد من غير ان تنقص حصاد قصب السكر ساقاً واحدة . وهذا يعني بوضوح انها كانت تدفع بالدولارات ثمن حقها في الاحتفاظ بغذائها .

لقد كانت أراضي الجزيرة البور ، التي ضُحّي بها ، لا بسبب الزراعة الواحدة ، وانما بسبب النظام الاجتماعي الذي يقوم عليها ـ كانت هذه الأراضي تجد في بعض الأماكن من « اوهيو » و « اوتا » و « كاليفورنيا » تعويضها في

ملايين الهكتارات المحروثة باستمرار. فان الحبوب التي لم تكن تبذر في الجزيرة ، والنباتات التي لم تكن تنمو فيها ، كان يُعتنى بها بحماسة في القارة ، وكانت تغطي هناك مساحات شاسعة. كوبا قارّيةٌ برمتها كانت تغذي كوبا الاخرى ، الجزيـــرة .

كانت البرادات والبندورة تترك المرافيء الاميركية فتحملها السفن الى كوبا. أما الدولارات الجميلة التي هي ثمن السكر فان الكوبيين لم يكونوا يرون لونها : كان هذا القطع النادر يُصرف مقدماً ! وكان يبقى في الولايات المتحدة الاميركية ، في المصارف ، ليساعد على تأمين مشتروات الجزيرة. وهو لم يكن كافياً لذلك ، فقد كان ينبغي استيراد كل شيء ما دامت الجزيرة لا تنتج شيئاً .

ولم يكن ثمة ضرر بالغ لو ان الاستيراد والتصدير كانا ينموان معاً : فقد كان بالامكان سد الثغرات بتحويل أرباح محققة في قطاعات أخرى من التصدير الى الاميركيين .

وبعبارة واحدة كان الاميركيون يبيعون منتوجات ناجزة مقابل منتوجات خام أو نصف خام ، وكانت الحسابات تُعمل في واشنطن. ولكن هؤلاء العلماء المتزنين كانوا ، تحسباً لكل الظروف ، يقنّعون الحقيقة أقل فأقل : تبادل للبضائع غير منقطع ، وفي كوبا ، لم يكن المال مرئياً ، ما دام الاميركيون لم يكونوا يعطون شيئاً : وكانوا ينتشلون كل شيء ، وفي واشنطن كان كمية سلبية : ان الدين الكوبي

كان يتضخم بلا انقطاع .

وكانت الحكومة والمجالس في واشنطن تتخذ قرارات من جانب واحد عن السكر ، فكانت تحدّد ، بلا استشارة ، ثمن الطن ، والكمية الاجمالية للاستيراد ، والكوتا (النسبة المئوية للسكر الكوبي بالنسبة لمجموع الاستيرادات الاميركية.)

ولم يكن على كوبا الا ان تصمت ، فلو كان الأمر أمر قوة ، لكان باستطاعتها أن تحتج ، ولكن القوة كانت غائبة ، أو غير مرئية .

كانت تلك القرارات التحكمية تقوم ببساطة على قوة المال ، وعلى اتفاقات كان بعض القادة الكوبيين قد وقعوها بملء حريتهم . فكانت واشنطن تمسك بخناق حكومة الجزيرة بسبب انها كانت وستظل الزبون الوحيد الذي يدفع ثمن السكر أغلى من الثمن العالمي .

وكان مجتمع كوبا واقتصادها قد نموا منذ عام ١٩٠٠ على اساس هذه الأسعار المرتفعة . فلو أن الولايات المتحدة الاميركية ، على فرض المستحيل ، اوقفت اهتمامها بزبونها الممتاز ، ولو أن كوبا التي لا صناعة لديها ، ولا احتياطات ، وجدت نفسها مضطرة الى بيع سكرها بسعر رخيص من غير أن تكف عن شراء المنتوجات المصنوعة من الخارج ، لأدى ذلك الى الخراب : ان الجزيرة آنذاك ستسقط من عليائها على سوق الجميع ، فتحطم جانبيها .

وهكذا فإن البلاد التي هي ضحية غزارة زائفة تخفي

وراءها ديناً متراكماً ، والتي هي مخنوقة بامتيازها ، تعيش من بذخ غناها في كابوس ، في تهديد بالمجاعة يكاد لا يحجبه شيء .

وبكل تأكيد ، لم يكن من صالح الولايات المتحدة الاميركية أن تخفض الأسعار . فهذا يقتضيها ، في الوقت نفسه ، ان تترك سياستها ؛ ثم انها قد سبق لها ان وظفت في الجزيرة ، وخاصة في ميدان السكر ، رؤوس أموال كان لا بد لها من أن تحميها .

وتبقى هناك المنافسة الأجنبية : فقد كان للكوبيين في اميركا اللاتينية منافسون كانوا يحلمون بأن يحلوا محلهم . وكان بوسع واشنطن أن تفكر بشراء المزيد منهم ؛ كانت تستطيع بالاحتكار أن تقتطع جزءاً من « الكوتا » الكوبية . فحكومة الولايات المتحدة الاميركية لم تكن تجهل قوتها ، ولم تكن تكره أن تظهرها للعيان .

ـ واذا خفضنا « الكوتا » ، ماذا يحدث ؟

وبالاختصار كانت تمارس « الشانتاج » على هذه الأمة الصغيرة « السيدة » ، وكانت هذه الأمة تصمت ، لأنها لم يكن لديها شيء آخر تفعله .

الفصل الرابع

قبل ان يأتي كاسترو ...

هل البناء على السكر خير من البناء على الرمل ؟ لقد قامت كوبا بتجربة ضعفها المريرة . فبسبب السكر كانت في ايدي الاميركيين . وبسببه كانت تعاني رد فعل العالم على اميركا .

فوفقاً للاحداث والازمات ، كان سيدها يحثها على الانتاج او يحدّ انتاجها . لقد حثّها اولاً الى حد ان انتزع منها خمسة ملايين طن عام ١٩٢٥ .

وبعد ذلك بخمسة اعوام كان يقذفها بخشونة في « المالتوزية » فتعود الجزيرة الى ارقامها القديمة بعد ان حدّتها تعريفة « هولاي سموت » : مليونا طن . وكان لا بد من انقضاء سبعة عشر عاماً لتعود ارقام عام ١٩٢٥ ، ففي عام ١٩٤٧ بلغ الاستيراد خمسة ملايين طن . وفي عام ١٩٥٢ ضُرب

الرقم القياسي : سبعة ملايين . وكانت النتيجة المباشرة لذلك ازمة تضخم في الانتاج .

وجاء باتيستا فظن ان من الواجب معاملة الانتاج كما تُعامل الحُمى ، وان من الضروري تخفيضها بسرعة . وفي عام واحد هبط الانتاج من ٧ الى ٤ ملايين : وواضح ان العلاج كان أسوأ من المرض .

ربما كان الرقم « الافضل » يقع بين ٤ و ٥ ملايين . ولكن هذا لا يمنع من ان يكون السكر الكوبي شبيهاً بالبهلوان ؛ فان ثبات رقم « أفضل » مجرد لا يضمن الثروة ؛ بل ان هذه الانتفاضات السريعة الوحشية تحدث خراباً .

وما لم يكن الكوبيون قد فهموه بعد ، هو ان تضخم السكر قد هدم او زيّف جميع بُنيات مجتمعهم . فبدلاً من أن يتيح توزيعاً عادلاً للدخل القومي ، فان هذا النموذج من الزراعة الواحدة يقيم ثروة البعض على بؤس الآخرين .

في عام ١٩٠٠ ــ كانت كوبا ما تزال خارجة من الاقطاعية . وكان اقتصادها يبدو انتقالياً : فقليلةٌ هي الأراضي الكبيرة وضعيفةٌ هي الصناعة . والبورجوازية تتألف من أنواع مختلفة : من الصنّاع ولا سيما الزّراع .

وهذه المرحلة من النمو القومي كثيراً ما تُسمى بـ « ما قبل الرأسمالية » وهذه التسمية آتية بصورة خاصة من الكوبيين أنفسهم . والواقع ان الاتفاقات السكرية عجلت عمليات التحويل بأن حرّفتها . وهكذا اوقف التصنيع والتجميع

الصناعي منذ البدء .

وبالمقابل ، فان تدفق الرساميل الاميركية وتغيـــيرات « الكوتا » ــ التي كانت تعود بالخراب على من هم أقل غنى ــ قد شجعت استقطاب الاراضي ، فأكلت الاستثمارات الكبيرة أراضي الاستثمارات الصغيرة التي لم تكن تستطيع المقاومـــة .

ومن المؤكد ان الملاكين الكوبيين قد استردوا ، في أثناء نصف القرن هذا ، الأرض الكوبية : ففي عام ١٩٣٩ أنتجت المشاريع الاميركية ٥٥٪ من الحصاد ، والمشاريع الكوبية ٢٢٪ منه ؛ وفيما بعد انقلبت النسبة فأصبح ٦٢٪ من الحصاد ينتجه الكوبيون و ٣٦٪ منه ينتجه الاميركيون .

ومهما يكن من أمر ، فان التجميع يزداد سرعة ؛ فان ١٦١ مشروعاً تملك أو تراقب ١٨٤ الف «كاباليرياه» (الكاباليرياه يساوي زهاء ١٣ هكتاراً) أي ٢٧٪ مـــن الأراضي القومية .

والملاكون غائبون . فهم يعيشون في هافانا وفي نيويورك . ويسافرون الى اوروبا . ومدراؤهم يوزعون العمل على عمال مياومين : أربعة اشهر براتب ، من كانون الاول الى شباط . وبعد ذلك ليذهبوا فيشنقوا أنفسهم في مكان آخر ! وعلى هذا فيجب أن يعيشوا ثمانية أشهر من غير أن يفعلوا شيئاً ؛ ومن الطبيعي أن يستدينوا ، تارة من سمان القرية ، وتارة مـــن صاحب العمل . وحين يعودون بعد ثمانية أشهر يكون راتبهم

قد نفد مقدماً بفضل هذه الديون مع فائدتها .

هذه الأراضي بلا رجال ، التي يحرثها رجال بلا اراض ، يُطلق عليها الكوبيون الاسم الذي كان يُطلق على الأملاك القديمة الكبيرة : انها « لاتوفوندیا » . وهي تتميز ، كما في عهد الرومان ، بغياب الملاك ، وبالزراعة الواسعة ، وبشساعة المساحات البور .

فهل يتطلب السكر كل هذا ؟ نعم ولا . فان زراعة القصب تفترض ، مهما كان النظام والعهد ، تجميع الأراضي وحصرها ؛ ولكن الاتفاقات السكرية وحدها تتطلب « اللاتوفوندیا » .

ومصلحة الولايات المتحدة الاميركية هي ان يغذي زارعوها بتكاليف باهظة هؤلاء الاخصائيين : فلاحي كوبا . والزراعة الموحدة تعود بأرباح مضاعفة : اولاً بما تنتجه . وثانياً بما تمنعه من الزرع .

فاذا بذر الكوبيون الأرز وزرعوا البندورة فماذا يفعل فلاحو القارة ؟ ان الاميركيين بكل تأكيد لم يكونوا يتمنون أن يغمر القصب الجزيرة حتى التخوم . فقد كانوا يخشون تضخم الانتاج وازدحام الاسواق ، والازمات . ولكنهم كانوا يقولون : لماذا تفضون بكارة اراضيكم البور ؟ فالأرض العذراء ، مئة بالمئة ، شيء جميل جداً . خذوا طلباتنا من السكر ، طلبات الزبائن النادرين الذين نتيحهم لكم ، فازرعوا القصب واحصدوه وفقاً لمتطلباتكم ؛ اما بشأن الباقي ، فلتظل

الجزيرة طبيعة : دعوها للشمس والبحر .

وكان كبار الملاكين يجدون النصيحة مصيبة : فبمقدار ما يُهمل القصب ، تزداد قيمته .

لقد قلت ان الاغراس كانت تحرق بعد مضي سبعة أعوام لتردَّ للأرض المرهقة قوتها . ولكن الساق نفسها تُقطع ست مرات متتالية ، فينمو الجِذلُ من جديد ، وفي كل عام ينتظر ، ابتداء من كانون الأول ، المنجل الاسود ليقطعه في وقاحة .

فلماذا تراهم كانوا يستنفدون قواهم لمصلحة هذه القطعة من النبات ؟ لماذا العمل بالسنتمتر وتغطية الجزيرة بالتحف الصغيرة ، حين تكون حركةٌ واحدة كافيةً لزرع ألف هكتار ومنح صاحب الأرض سبعة أعوام من السعادة ؟ سبعة أعوام من الرحلات أيضاً : إن القصبة ، حين تقطّع أوصالها ، تنبعث من جديد وتقدّم نفسها للساطور نفسه ؛ فأية حاجة للملاّك ؟ ان شيئاً ما لا يتغير ، ومدير عمل واحد يكفي .

لقد عرفت جميع العواصم هؤلاء الرجال الممتقعين السِمان الذين ترهقهم دائماً ، حتى في باريس ، ذكرى حرارة استوائية كانوا يفرّون منها . وقد كانت هذه المنتوجات ، نصف الناجزة ، تأتي كالسكّر لتكرر نفسها في اوروبا : وكان أحدهم يعرف جميع طوابع المانيا البريدية ، وكان الآخر يعرف تاريخ مصانع « غوبلين » .

أما هناك فقد كانوا يظلون برابرة — حتى في غيابهم — لأنهم كانوا يكتسحون اخصب الأراضي في نهم خشن ، وبوسائل روتينية ، ثم يتركون باقي الأرض للاشواك .

لقد كانوا يملكون ١٨٠ الف «كاباليرياه» أو يراقبونها ، ولكنهم لم يكونوا يزرعون منها اكثر من ١٢٠ الفاً . كانوا يريدون انتاجاً مرناً وحكيماً يتبع تماماً ما ترسمه اهواء الكوتا .

وقد كان تخصص الجزيرة يروق لحُماتها الاجانب ، ولكن الملاّك الكوبي كان يجد في ذلك نصيبه . فما الذي تطلبه الزراعة الواسعة الممتدّة ؟ انها تطلب فرقاً من العمال الزراعيين يعملون ثلث السنة ويطردون بعد ذلك حتى السنة التاليـــة .

اما الزراعة المتعددة ، فتتطلب — اذا أريد لها ان تنمو — ما تتطلبه في مناطق اخرى من الجزيرة : تكنيكاً «مكثفاً» ، وحضوراً مستمراً للفلاح ، فيجب تنمية وتطوير شبكة برمتها من المزارع ؛ واذذاك لن يكون الملاّك بعد سيداً على أرضه .

وقد خشي أصحاب «اللاتيفوندیا» أن يجعلوا الفلاحين أشد بأساً واكثر وعياً لحقوقهم . وكان قاطعو القصب يغضون احياناً ، ولكنهم كانوا اشخاصاً طيبين شجعاناً لا يعرفون القراءة . ثم انهم كانوا يشتغلون للقمة خبز .

ان عهد «اللاتيفوندیا» والتعقيم الارادي لكوبا يسيران جنباً الى جنب : وان دورة السكر الجهنمية تتطلب ذلك ، الى الحد الذي تمارس فيه تأثيرها من بعيد على اقدم مشروعات

الجزيرة المسماة « الغانا ديريا » .

لقد كانت تربية الحيوانات الداجنة التي جاءت بها اسبانيا قبل الحرب هي المورد الرئيسي للجزيرة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

ولكنها هُزمت بزراعة قصب السكر ، فسقطت الى المرتبة الثانية ، واصطفت وراء هازمها واجدة في هذا الانتصار نفسه تشجيعاً لها على تنمية ميولها التعميرية القديمة : ففي عام ١٩٥٨ كانت عائدات تربية الدواجن مئة مليون دولار . وقد شغلت مئة الف رجل ؛ وبالنظر الى هذه الخدمات الطيبة وجد المربون أمراً مشروعاً ان يحتلوا ٦٨٪ من الأرض الكوبية .

وكان في الثلاثمئة الف هكتار التي أتخذوها لأنفسهم أنواع مختلفةمن الأراضي بالطبع تتراوح بين الخصوبة والبور . ولكن قبضة من كبار الملاّكين كانت تحكم على جميع هذه الأراضي باللاخصوبة .

وكان القطيع يتنقل في هذه المسافات الشاسعة : وعلى أرض القارة كان منتجو الأرز والبندورة والفاصولياء الحمراء يجمّعون الثروة . وهكذا كان الاستعمار الاميركي يدعم ، بلا حركة ولا كلمة ، وبمعونة حلفائه الكوبيين ، الاقطاع الذي زعمت قوته العسكرية انها قد هدمته .

كان مربو الحيوانات والزراع يخدمون مصالح الاميركيين ومصالحهم حين كانوا يصرفون هذا البلد عن تصنيع نفسه .

لقد كانت الولايات المتحدة الاميركية تخشى المنافسة ، وكان كبار الملاّكين يخشون تصدع التوازن الداخلي : فاذا سمح للبورجوازية الصناعية أن تنمو ، واذا ترك الفلاحون ذوو الرواتب الحـّول ليشتغلوا في المصانع ، فما الذي يحدث ؟

وقام هؤلاء الملوك الصغار « بالشانتاج » باسم اميركا ، ومن غير ان تتدخل . وكانوا يرددون في صحفهم وفي جمعياتهم : « احذروا القصاص » . وكان اذا أراد احد ان يؤسس مشروعاً صاحوا بوجهه : « انك مجنون ، وسوف يؤدي ذلك الى تخفيض « الكوبا » .

واتفقت جميع الحكومات الكوبية على صرف المؤسسات عن مهمتها . وحمى الجمرك ، بحجة التبادل الحرّ ، غزو البضائع الاميركية للسوق ، وشجـّع « البنك الوطني » ، والمصارف الخاصة ، ومكاتب التسليف ، عمليات البناء ، فقلبت بذلك المجرى الطبيعي للرساميل ، وزهـّدت الكوبيين بتوظيف أموالهم في الصناعة ، وحولت البورجوازيين الصغار — باللرغم عنهم أولاً ، ثم برضاهم — من ملاّكي عقارات أو بيوت الى اصحاب ايرادات .

●

ان الافكار تولد من التطبيق . فحين يكون هؤلاء الرجال قد اقتنعوا بأن مصيبتهم ستظل ثابتة ، وبان قانوناً وضع خصيصاً لجزر « الكرايب » كان يمنع الكوبيين من زرع

البندورة او من صنع أقلام الحبر بأنفسهم ، فانهم يخرجون بالنتيجة التالية : لا نوقظ الأرض التي تنام ، ولندع الجزيرة تهلك ، وأرضها الجرداء تتشقق تحت الشمس ، لتسقط الزراعة المتعددة والتصنيع ، ولنضع رساميلنا في البناء وحريتنا في الزهد وقهر الذات .

وفي عام ١٩٤٩ كانت الدعاية شديدة الأحكام ، حتى ان عاملاً انتزع من يدي المشط الذي كنت اريد شراءه وهو يقول لي :

ـ ليس هذا يا سيدي : فانه مصنوع عندنا .

وبالطبع فان النظام كله يقوم على قلة الرواتب قلة لا تصدق . فليس بالامكان لوقت طويل بيع منتوجات زراعية ، حتى بأغلى الأسعار ، مقابل آلات ، الا ان تكون اليد العاملة الريفية لا تجدي شيئاً . والبطالة وزيادة عدد السكان هما مساعدان لا غنى عنهما : فاذا ازداد طلب الاستخدام لعرض يظل ثابتاً ، فان كل امريء يكو ن أقل تطلباً من جاره بحيث يميل الراتب المتوسط نحو الصفر .

وللأمية في هذه العملية دور تلعبه . فان الشعب الذي يفتقر ليزيد غنى أغنيائه بملء ارادته ، من الأفضل ان يظل في جهله .

ان تعليم القراءة يعني تعليم اصدار الاحكام . اذن فلن يعلموه شيئاً . وسيبدأون بعدم فتح المدارس له .

حين تولى كاسترو السلطة ، كان نصف المدرسين في

عطلة غير محدودة وبلا راتب ، لعدم وجود المساكن . وحين عادوا الى العمل ضوعف عددهم ثلاثة أضعاف . ولكن ذلك لم يكن كافياً . وبالاختصار كان ثمة ، قبل عام ١٩٥٩ ، زهاء ٤٥ ٪ من الاميين و ٤٥ ٪ من الفلاحين بين الكوبيين . واظن ان النسبتين كلتيهما كانتا تمثلان بالاجمال نفس الأشخاص : ان الجهل لم يكن نتيجة البؤس ، فالبؤس والجهل قد فرضهما في الوقت نفسه أسياد الجزيرة .

يقال في أوروبا ان كوبا بلد متخلف اقتصادياً . وانا معجب بحشمة هذه العبارة الجديدة المولدة : متخلف اقتصادياً ! ان الذنب ليس ذنب أحد ، وربما كان ذنب الطقس او الاقليم ، أو ربما كان ذنب موارد الأرض . ومن يدري ؟ لعله خمول السكان ؟ وعلى كل حال ، هي الطبيعة . لقد بدت رديئة أو بخيلة او مفرطة التبذير بهباتها ، المهم ان لا نبحث عن المسؤولين بين البشر .

والأمر على عكس ذلك تماماً ، فمنذ وصولي الى هنا وانا ارى جرائم البشر في كل مكان ، وهي جرائم تفقأ العين : ان الشانتاج والعنف هما اللذان كانا يؤديان بالكوبيين الى تطبيق الزراعة المتسعة التي تعود بأكبر الكوارث على الأراضي وبأشد البلاهات على العمال ، ان العنف والشانتاج هما اللذان كانا يحيلانهم الى الخدمة الدون برفض تنويع الزراعات والى البطالة برفض اعطائهم المصانع .

لقد اوقف رجال ، باسم مصالحهم الخاصة ، تاريخ

كوبا في عام ١٩٠٢ وخلقوا لها ، بواسطة نفخ الدولارات ، اقتصاداً متقهقراً . انني اقرّ بأن كوبا بلد متخلف ، ولكن السبب هو أن بلاداً أخرى ، بمعونة مشاركات داخلية ، هي التي حالت بينه وبين النمو والتطور .

وان هذه المشاركات أمر لا غنى عنه . فهي قد انقذت الوجه ، فاحتفظت الصرامة براحة ضميرها . ولقد قلت ان بعض الزراع ، في مطلع القرن التاسع عشر ، كانوا يدفعون الاميركيين الى الاستيلاء على الجزيرة وضمها اليهم .

ولقد عرفت حكومة الولايات المتحدة هذا الاغراء . ولكنها لم تستجب له قط . ان الدولة الكبيرة لا تنكر مبادئها . وحين وُجد حوالي عام ١٩٠٠ اشخاص عاقون أخذوا على الجيش المحرر أن يطيل اقامته في كوبا ، استشاط الرئيس واشنطن غضباً ، ان بلد الحرية يريق دمه ليعطي الآخرين الحرية لا ليأخذها منهم .

وانتهى الأمر بالجيش الاميركي الى الانسحاب في الواقع : ولكن بعد ان اقيم الجهاز الاستعماري . لقد كانت اميركا تمنح الامة الفتية السيادة ، ولكن الاتفاقات السُكرية كانت تسرق منها في الوقت نفسه استقلالها الاقتصادي .

لقد كان واشنطن يعترف بحقوق كوبا المشروعة . ولكنه كان ينزع منها وسيلة اثبات قيمتها . و فيما بعد بسطت الولايات المتحدة الاميركية سلطتها على شانتاج السكر . وكان هذا التهديد يرعب الملاكين : فلم يكن مؤكداً انه كان

يُخيف الفلاحين . فلقد كانوا يعانون معاناة شديدة من آلامهم الحقيقية بحيث لن يُضيفوا اليها وساوس وهمية . واذا حدث يوماً ان غضب هؤلاء الواقعيون ، فسيكون من العبث التلويح بتخفيض « الكوتا » أمام أعينهم . ان الأمر يقتضي دعوة العودة الى النظام بصورة فعالة .

القوة . ولكن اية قوة ؟ فحتى في عهد تعديلات « بلات » كان كل تدخل مسلح تقوم به الولايات المتحدة الاميركية يبدو مزعجاً ؛ فما جدوى وضع النقاط على الحروف ؟ ان من حسن الحظ انه كان للقارّيين حلفاء في الجزيرة . وهنا يتكشف ، في أهم مظاهره ، الاتفاق الذي تمّ بحركة يد ، من غير ان يُفضح قط ، بين الصارمين الديمقراطيين والرأسماليين من جهة ، والسادة الأعيان الكاثوليكيين في هذه المقاطعة الزراعية . وقد كان طبيعياً ، بالنسبة لهؤلاء الملاكين الكبار ، أصحاب « اللاتيفوندیا » الذين جرّدوا الأرض والناس ، ليس فقط لصالح المنتجين الاميركيين ، وانما أيضاً لصالحهم بالذات ، أن يتخذوا لأنفسهم بأنفسهم أجهزة ضغط وقمع . وكان الجيش كوبياً .

وكان قادته المنتمون الى الارستقراطية العقارية يشاطرونهم أحكامهم المسبقة . أما الجنود فقد كانوا من المرتزقة ، أو من الفلاحين الذين أرهقهم البؤس ، أو من العاطلين الذين باعوا انفسهم لأكرم الشارين . خمسون الف رجل ، وثكنات في جميع المنعطفات ، في المدن وفي القرى .

وهذا الجيش لم يكن يطيع حقاً رئيس الحكومة الكوبية ، أياً كان : فقد كان مأجوراً . وفي الحقيقة كان هو القوة الصريحة لهؤلاء الملاكين الكبار ؛ وكان يدعم نظاماً ما دام أسياده الحقيقيون يجدون فيه مصالحهم .

ثم كان في اللحظة المناسبة يهدم هذا القصر الكرتوني أو يتركه ينقلب ، معلناً حياده ؛ ثم يحل قادة جدد محـــل القدامى ، فيدعهم الجيش يثرثرون على هواهم ، ولكن أيامهم تكون معدودة .

وهكذا كانت المؤسسات السياسية تصلح غطاء للواقع الكوبي ؛ لقد كانت تقنّع الديكتاتورية العسكرية التي كان ملاكو العقارات يمارسونها على البؤس ، حتى في العهد الديمقراطي .

أما الجيش المأجور ، فقد كان يخفي تحت زينته ونزعته القومية ، دوره المزدوج الدائم : وأنا على يقين من أن بعض ضباطه كانوا يملأون رؤوسهم بالضباب حتى لا يروا انهم كانوا يحمون ضد الشعب طبقتهم والاستعمار الاجنبي في الوقت نفسه . ولا بد ان اكثرهم قحة كانوا يبتسمون : لقد كان من شدة خبث هؤلاء الاميركيين انهم أجبروا الشعب الكوبي على أن يسد حاجات الجيش القومي الذي كانوا يتولون مراقبته ، وهي حاجات باهظة النفقات . وعلى كل حال ، لم يكن القادة العسكريون يسائلون أنفسهم غالباً . لقد كان الجيش جيش السكر ، وهذا كل ما في الأمر .

لم يكن للجيش أن يتدخل في أمر تواطؤ كبار الاقطاعيين مع الأجنبي . فقـــد كان يؤمّن بوجوده ان يكون قصب السكر ويبقى قَدر الجزيرة .

ان الهند تنتمي الى الانكليز ، عن رضى أو عن قسر ، ما دامت جيوش جلالته موجودة فيها . اما كوبا ، فلم تنتمِ قط الى الولايات المتحدة الاميركية : والدليل هو هذا الجيش الوطني الذي تنص عليه القوانين الاساسية للديمقراطية الكوبية والذي كان يضمن ويؤمن النظام والمؤسسات واستقلال البلاد .

ولا بد من الاعجاب بصورة خاصة بهذه الشعوذة : كانت السيادة القومية تجد أقوى تعبير لها وأعظم سند في المؤسسة العسكرية ، وكان الجيش الذي صنعته ، بوجودها ، وأصولها ، واخلاصاتها ، يصبح ، حتى من غير أن تتنبه الى ذلك ، المطرقة العالقة التي كانت تفتتها .

وهكذا ساد صارمو واشنطن ، من غير أن يرى احد ايديهم قط . بل لقد استطاعوا ، من غير جهد مفرط ، أن ينسوا هذه الفرق التي لم يكونوا يشرفون عليها وربما لم يسبق لهم قط ان رأوها ، وان يعتبروا أرباحهم ومكاسبهم كعلامة لرضى العناية الربانية .

الفصل الخامس

لا يمكن لهذا ان يدوم !

هو ذا اذن سوء طالع كوبا ، المستعمرة التي تريد ان تتحرر ، والتي تجد نفسها بعد سنوات طويلة من الحرب ، نصف مستعمرة . ولقد بدأ ذلك عام ١٩٠٠ ، وبعد ٥٩ سنة نُسف كل شيء : انها الثورة . فلماذا ؟

لأن هذا المجتمع المحطم ، المفتت ، لم يستطع ان يتحمل هزاله الشديد . لقد انتج في جانبيه انقلاباً عظيماً تحت الأرض ، اخذ عاماً بعد عام ، يدور بسرعة متزايدة ، مكتسحاً كل شيء ، جاعلاً الوضع كل يوم أقل احتمالاً من اليوم السابق : فمنذ نهاية القرن الماضي لم تكفّ نسبة المواليد عن الارتفاع . وقد كشفت بحبوحة العهود الأولى الخداّعة عن حركة تبناها البؤس لحسابه وعجّل بها . لقد

كان عدد سكان الجزيرة في عام ١٨٩٩ مليوناً ونصف المليون. وفي عام ١٩٦٠ أصبح عددهم ستة ملا يين وستمئة الف.

وارتفاع نسبة المواليد هو صفة مشتركة للأمم «المتخلفة اقتصادياً». فأمام الحياة وأمام الموت يحتفظ الفلاح بعاداته التقليدية، فيضع الأولاد بلا حساب: ان الطبيعة تعطيهم؛ فاذا كانوا اكثر من اللزوم استردتهم.

ثم ان بالامكان أن نتصور ان قاطع القصب لم يكن في رأسه ما يُسمى في بعض البلاد «المستوى العائلي». ان تنسيق الولادات يقتضي الايمان بالمستقبل.

وحتى عام ١٩٥٩ لم يكن للكوبيين مستقبل؛ كانوا يعيشون للحظة، ولا سيما الأشد بؤساً الذين كانوا ينتظرون كل سنة، بعد أربعة أشهر من العمل، عودة ثمانية اشهر من البطالة. وليس مثل الخضوع والاستسلام قادراً على زيادة النسل: وليست العائلات المؤلفة من احد عشر ولداً نادرة في كوبا، حتى في المدن، حيث حافظت البورجوازية الصغيرة على بنية العائلية الابوية وايقاع الولادة القروي.

وفي عام ١٩٢٠ قام توازن سابق لأوانه بين مضاعفة الاولاد ومضاعفة أطنان السكر في كوبا. ومن سوء الحظ ان الانتاج بلغ ذروته عام ١٩٢٥ ثم هبط، وظل، بالرغم من تحولاته القاسية، ضمن حدود ثابتة ومتقاربة بحيث ان مدة الولادات طغت على كل شيء. ففغرت في كل مكان

أفواه جديدة ، أفواه تطلب الغذاء .

ولكن الغذاء لم يكن ليزداد . وكان الأولاد أفقر من الآباء . ان الأولاد يولدون من البؤس . والبؤس يولد من النظام القائم . وما دامت الصناعة متروكة حتى تأسن ، فان أولاد العاطلين سيكونون عاطلين منذ الولادة .

لقد كان على عبد القصب ، براتب الأربعة اشهر ، أن يعيل اسرة تنمو كل عام . فلم يكن مستوى الحياة يكف عن الانخفاض ؛ وفي الأرياف كان ثمة ثلاثة ملايين رجل قد ولدوا من أبوين ناقصي التغذية ، فعاشوا وهم بحاجة الى التغذية ، من غير أن يعرفوا المجاعة الحقيقية ؛ أما الشبان فكانوا يغادرون المدن لأنهم لم يجدوا فيها عملاً ، ويهاجرون الى أوروبـــا .

لقد كنت أتساءل منذ لحظة : من أي كارثة غير مرئية استمد الكوبيون هذه الطاقات الثورية ، المقنّعة بالاستسلام والخضوع ، وهذا العنف الذي قذف بهم الى طريق الثورة ؟ وقد عرفت الجواب . انه في الحقيقة مدار السكر . فعاماً بعد عام يزيد ضغطُ تعداد النفوس ، الخصومةَ المتبادلة بين ذوي الرواتب ، ويجعل من كل انسان ، تجاه كل انسان ، منافساً يريد أن يسرق منه مكانه . وعاماً فعاماً يميل الراتب المطلوب ، من تلقاء نفسه ، نحو الصفر ، فيتزاحم الناس على العمل ، ويشتغلون بأجور زهيدة جداً . وعاماً فعاماً ينقص العدد النسبي للمدارس من غير أن يكون ثمة حاجة

الى تخفيض نسبة فتحها وبنائها .

وهكذا يتماسك النظام بنتائجه . لقد خلق ، بلقاحات وحشية ، هذا المسخَ المصاب بالداء السكري : جزيرة من السكر ، وانتجت الجزيرة بدورها مسخاً : فأخذ رجل السكر يتنامى ويزداد .

وكان هذا الوحش الأبله يملك مكراً وجرأة ، فتركوه يستعملها بل اكثر من ذلك ، كان باتيستا قد انسحب الى الولايات المتحدة . فمن نصحه بأن يرشح نفسه عام ١٩٥٢ لأنتخابات الرئاسة ؟ ومن موّل المعركة الانتخابية ؟

ومن الذي أشار عليه بأن يتخطى سقوطه المرجح بالقيام بحركة الانقلاب ؟

إنها على أي حال ربّة قصب السكر ! لقد جاء وهـو يحمل رسالة محدّدة : ايقاف تضخم الانتاج ، أي إلقاء الوف العائلات الفلاحية في البؤس ، وكمّ فم الجزيرة .

ولكن اذا كانت مصالح السكر ، قد وجدت عام ١٩٥٢ مدافعاً يبلغ هذا الحد من الفظاظة والخشونة ، فان ذلك لم يكن بالتأكيد بالمصادفة او بالاتفاق . ان « ماشادو » نفسه الذي حكم كوبا حتى عام ١٩٣٣ ، كان يظل على مستوى الانسان . انسان نهم بكل تأكيد ، وشرير : ولكن الجزيرة لم تكن قد أصبحت بعد مريضة جداً ، ولم تكن تكن بحاجة بعد الى حكومة — قرد .

وحين تولىّ « شامبانزي » السلطة عام ١٩٥٢ ، كانت

الأوراق قد طرحت ، واللعبة قد لعبت ، وكان اسياد الجزيرة ـ في داخلها أو في الخارج ، يدركون بغموض انه لم يكن ثمة الا الخيار بين أمرين : فاما أن يكون الكوبيون قروداً ، أو يكونوا ثوريين .

ذلك أن النظام قد أصدر حكمه على نفسه : لقد زادت نسبة البؤساء في الشعب ، خلال خمسين عاماً ، أربعة اضعاف . هل هذا تضخم في زيادة عدد السكان ؟ كلا ! فان باستطاعة الجزيرة ، اذا إستُثمرت استثماراً صحيحاً ، ان تُطعم ، بكل يسر ، عشرة ملايين نسمة .

ولكن نظام السكر ، بكبار ملاكيه ، اصحاب « اللاتيفوندیا » هو الذي كان يعتبر المواليد الجدد على انهم حيوات فائضة زائدة عن اللزوم .

وحين كان البعض يوضحون للفقراء منذ وقت طويل بأن الانسان قد وُلد في الدنيا ليعصر الأرض بيديه العاريتين حتى يجعلها ترشح عصير القصب : « فاذا لم يكن سكر ، لم تكن ثمة جزيرة » ، كانوا يوضحون لهم أيضاً ان هـذا القانون كان يحكم عليهم بأن يعيشوا عيشة رديئة ، وان عليهم ان يقبلوا بنصيبهم .

ولقد قبلوا به ، ما وسعهم ذلك . ولكن خصب البؤس كان ما ينفك يخفّض مستوى الحياة : وفتحوا أعينهم ذات يوم ، وهم في خضوعهم ذاك ، فوجدوا الوضع اسوأ من ذي قبل ، وكان من الواجب عليهم ان يبذلوا جهداً جديداً

ليظلوا قادرين على احتمال ذلك الخضوع .

كانوا قد أقاموا الدلائل أمامهم على استحالة العيش بصورة كريمة ، ولكن اجسامهم اخذت تمارس فجأة تجربة استحالة اخرى : تجربة أن يموتوا مسحوقين كالحيوانات . ولقد سمع « كاسترو » ، وهو ابن عين من أعيان « اوريانت » ، سمع وحده تقريباً التمتمات الأولى ، الاصوات الأولى التي كانت تقـــول :

« إن هذا لا يمكن أن يدوم ، فيجب ... استبدال « البوهيو » بأي ثمن . »

كان الهنود ، قبل أن ينصرفوا نهائياً ، منذ ثلاثمئة سنة ، قد تخلوا للبؤساء الذين كانوا يسهرون على بؤسهم ، عن اكواخهم وعلموهم طريقة بنائها . و « البوهيو » هي نوع من الأكواخ ، بني بواسطة بعض ألواح خشبية تقام حول عمود يحمل سقفاً مدبباً مصنوعاً من سعف النخيل المجفف . وأرضه من طين . وقد كان يعوزه كل شيء : الكهرباء بكل تأكيد ، ولكن المراحيض ايضاً . وعلى أرض سوداء باردة كان ينغل اولاد هِزال مرضى . اما الرجال فقد ذهبوا الى الحقول .

وكنا نرى احياناً ، على العتبة ، امرأة تنظر الينا نمرّ . تارة تكون بيضاء ، وتارة زنجية . ولكن الزنجيات والبيضاوات يملكن العيون الثابتة المجوفة نفسها .

ونحن لا نعرف في اوروبا هذا البؤس في الغزارة والخصب .

ان الفيضان النباتي يغطي كل شيء بحرائره وأصوافه . وقد وجب تمزيق السجاجيد وقصّها الى دوائر لكي توجد من جديد ارض للانسان : ارض عارية .

والأرض تقذف الى السماء هؤلاء الأسياد المتوحدين : النخيل الملكي . وبين هذه الأجسام البيضاء الرقيقة المنتفخة بالنسغ ، كان « البوهيو » شاهداً على ان العوز يصدر للبشر عن البشر . فبحقنات مكثفة من الدولارات ، زرع الأغنياء الفقر ، وندرة المؤن ، والجهل ، في قلب خصوبة لا تصدق .

ولقد رأى كاسترو هذه المفارقة التي تزداد بدهية ووضوحاً وشعر بأنها ستكون مصدر الثروة الفلاحية ، ان هؤلاء الرجال لن يقبلوا بعد ، لمدة طويلة ، ان يعذبوا الأرض ليطعموا أجانب وغائبين . وسوف يرفضون عما قريب أن يشتغلوا وبطونهم خاوية ، وان يشوهوا ، تحت ضغط الأوامر ، هذه الطبيعة التي لا تنفذ خيراتها ، ليقسروها على عدم اطعامهم وتغذيتهم . لقد كانت هذه الثروات ، التي هي في متناول اليد ، تكشف عن البؤس ، على انه جريمة .

ولأن كاسترو حدس بهذه الفضيحة العميقة حين كان الفقراء انفسهم يشعرون بها من غير أن يدروا ، فقد اكتسب لنفسه ، منذ عام ١٩٥٢ حق قيادتهم الى النصر .

وأتخيل ان هذا هو مصدر هذه النزعة الطبيعية التفاؤلية التي لاحظتها غالباً لدى الكوبيين الثوريين ، ان الطبيعة خيرة ، وان الانسان هو الذي يصنع الشر ، ولا بد لي من العودة

الى هـــذا .

أما الآن ، فنحن ما نزال في مرحلة التشخيص ، نحن أمام مجتمع يعيش على البنيات البدائية للعهد الاقطاعي ، ويجد نفسه مطحوناً بجهاز اقتصادي يحيله الى نصف مستعمرة ، مجتمع خصب بسبب البؤس ، وهو يختنق في جزيرته ، وسط اراض بور وموارد غير مستغلة .

ان قبضة من الرجال قد ساقت الشعب الى الاختناق ، وسوف تكفي قبضة من الرجال لكي تدعوه الى الانتفاض وتحطيم الآلة الجهنمية والقائها في جوف البحر .

ان بوسع الغضب ان يجرّ ثورة . ولكنه لا يكفي لقلب نظام . ولكي يرتمي شعب برمته على قلعة اسياده ، فيجب ان يعطى أملاً ما .

وكان الكوبيون قد فهموا ، في أثناء تقهقرهم المستمر ، ان « التاريخ » يصنع الرجال . بقي ان يقام لهم الدليل على أن الرجال يصنعون التاريخ .

كان يجب انتزاع « المصير » ، هذه الفزاعة التي غرسها الأغنياء في حقول قصب السكر .

وكانت الأمة الكوبية قد شبعت وأتخمت برامج . وفي عهد « الديمقراطية » كان بعض سادة المدينة قد اسكروا الفلاحين بالكلام العذب .

فعمل بسيط واضح ، كان وحده جديراً بأن يرد لهم شجاعتهم ، شريطة أن يتميز بكثافة الحادث الثابتة ، وأن

يكون ، بمظهره ، غير الناجز بعد ، بداءة لا تقوم على وعود ولا كلمات ، لمشروع يتطلب تعاون الجميع للوصول – شريطة أن يغير الحياة ، وأن يبث فيهم رغبة الاتحاد ، ليصلوا بهذا التغيير الى حدوده القصوى .

وجاء هذا العمل . فذات يوم ، سقطت الصاعقة ، من أعلى قمة في الجزيرة ، على السهول : فقد عزم « عصاة » كاسترو الذين يطاردهم الجيش والشرطة أن يشرعوا فوراً بتوزيع الأراضي ، وأبلغوا البلاد ذلك .

الفصل السادس

كانوا ينبعون من الارض كالشياطين !

قال لي كاسترو منذ أيام انه كان ثورياً بطبعه ، وحين سألته ما الذي يقصده بذلك أجاب :

ـ ذلك انني لا أستطيع أن أتحمل الظلم .

وأعطاني أمثلة استمدها من طفولته ومن حداثته ، وفهمت انه كان يحدثني عن نفسه وحده ، وعن المعاملات السيئة التي كان يتعرض لها . والذي راق لي في هذا الجواب ، هو أن هذا الرجل الذي حارب وما يزال يحارب من أجل شعب ، والذي ليس له مصلحة أخرى ، غير مصلحة الجميع ـ قد عاد بي أولاً الى غضباته الشخصية ، الى حياته الخاصة .

وقد قال لي : انه لم يستسلم مرة واحدة للظلم ؛ وانه كان يردّ الصفعة صفعتين ، حتى انه طُرد من المدرسة . واني لأتمثله ، وهو في الخامسة عشرة ، مخاصماً صغيراً ، قاسياً صغيراً ، غير قابل للكبح ، وانه كان خاسراً .

كان هذا الابن لأحد الأعيان تلميذاً داخلياً في سانتياغو ؛ وكان يقضي عطلته في ملك ابيه . في « الاوريانت » . وكان أخوه الأكبر قد بدأ يستعد ، لا من غير سرور ، ليستأنف حياة والده . ولكن لم يكن « فيديل » ولا راوول الأصغر منه سناً ، يعلمان ما الذي جاءا يصنعانه في هذا العالم .

وكان « فيديل » يأمل آنذاك ان يخرج من هذا الارتباك باكتساب المعرفة ؛ ان العلم سيهبه انواره ، فيفهم ويستطيع أن يُصفي عقدة الأفاعي هذه في نفسه ، وهذا العنف المختلط الذي كان يخنقه .

وسافر الى هافانا العاصمة ، فدرس ، ولكنه اصيب بالخيبة : لقد تعلم لا جدوى الكلمات ؛ كان الاساتذة يتكلمون لكي لا يقولوا شيئاً أمام فتيان حائرين .

أما الأسئلة الرئيسية — التي يتبرم لها شاب لدى دخوله الحياة — فقد كانوا يحرصون على ان لا يجيبوا عنها . ومما يدل على قوة فكره ، شعوره بأن المناهج والدروس غير كافية الى الحد الذي يشعر معه بأن ذلك ظلم يريدون ان يخضعوه له . كانوا يريدون أن يغمسوه في جهل عابث ذليل . واعتقد ان هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها عن فكرته

العميقة ، التي هي مصدر لا يُنكر لكل نشاطه التالي : فمهما كانت العوامل الطبيعية ، فان المصائب التي تفجع الناس ، انما تأتيهم من ناس آخرين .

لقد كان سادة الجزيرة الكوبيون ، وهم الطغاة الكسالى الشرسون ، يحذرون العلم والمعرفة ، لأنهما كانا يقودان الى الفساد والخراب . وكان إتلاف التعليم العالي أمراً مقصوداً ؛ فمن أجل حماية التخلف الاقتصادي الكوبي كانوا يجهدون لكي لا ينتجوا في كوبا الا رجالاً متخلفين .

وان عنف كاسترو ليس من قبيل السُعر والجنون ، فهو يظهر في الهدوء بقرارات لا تتزعزع ؛ انه لن يستسلم ، حتى ولو قلب الطبقة التي كانت تُريد ان تقطعه .

ولو ان هذا التصميم كان لدى شخص آخر ، لظل في حيّز الكلام ، اذ ما الذي يستطيعه شاب وحده مقابل مجتمع برمته ؟

غير ان ما جعل هذا التصميم عملياً ، وفيما بعد فعالاً ، هو انه اكتشف في الوقت نفسه ، ضد اساتذته ، وضد عائلته ، وضد طبقته ، ان النظام نفسه كان ، للأسباب نفسها ، يمارس ضغطاً واحداً على الطلاب ، اذ يحرمهم العلم ، وعلى أولاد الارياف ، اذ يحرمهم المدارس ، وعلى العمال ، اذ يقنن خبزهم .

وهذه الرؤية الواحدية للمشكلات الكوبية ستصبح فيما بعد « حقيقة الثورة » .

ولم يكن ذلك بعد عام ١٩٥٢ الا شعوراً مسبقاً. وقد أوشك ظهوره المبكر أن يطيح بفيديل.

والواقع ان الشاب لم يشك لحظة واحدة بأن رفاقه، وفي نهاية الأمر، سكان الجزيرة، يشاطرونه غضبه. فما دام هذا الغضب يزمجر في نفسه، فانه كان يزمجر في كل مكان. وبدافع من التفاؤل، لم يقدر تقديراً حقيقياً ارتيابية مواطنيه. فان الخضوع، هذا النتاج الدون للاضطهاد، كان يقنّع تمردهم العميق.

كان كل منهم ينتظر أن يبدأ جاره بحمل السلاح حتى يحمل هو السلاح. وفكر كاسترو: «سأبدأ».

سوف يهاجم ثكنة «مونكاد» فتكون تلك الشرارة. وفي اللحظة التالية تنفجر الثورة.

●

في تلك الفترة، كان الاخصائيون يعزون مصائب الجزيرة، بكل رضى، الى الطبيعة القاسية، او الى ترتيبات التاريخ: ونظرة كاسترو الثورية العميقة هي التي جعلته يبحث عن المسؤولين بين البشر أنفسهم.

ان آلية مخيفة تكتسح المجتمع: فيجب تغييرها. تلك هي البدهية الأولى، ولكنها لم تكن لتغيّر؛ فما الذي يمنعنا من ذلك؟ أتكون مصالح كبار الملاكين الكوبيين والرأسماليين الأجانب؟ هذا ما لا سبيل للشك فيه. ولكن كم يبلغ عدد

هؤلاء ؟ وأية قوة تلك التي تخضع البؤساء والفقراء والجائعين والعاطلين ، أي الجزيرة كلها ، لنهم قبضة من الأغنياء ، فتسحق الكوبيين وتمرغ انوفهم في التراب ، فيما هي تقنعهم بأن عليهم أن يقبلوا عبوديتهم كأنها القدر ؟

وفكر : انها الجيش . ان الجيش الكوبي هو اذن أخطر أعداء الأمة الكوبية .

ولماذا كان الفساد يبدو منذ خمسين عاماً وكأنه قانون كوبا نفسه ؟

حين كان الديمقراطيون المغتاظون يقومون تحت قيادة أمثال غرو او بريو ، بحملة ضد الحكومة الفاسدة ، وضد ارتشاء كبار الموظفين ، وحين كانوا يطلبون من الشعب ثقته ويعدونه بالاصلاحات ، وبتعيين وزراء ذوي ضمائر ، وموظفين لا يتزعزعون ، كانوا دائماً يخيبون هذه الثقة ، ويفشلون في الوفاء بوعودهم .

انهم في البدء يكونون شرفاء ؛ ولكنهم ما يلبثون ان يصبحوا اشد نهماً وفساداً من أولئك الذين كانوا يطردونهم . ذلك انهم إذ كانوا يتسلمون السلطة ، يقومون بالتدرب على العجز ؛ كان الرؤساء يتقاسمون الألقاب والامتيازات والمساكن التي كانت تحق للوزراء ؛ وكانوا يلاحظون بسرعة انهم لم يعطوا صلاحيات الحكومة ، فكانوا احياناً يطالبون بها كبار الملاكين ، فيجابون « تعالوا خذوها » . وكان باب كبير يدفع ، فاذا وراءه جنود . وكان هؤلاء الوزراء بلا سلطة

بلا وزراء ، يرون القوة الضاربة .

والحقيقة انهم لم يكونوا يملكون وسيلة للعمل ؛ كانت تنزع منهم أزمة الأمور ، فكانوا يجدون أنفسهم ، وهم على رأس البلاد ، على غرار ما كانوا في المعارضة : متكلمين .

وكان للشعب قد بدأ يثرثر ، كببغاء « زازي » : « انك تتحدث ، تتحدث ، وهذا كل ما تحسن صنعه . »

ولكن حين كانوا يكتشفون الخداع والتضليل ، ويكون الأوان قد فات ، فقد كان يجب عليهم أن يستقيلوا في يوم نصرهم الانتخابي بالذات ؛ بل كان عليهم اكثر من ذلك : ألاّ يُبرزوا أيضاً مظاهر السلطة . ولما كانوا رهائن الطبقة الموجّهة ، فقد كانوا ضالعين في ذنب تقديم المهزلة للناخب ؛ لقد غطّوا دكتاتورية كبار الملاكين ، أصحاب اللاتيفو ندیا ثم يعود الشبان والشيوخ ، في الصمت او في احاديث هامة ، فيستأنفون حلمهم الكوبي : تُرى ، هل يحكم الجزيرة يوماً رجال شرفاء زاهدون غير قابلين للفساد ؟ لماذا لم يحدث ذلك مرة واحدة بالرغم من التجديد المستمر ، والقاسي غالباً للسياسيين ؟

وكان قد سبق للمنفي في المكسيك ان فكر في شأن الجيش الكوبي ففهم ان مصدر فساده يعود الى أسبابه بالذات .

وكان يقول في نفسه : مهما يكن من امر ، فان المستعمرات تتميز عن انصاف المستعمرات ، بأن الفساد السياسي لا يقوم فيها ، لعدم وجود سياسيين قابلين للفساد . صحيح انه

يُشترى في المستعمرات ملوك صغار ، هم بكل بساطة خونة ، ولكن انصاف ــ المستعمرات هي بحد ذاتها اكذوبة ما دامت حقيقتها هي الاستعمار . واذن فان جميع الكلمات كاذبة ، ويجب ترجمة جميع العقود الاستعمارية بلغة ديمقراطية فيسمى « اتفاقاً حراً » ما يسمى في الحقيقة « واجباً من جهة واحدة » .

وهكذا تكون مهمة « الحكومة » نصف الاستعمارية ، ولو كانت شريفة ــ يعني في الأشهر الأولى فقط ــ هي ان تشوه اللغة وتحرّف الكلمات عن شعبها . فهي تخون دستورياً . وان خيانتها ، المكتوبة في طبيعة الأشياء تنتظرها ، حتى اذا لمحتها ، وقد تعبت من أن تبيع نفسها مجاناً ، وعلى مضض منها ، اضطلعت بمهمتها بجرأة وطلبت تعويضاً .

وكان كاسترو يفكر : كلا . ان الكوبيين لا يولدون لصوصاً ولا وكلاء خزينة سارقين . ان الفساد يولد من العجز . والعجز يولد من سيادة وهمية تقنّع التبعية المطلقة لاقتصادنا . وهناك قوة واحدة تحول دون أن يظهر هذا التضليل للعيان : هي الجيش . وهو نفسه تضليل وخداع ما دامت مهمته الحقيقية الخبيثة هي ان يهدم السلطة التي يدّعي انه يدعمها .

كان غاندي يريد أن يهدم نظام الطوائف .

وقد قال نهرو في مكان ما ان هذا النصير الكبير للاعنف ، كان يملك حدساً ثورياً صحيحاً ، فقد بحث عن الحجر الأساسي الذي كان يدعم البناء كله ، فوجده في طبقة المنبوذين ؛

ومنذ ذلك الوقت لم يكف عن مهاجمتها ، وكرس لها كل وقته وجميع طاقاته ، مقتنعاً بأن النظام كله سينهار حين تتفتت هذه الطبقة .

وهذا ما فعله كاسترو : كان الجيش هو الحجر الذي يجب تحطيمه . وقد أدت هذه التأملات لديه الى تغير في الهدف لم يلاحظه أحد : فقد كان يُظن في هافانا وفي مكسيكو انه كان يهاجم باتيستا ، حين كان لا يحسب لباتيستا الا نصف حساب .

فلو ان اركان الحرب الكوبي اتخذ المبادرة لقلب الطغيان ودعوة الشعب لحمل السلاح ، فان الجيش كان سيظل العدو العام رقم واحد . ذلك انه كان سيُفسد ديمقراطيي المستقبل هؤلاء كما أفسد أسلافهم . ولكان سيسحب من صدره في اللحظة المناسبة ، الطاغية الذي يحل محله .

أما النقاوة التي كانوا في كوبا ما يزالون يحتفظون لها بالحنين ، فان كاسترو ما كان ليعطي قطرة واحدة من دمه ليردّها الى السياسيين المدوّدين ، ولكنه كان مستعداً للمجازفة بحياته لكي يؤمنها للفرق الجديدة وليقيمها على الممارسة الحقيقية للسلطة — وبعبارة أخرى — على الاستقلال المُستردَ .

وقرر ان يعود وحده تقريباً الى الجزيرة لكي يشتت الخمسين الف رجل المسلحين الذين كانوا ينتظرونه .

ولكنه كان يعترف الآن بخطئه : ان محاولة القيام بحركة في المدن حيث يسود الجيش ، معناها الاعتماد ببساطة على

مساندة بعض العناصر العسكرية ، وهذا يعني التعاقد والتحالف ، ومن ثم الخسارة . ولهذا قرر كاسترو ، وقد أصبح اكثر خبرة ، وأدرك انه يقذف نفسه في صراع مميت ـ قرر في دورة الثأر ان يضرب العدو في منطقة ضعفه الوحيدة : فعزم أن يقاتل بعيداً عن المدن . في الطبيعة .

ان الأرض هي عدو الجيوش الكلاسيكية . فهي دائماً « أوسع مما ينبغي » بالنسبة للعسكريين ، فهم يضيعون فيها . وكان هؤلاء الأمراء يشعرون بالخذل في الحقول ، والوحدة تحيط بهم ، كان بالامكان مهاجمة المراكز واحداً بعد واحد وأسر محتليها .

وكم سيشعر أركان الحرب بالارتباك اذا ارسلوا امدادات . فان عليهم أن يؤمنوا المواصلات والتموين ويتقدموا خطوة خطوة : صحيح ان الأرض كانت تهتز تحت هذه الصفوف الثقيلة ، ولكنهم لم يكبدوا الثوّار قط أية خسائر كبيرة .

كان كاسترو ورفاقه المنسحبون خلف أسوار طبيعية ينتظرون مجيء الجيش ، وهم على ثقة من ان الفرق ستتحطم على سكاكين الجبال .

ولقد ذكرت ما كانت عليه الحرب في مرحلتها الأولى : فرار « مسرحي » حول القمم . واذ كان كاسترو يهاجم الثكنة وينزه معسكره الطائر عبر جبل « مايسترا » ، كان يتبع المبدأ نفسه : بدء العمل ، ثم الانتظار . مع فرق واحد : هو أنه كان ينظم نفسه ورفاقه هذه المرة ، لينتظر طويلاً .

ولم يكونوا يستطيعون في البدء أن يعتمدوا على احد. فان الدليل الأول الذي تطوع لخدمتهم اوشكوا أن يقتلوه، ذلك ان الجيش كان قد اشتراه.

وقد ساعدهم بعض الفلاحين. وأتيح لي، منذ أيام ان ارى احدهم، وهو قد أعان الفرقة الصغيرة، ويبدو انه انقذها من الموت. انه كومندان شيخ شديد البأس، ذو لحية رمادية، وان من ينظر اليه يحدس بأن حلفاءه في الساعة الأولى كانوا ينتمون جميعاً الى أوعى فئة من فئات طبقات الفلاحين.

ولا ريب في أن هؤلاء كانوا يعرفون القراءة ويحاولون ان يتعلموا وأن يتثقفوا. أما الآخرون، وعددهم قليل في الجبل او حواليه، فقد كانوا يلتزمون الحذر. كانوا يتساءلون: ماذا يريد هؤلاء الأشخاص؟ اننا لا نعرفهم. ثم انهم لن ينجحوا الا في خلق المتاعب لنا.

وفي البدء، حين كان كاسترو ورجاله يريدون سؤال فلاح عن حركة ما من حركات الجيوش أو عن طريق يسلكونه، كان لا بد لهم من أسر هذا الفلاح، والا، فان المسكين اذ يرى هؤلاء الرجال المريبين ينبثقون من البعيد، يترك منجله ويلوذ بالفرار.

لقد تعود الثوار ان ينبعوا من الأرض كالشياطين، وان يشكلوا دائرة حول الرجل، وان يمسكوه بلا عنف. وكانوا يطرحون عليه بلطف أسئلة لم تكن تحظى دائماً بالجواب،

وكانوا يقومون ببعض الدعاية ثم يتركونه يمضي .

غير ان القضية اتضحت منذ تلك اللحظة : ان الثورة الكوبية ستكون ثورة فلاحين ، او لن تكون ابداً . وقد كانت هذه الضرورة صادرة عن الأشياء اكثر منها عن الرجال . ولم يكن في الأمر حيلة .

ففي البعيد البعيد كانت المدن تنسحق في العجز . أما الريف فكان يفرض على التمرد شكله ، حتى قبل ان يشارك فيه ، فحين اختار المتمردون مهاجمة الثكنات الريفية الصغيرة المتناثرة ، كانوا يهاجمون عدو الفلاحين ، وكانوا يجعلون انفسهم فلاحين بالذات بطراز حياتهم ، ويطلبون معونة الفلاحين الذين كانوا يحمونهم .

وكشفت حرب العصابات الستار عن متطلباتها . فلكي تستطيع فرقة صغيرة سريعة أن تنبع بصورة مفاجئة فترهق العدو وتختفي ثم تظهر ثانية وتضرب ضرباتها في اليوم التالي على بعد عشرين فرسخاً ، فيجب ويكفي ان تعتمد بلا تحفظ على السكان الريفيين .

والأرض لا تقل اتساعاً بالنسبة لعشرين متمرداً عنها بالنسبة لفرقة من الجيش النظامي ، فانهم هم ايضاً سيضيعون فيها . ولكن وحدة الجندي المأجور وحدة نهائية .

فهو اذا جُرح ، مات في وسط السهول : واذا اراد المتمرد ان يربح ، فيجب أن تكون هذه الوحدة بالنسبة له وحده موقتة : وينبغي للطبيعة المنعزلة التي يجتازها المرتزق

من غير ان يلاقي روحاً تعيش ، أن تتحول ، بالنسبة لهذا المتمرد ، الى عش يغلي بالحلفاء والأنصار .

ولم يفكر كاسترو ولا رجاله في أن يحالفوا الفلاحين بالارهاب على الاطلاق : فذلك هو شرفه . ولو لم يكن هناك وسائل أخرى ، لفضلوا الاختفاء ..

وقد كانت هذه الجريمة هي الخطأ السياسي الأكبر الذي لا يمكن الصفح عنه : فان فرق باتيستا هي التي كانت ترهب البلاد ، وكان لذلك نتيجة واحدة : هي اخلاء الجو حول هذه الفرق . وما كان لارهاب معاكس يقوم به المتمردون ان يحرز نجاحاً اكبر . فعلى العكس ، كانت حياتهم في هذه الأشهر الأولى مرتبطة بخيط ، وكانت خيانة الدليل قد علمتهم ان وشاية واحدة كان يمكن أن تسحق الثورة في مهدها. ولم يكن هنالك الا حل واحد : هو ان يكونوا موضع حب .

كان ينبغي للثورة ان تنتقل الى ايدي ثلاثة ملايين رجل وقد كان يصعب عليها جداً ان تنزع منهم الحذر الا بأن تقيم الدليل انها انما تقوم من أجلهم هم : وكانوا منذ حرب ١٨٩٥ قد أقسموا ان لا يخرجوا الكستناء من النار من أجل عيون المدن .

ولقد كان المتمردون الشبّان محامين وأطباء واقتصاديين وصحافيين ينتمون جميعاً الى المدن ، فكان عليهم هم ان يحملوا الفلاحين على نسيان تلك الحرب .

ولكي يُصبح الفلاحون متمردين ، جعل المتمردون انفسهم

فلاحين ، فأخذوا يشاركون في أعمال الحقول . لم يكن يكفيهم أن يعرفوا حاجات الريفيين وبؤسهم : بل كان ينبغي ان يعانوها ويحاربوها في الوقت نفسه ، وسيكون الفلاّح مستعداً للاصغاء اليهم بقدر ما يتعرف الى نفسه فيهم : فضربة منجل محكمة تقطع السيقان كما يجب ، أشد تأثيراً عليه من خطاب طويل.

واذ طلبت حرب العصابات هذه الصلاة الجديدة بين الثائرين وبين الشعب ، كان من حقها ان تعرّف نفسها اخيراً باسمها الحقيقي : « الحرب الشعبية . »

ان تفكير كاسترو ينطلق من ذاته الى المجموعات ، من الجزء الى الكل . ولقد أدرك بسرعة هذا الانقلاب المفاجيء في المنظورات . ان تعايش الشعب مع المدافعين عنه ، سيجعل المتمردين موضع الحب . ولكن هذا لن يحبب ضرورة بالثورة .

كان قد صمّم على هزم الجيش النظامي لتكون يداه طليقتين فيقوم بالاصلاح الزراعي . ولكنه كان يلاحظ في اثناء العمل انه لن يربح مساندة الجموع الكلية ان لم تصبح الثورة مصلحتهم المشتركة .

وبالاختصار ، كان لا بد من هزم الجيش للقيام بالاصلاح . ولكن كان يجب القيام فوراً بالاصلاح — لا الوعد به — اذا كان يراد هزم الجيش .

ولم تكن هذه الدائرة مفرغة الا في الظاهر : فاذا كان ينتقل من المشروع المجرد الى الواقع ، كان يلاحظ ببساطة ان حياة هؤلاء المساكين لن تتغير الا اذا غيّروها هم أنفسهم

بأنفسهم ، وفي كل يوم . فاذا هو يجهد في ابتعاث ثورتهم وفي حملهم على اكتشاف متطلباتهم ذاتها .

وقد فهموا بسرعة : فاللاتيفوندیا ، والمزارع ، والزراعة الموحدة ، هي مصدر آلامهم ، ولم يكن الاصلاح يقدّم كما لو انه هبة كريمة من الحكومة المقبلة للشعب ، وانما كانت تُشرح لهم ضرورتُها القومية ولزوم انجازها السريع . لم يكن يقال لهم : ان البلاد ستكون سخيّة معكم ، وانما كان يقال : ان الامة تضيّع نفسها اذا ضيّعتكم . وللمرة الأولى ، منذ مطلع القرن ، احسّوا انهم في جزيرتهم ، مواطنون .

وكان من شأن الاصلاح الذي شُرع به ان يمنحهم الثقة بجيش المتمردين . وكان من شأن الانتصارات العسكرية ان تمنحهم الثقة بالاصلاح : فما دام القتال قائماً من أجله ، فان كل اشتباك كان يقدم ساعته . بل اكثر من ذلك ، ان كل اشتباك ، كان هو الاصلاح زاحفاً .

ان الحاجة تمضي الى نهاية نفسها منذ أن تعرف أسبابها ومتطلباتها : لقد كان الوعي ، على طابعه السلبي ، سريعاً وعاماً ، وفي هذه المرحلة الجديدة من الحرب ، تغير الفلاحون : فاذا بأولئك الخاضعين يأخذون لحسابهم خطط الثائرين ويتبنونها كمطاليب ، بحيث انهم هم الذين سيجعلون مطالب الثوار مطالب جذرية على نحو ما .

●

كان الاصلاح الزراعي هو حرب العصابات. ولكن حرب العصابات كانت هي الاصلاح الحقيقي: كانت الشعب الذي يدعم حركة الانقلاب فيمتصها ويحيل هؤلاء المتمردين ذوي الأصل البورجوازي الى فلاحين ثوريين.

الفصل السابع

الثورة : بين المتمرّدين والمقاومين

جميع الناس في كوبا يميّزون المتمرّدين (وهم جنود مقاتلون) من المقاومين (وهم مناضلو المدن السرّيون) وقد تعلّمت أنا ايضاً ان اميّز هذا التمييز .

على انني ، في الأيام الأولى ، كنت أضيع في ذلك ، كنت أفكر بأنهم جميعاً ، حليقين وملتحين ، قد اتخذوا الأهداف نفسها وتعرضوا للمخاطر نفسها وأظهروا الاخلاص نفسه الذي كان يكلفهم الهموم نفسها والأعداء انفسهم . وبالرغم من ذلك ، فان ثرثراتي البريئة كسائح ، والتي كانت تُسمع جيداً في العادة ، كانت تثير احياناً بعض الاستياء .

وقد سئلت يوماً في أثناء مؤتمر صحفي عما اذا كنت اجد

نقاطاً مشتركة بين الثورة الكوبية والثورة الصينية ، وبعد ان الححت على الفوارق ، كنت اتحدث عن النظام نصف الاستعماري الذي كان يميّز الجزيرة في عهد باتيستا ، والصين في عهد تشان كاي شك ، فكان الجميع يبدون موافقين .

ولكني حين قلت ، من غير خبث ، ان الثورتين كانتا تبدوان لي كلتاهما ثورتي فلاّحين ، وان القادة في الحالتين كانوا قد حرروا المدن بعد حرب شعبية ربحوها في الجبال وفي السهول ، صارحني بعض أصدقائي في قوة بأنني كنت على خطأ .

فان الثورة في رأي الحليقين كانت نابعة من المدن . وكاسترو نفسه ، ولو كان ملتحياً ، كان قد درس في العاصمة ، وامتهن مهنة مدني ، ولو كان في غير تلك الاوقات ، لمارس مهنة المحامي الحرّة . ثم انني كنت استهين أكثر مما ينبغي بالمقاومة السرّية التي كانت قد نظّمت في سانتياغو وفي هافانا ، وسانتا كلارا . وأضاف اصدقائي بأن الفلاحين انما جاؤوا فيما بعد .

ولقد شهدت عدة مرات مثل هذه المناقشات . فقد كان البعض يذهبون الى أن الفلاحين قاتلوا قليلاً او قاتلوا قتالاً سيئاً . بينما كان يرى الآخرون ، على العكس ، ان المدن لم تفعل شيئاً ، وان انتصار الثائرين لم يكن معزواً الا الى مساعدة الأرياف .

وكنت ألزم الصمت ، فقد كنت اشعر بأنه لم يكن تحت

الكلمات خلاف ، وانما فرق موقفي تجاه قضية اكثر واقعية ، وعمقاً . واظن اليوم اني فهمت معنى ذلك . فان المقاومين السرّيين والجنود المتمردين يملكون ارادة مشتركة في المضي ببرنامجهم حتى النهاية ، والحاضر يجمعهم . والمستقبل . ولكن ليست لهم الذكريات نفسها .

لقد أُجريت بينهم الاتصالات منذ عام ١٩٥٧ ، فخابر ثوار جبل مايسترا اصدقاء لهم في سانتياغو وسانتا كلار والعاصمة . وكان المقصود تنظيم المقاومة السرية .

وهكذا خُلقت ، في مختلف التجمعات المدنية ، حركة سرّية اسمت نفسها « ح . ٢٦ — ٧ » أي حركة ٢٦ تموز . وكان قد سبق لكاسترو ، منذ أربعة أعوام ، في يوم ٢٦ تموز ، أن قام بهجومه على ثكنة « مونكاد » . وكانت حركة ٢٦ — ٧ تعرّف نفسها ، بالنسبة اليه ، بأنها لا شك ممكنة . ولكنها ، انما اختارت لنفسها هذا الاسم ، لتؤكد اخلاصها لمفكر ومدني وانقلابي . وبالاختصار لواحد لم يكن موجوداً بعـــد .

وبعد بضعة أشهر ، كان لحركة ٢٦ — ٧ شهداؤها ، في حين أن الريف لم يكن قد عمل شيئاً ليخرج من خدَره . وقد كان هذا طبيعياً جداً : فان الفلاحين الذين كانوا غالباً ما يُخدعون ، كانوا على حذر . وكان لا بد من الوقت لاقتناعهم . أما المدن التي كان رجال الشرطة والمرتزقة يصفدونها ويقيّدونها ، فقد كانت تُنتج ، بسبب عجزها بالذات ، اكبر عدد ممكن

من الثوار .

وكان أحد كبار اصدقائنا ، « اوتولسكي » ، وهو وزير في السابعة والعشرين من عمره ، قد انضمّ الى المقاومة أثر ازمة دينية نصبته تجاه عائلته وتجاه نفسه .

فأخذ يقرأ بحماسة ، كل ما كان يقع تحت يده . ولم يكن يهتم قط بالعلوم الاجتماعية ، ولا بالتاريخ ، ولا بالاقتصاديات : فقد كانت الأديان والميتافيزيقيات هي موضوعه الوحيد ، الى اليوم الذي أدرك فيه ان المرء لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً من غير أن يدرس تلك . وكان يتنقل من كتاب الى كتاب مستشيراً اكبر مفكري كوبا ، مصاباً بالخيبة من الجميع ، لأنه لم يكن يعرف تماماً ما كان ينتظر . وقد احتفظ من هذه التجربة باستياء معمّم ، وبنفور من جزيرته غير دقيق ، ولكنه عنيف . وكاد ينتهي به الأمر دائماً الى طرح النظم الفكرية . وكان يشعر بوضوح بأنها لم تكن تناسب حالته ولا حالة الأمة نفسها . ولكن كل قراءة من قراءاته ، كانت تحمل له أسباباً جديدة لادانة الدكتاتورية ، بالرغم من انها كانت ما تزال اسباباً مجردة .

وكان كثير من رفاقه ، في ذلك العهد ، وخصوصاً كثير من مواطنيه الشبان المجهولين قد وصلوا ، بدروب مختلفة ، الى النتيجة السلبية نفسها : « هناك شيء فاسد في مملكة كوبا » . واضطراب هذه البورجوازية الصغيرة المستنيرة ، هو ما أسميه بسياسة الجرذ الميت . ان المرء يشمّ رائحة منتنة ، فيبحث

عن جثة الجرذ : أما في المدن ، فان الغابة الميتة ستفلت دائماً .

●

لقد استبد جنون الخوف بالشرطة والجيش فقتلوا عشرين الف رجل في عامين : الفاً منهم في الجبل ، أثناء معارك حاسمة ، وتسعة عشر الفاً في المدن . وقد دفعت حركة ٢٦ ــ ٧ ثمناً غالياً جداً لتردّ للعاصمة ولبضع قُرى كبيرة هامة عزّتها واعتبارهـــا .

وبالطبع ، كانت الشرطة والجيش يعذبان . ولم يكن ذلك على أي شكل علمي : فأنا اتحدث عن بلد متخلف . ولكنهم كانوا يجتهدون ، وكانت لهم نماذج ، وكانوا يفعلون ما يستطيعون : ولا يحفظ « فرانكي » ذكرى طيبة عن تعذيب صغير بليد يدوي أخضع له . ضربات جافة وموقعة على قاعدة رأسه :

ــ لقد حسبتني سأصبح مجنوناً .

وقد أوقفت امرأة تُعدّ من اوفر نساء الثورة شعبية ، هي وأخوها وخطيبها . ولم ترهما بعد ذلك ابداً . ولكن حُمل لها ذات يوم صحنان ، على أحدهما كانت عينا الأول ، وعلى الآخر ، كانت خصيتا الثاني . كانوا يخصون كلما راق لهم . وكانت الاستجوابات من الدقة بحيث أن المستجوب كان يموت في أثناء الجلسة من غير أن يكون قد اجاب . وكانوا يعدمون رمياً بالرصاص في ساحة السجون . وقد

جاءوا يأخذون « فر انكي » سبع مرات لينفذوا به حكم الاعدام ، وكان ينتظر في برد الفجر ، ثم يعيدونه الى السجن ، وهم يقولون انهم كانوا يمزحون . وقد أخضع كثير من أصدقائي الجدد للاستجواب التعذيبي وهم يستطيعون ان يقارنوا بين الطرائق والتكنيكات .

أما أولئك الذين كان من حظهم أن يمروا من ثقوب الشبكة ، وهي ثقوب كانت تضيق يوماً بعد يوم ، فان القلق كان يوقظهم عند الفجر . وهكذا كانت الأعصاب تُتلف في ذلك العهد . وقد قالوا لي جميعاً :

— ان النصر لا يمحو الذكريات بسرعة . فنحن نظل متوترين قلقين . واننا بحاجة الى اعوام لنسترد قوانا

وأنا من جهتي أعلّق على هذه الشجاعة الشاقة قيمة لا أعلقها على البطولة العسكرية . فان الذي يتحلى بها ، يقاوم وحده ، ومن غير شاهد ، ضد عدو قدير يريد أن يفضي بضحيته الى الذل والدناءة .

ومع ذلك ، فان « اولتوسكي » وعشرين آخرين ، حدثوني عن المتمردين بخشوع واستكانة . ومما لا شك فيه ان رجال الجبل هم الذين أوتوا الشجاعة الاولى ، الشجاعة ذات الثمن . وهم الذين قادوا ، وهم الذين بدأوا ، وهم الذين ثبتوا .

وقد كان شبان المدن هؤلاء بالرغم من انخراطهم التام في الثورة ، أبعد من أن يكونوا جذريين ككاسترو نفسه . او انهم بالاحرى ، كانوا يبقون على اوضاع تجاوزها فيديل

منذ وقت طويل .

ففي عام ١٩٥٨ مثلاً ، توترت العلاقات ، بصورة فاجعة احياناً بين المقاومين والمتمردين . وكانت الاتصالات من الندرة بحيث كان يصعب اكتشاف الخلافات في وجهات النظر ، ولكن المسؤولين من الفريقين لم يكونوا يجتمعون من غير استياء .

وكان « اولتوسكي » ينظم تموين المتمردين في مقاطعة « لاسفيلاس » . وقد أخبر ، حوالي نهاية الحرب ، بأن « شي غيفارا » كان متجهاً على رأس فرقة الى الجبل بخطى سريعة . ولم يكن هناك موعد مضروب ؛ وانما كان المفروض أن يلتقي الرجلان في مكان ما من الجبل .

والتقيا . ولكنه كان لقاء عاصفاً . وكان « غيفارا » قد تنـــاول طوال خمسة وأربعين يوماً احدى عشرة وجبة فقط ؛ فكان مزاجه سيئاً جداً ، وهو لم يخف تحديه عن الشاب الذي كان يعده بالمؤن . ولما كان « اولتوسكي » قد جهد كثيراً وقام بما امكنه القيام به ، فقد أغضبه هذا الاحتقار ، وخشي أن يدفع الجوع المتمردين الى أعمال العنف . وظن انه قد وقع على مغامر ، بينما ظن الآخر انه قد وقع على معاكس للثـــورة .

وكان كلاهما على خطأ . فقد كان « غيفارا » الحاسم في تصميمه ، والعنيف في تنفيذه كالجندي ، أوفر الجميع ثقافة وأعمق رؤوس الثورة وعياً بعد كاسترو ؛ ولقد رأيت

ان العذوبة وروح الفكاهة اللذين يظهرهما تجاه مدعويه ، لا بد أن يكون مجنوناً من يظن انه يستعيرهما لأيام الاستقبال . فان هذه العواطف تنبع تلقائياً منه بالرغم من تقطعها . ولكنه حين رأى « أولتوسكي » عام ١٩٥٨ ، لم يكن ثمة ما يهيوء للتنازلات ؛ لا الجوع ، ولا هذه الشجاعة الغامضة التي تفضل مواجهة الأسوأ وتعدّ نفسها له .

كان اولتوسكي ، الأصغر سناً ، والذي يكن الاحترام لهذا المقاتل الاسطوري ، والذي لم يكن مع ذلك أقل منه عناداً ، يواجه غيفارا ولديه تجربة الارهاب المدمنة ، والوضع والعلاقات البشرية التي كانت قد كوّنته — كان يواجهه بهذا كله اكثر مما كان يواجهه بالمصالح أو بالأفكار .

ان المرء يتعلم في المدن الاحتياطات والصبر والمراعاة : وهو لم يكن يرفض أن يمضي في النهاية ، ولكنه كان يفعل ذلك على مراحل ، وفي بطء . وبالاختصار ، فانه بسبب هذه العادة الأولى التي تكوّن الشخصيات ، كان اصلاحياً اكثر مما كان ثورياً ، بالرغم من أن أهداف الثورة كانت أهدافه .

وحين هبط الليل ، كان الحديث قد وصل الى الاصلاح الزراعي ؛ وكان اولتوسكي يتمنى أن تقسم الأراضي على الفلاحين . ولكن حكمته ، وتعقّله البورجوازي — الذي يعتبر الاصلاحات أشد صلابة حين تدخل بصورة تدريجية — وخوفه من أن تحرق الثورة المراحل وأن تسير زاحفة على

دروب مجهولة ، وحرصه العميق على المصلحة القومية ، وربما بقية قديمة لديه من الاحتقار الخفيف الذي تكنّه المدن ، في جميع البلاد ، لأميّي الحقول والسهول — هذه العوامل جميعاً هي التي دفعته الى ان يقترح الانتظار والتريث : على أن يتم التقسيم فور النصر ، فيتلقى كل حصته ، ولكن المشتغل بالأرض لن يكون الا مستثمراً ، وهو سيصبح مالكاً بعد عامين اذا حافظ على الانتاج فوق المستوى المحدد له مسبّقاً (وهو بالاجمال المستوى الوسط للسنوات السابقة) .

وغضب غيفارا غضباً واضحاً : اذا كانت الأرض تخص الفلاحين ، فلتردّ لهم ، على الفور ، وبلا شروط . فبأي حق يتخذ البورجوازيون الصغار — الذين لا يفهمون شيئاً من أعمال السهول والحقول — هذه الاحتياطات المحتقِرة إزاء الريفيين ؟ ألأنهم يعرفون القراءة ؟ ان اعمق الثقافات تتحول الى أوراق ميتة ، الى كلمات ، حين توضع أمام وعي ثوري عميق . والفلاحون يستحقون ثقة كاملة ؛ انهم يصنعون الثورة ، وهم يعرفون ذلك ؛ واذن فان الانتاج لن يتدنّى .

وحين أطلّ الفجر ، كان الرجلان ما يزالان يتناقشان : وقد وضعا في نقاشهما من الحرارة ما جعل كلاً منهما يبرهن للآخر ، من غير أن يريد ، انه بالرغم من كل شيء يبقى أخاه : لقد كان هذان المفكران المثقفان المختلفان في كل شيء ، يظهران تفاهمهما العميق وحسّهما المشترك حول الأفكار والنقاش .

ثم ان هذه البرهنة الشديدة القاسية ، كانت تحقيقاً يقوم به كل منهما عن الآخر : يجب ان اتفق مع هذا الوحش الغريب.

وفيما عدا ذلك ، فان رجلي العمل هذين استهلكا هذه الليلة البيضاء بصفة مثقفين ، يعني اضاعاها تماماً. فلم يكن لأحدهما صلاحية البت والتقرير .

وقد حلت القضية نهائياً في مطلع صيف ١٩٥٩ حين أبرم الاصلاح ، وسوف نرى ان الحادث أعطى الرجلين معاً الحق .

وعلى كل حال ، قُطع النقاش عام ١٩٥٨ بوصول كميونات المؤن : فزالت تجعدات غيفارا وأكل رجاله ؛ واستعاد اولتوسكي اعتباره .

والحق ان المتمرد كان قد استمد من المناقشة نفسها أسباباً لتقدير المقاوم. وقد حاول هذا الأخير ، فيما هو يحتفظ بفروقات تفكيره وبتحفظاته ان « يفهم » خصمه ؛ وكان قد دلل على انفتاح فكره وعلى ذكائه بالاعتراف بصلابة موقف المتمرد .

كانت الحرب هي التي صنعت غيفارا هـــذا . وكانت قد أورثته ثباتها الخاص ؛ وكانت الثورة قد أعطته حس العجلة والسرعة . وكان يبدو ، وهو اكبر سناً من اولتوسكي ، احدّ منه : وكان المقاوم يكتشف تجاهه بأن ميله للتقدمات البطيئة والمتصلة ربما لم يكن الا فكرة متلقاة ؛ ولعل افكاراً مسبقة كانت تأتيه من الجيل السابق هي التي حدّته ، وربما

أوقفته ؛ وجميع دقائق المدني الذي كان الفتى يهدهدها في ذاته ، انتهى الى ان لا يرى فيها ، على أحسن الفروض إلا أشياء مبتذلة ، وعلى أسوأ الفروض إلا أملاً مداوراً بمنع الاصلاحات بواسطة التأجيل والمماطلة .

وقد ربح ؛ لقد وضع حسّ الفروق في خدمة الجذرية . وكان حظه هو في أن يكون وسيطاً . وأن تكون له اتصالات مباشرة مع القادة المتمردين قبل الاستيلاء على الحكم . ولم يكن ينقصه ، ليلحق بهم ويحذو حذوهم الا فضيلتان هما اكثر الفضائل ابتدائية وندرة : الذكاء والارادة الخيّرة .

ولم تكن الارادة الخيرة تعوز حركة ٢٦ ــ ٧ ، ولا الذكاء . ولكن ما كان موضع الشكوى خصوصاً انما هو قلة عدد الاتصالات .

لقد كانت الثورة ، القائمة على الاجماع لمحاربة باتيستا ، مشطورة الى شطرين ؛ كان كل منهما ينمو على حدة من غير ان يتصارحا . وبمقدار ما كان الملتحون يزدادون قوة ويهددون المدن تهديداً مباشراً اكبر ، كان جناح المقاومة الايمن يبدو اكثر تردداً ، لقد كان هؤلاء المتحدون دعاة تقسيم على رأس ثورة فلاحين .

وكان أقصى اليسار مقيماً هو ايضاً على حذر . وقد قال لي كثير من الشبان انهم كانوا يرون في كاسترو بادىء ذي بدء ابناً لملاك كبير يستعد ، لمعاونة طبقة فلاحين رجعية ، لممارسة دكتاتورية يمينية . وبالاختصار ما الذي كان يريده

كاسترو ؟ ومن كان ؟

ان احد رفاق صباه كان ينتظر في عام ١٩٥٨ ، كما كان ينتظر الجميع في هافانا ، وصول المنتصر ، فيتذكر حدثاً عصبياً معتم المزاج تدفعه كبرياء لا هوادة فيها نحو أصعب المهمات : لقد كان يكفيه آنذاك أن يشتهر مشروع ما بأنه مستحيل ، حتى ينقضّ عليه .

وكان رفيقه يفكر : الم يكن في هذا ما يمكن ان يجعل منه طاغية ؟

وكان يروي لي قلقه ووساوسه منذ أيام ، فقال لي :

ــ ان ما اعاد اليّ اطمئناني هو أن أصعب مهمة في كوبا ، هي أن يمارس انسان الحكم من غير أن يكون مشترى ولا طاغية .

الفصل الثامن

نزاع بين المبادىء والانسانيه ...

كانت الأسابيع التي أعقبت التحرير ، في مطلع ١٩٥٩ ، أسابيع ابتهاج وإجماع . وبالرغم من أن كاسترو ، لأسباب سنراها فيما بعد ، لم يدخل في الحكومة ، فقد كان يبدو في عيون الجميع الرجل المجمع عليه .

هكذا كان يريد نفسه ، ولم يكن يفعل شيئاً ليزيل السر الذي كان يحيط بمقاصده . كان اليمين واليسار ، والأحزاب والنقابات تتساءل عنه : ما عساه فاعل ؟

كان شيء واحد مؤكداً : هو انه كان ينتصب آنذاك بقوة ضد كل ما كان يهدد بتحطيم وحدة المجتمع الكوبي .

وقد لوحظ ذلك ، منذ الأيام الأولى ، بصدد المولى عزّ وجل . فالواقع ان دستور عام ١٩٤٠ كان قد أعيد موضع

التنفيذ . وكان الله مذكوراً في المقدمة : فرأى الوزراء من المستحسن ان يحذفوه منها .

وحين علم كاسترو بالأمر ، استولى عليه غضب عنيف ، فمهما كانت معتقدات أعضاء الحكومة ، فانهم لم يكونوا يستطيعون ان يمسّوا هذه الكلمة المبجّلة التي كانت موجودة منذ عشرين سنة في هذا النص الاساسي ، والتي كان الجميع قد استطاعوا ان يقرأوها ، من غير جرح الكهنة والمؤمنين ، وبالتالي من غير تحطيم وحدة البلد . كانت كلمة الله هذه ، تتساوى مع القانون الدستوري ، فلم يكن فيها ازعاج ، واذا استعادتها الثورة ، فانها لم تعلن نفسها مسيحية . ولكنها اذا حذفتها ــ أعلنت نفسها ملحدة .

وبالاختصار ، إتُخذت في فترة الاستراحة القصيرة هذه ، جميع التدابير من أجل تدعيم الوحدة . وكانوا قد أشركوا في الحكومة مقاومين ومتمردين على قدم المساوة : وكان من المقاومين اولتوسكي ، وزير المواصلات ، وبينوس ، وزير الاقتصاد ، وكذلك وزير التجارة .

غير ان هذه الاحتياطات لم تمنع التوتر من أن يولد في قلب الاجماع ذاته . كان الهافانيون قد استقبلوا « الملتحين » كاخوة . ولكن « الملتحين » لم يكونوا مفرطي الميل للتآخي .

فهؤلاء الفلاحون الجنود ، وهؤلاء الجنود الذين أصبحوا فلاحين ، كانوا يعودون إلى المدن بالتقشف الحزبي والخُلق الريفي . وقبل ذلك ببضعة أعوام ، كان جيش ماوتسي ــ

تونغ الجبلي يعسكر بالحذر نفسه ، في شوارع شانغاي ، المدينة الفاسدة ، ضحية البيض ، وشريكتهم في الذنب .

ثم ان بعض الهافانيين أظهروا في الأيام الاولى استعجالاً مريباً : ونحن ما زلنا نذكر أيضاً تلك الأثواب العسكرية التي رأيناها تظهر في أيلول عام ١٩٤٤ في شوارع باريس والتي كانت تنبعث منها رائحة النفتلين .

كانوا يطيرون لنجدة النصر : كان طقم السياسيين القُدامى يذكر المنتصرين بنفسه ويبلغه انه سيقبل بحمل مهمات السلطة اذا ما دعي لذلك . وقد سمّى المتمردون والمقاومون هؤلاء الاصدقاء الجدد « بحركة ٢ كانون الثاني » والمعروف أن مطلع السنة كان وسيظل دائماً عيد التحرير .

وان صلابة بعض المتمردين — وربما لم تكن هذه الصلابة الا خجلاً — وخيبة بعض المقاومين الذين كانوا قد املّوا أن يعيشوا في ألْفة مع المحررين ، ولكنهم كانوا يجدون انفسهم احياناً مقصورين على أن يحترموهم من بعيد — ان هذه الاحتكاكات الخفيفة كان لا يمكن بالتأكيد ، أن تحدث الا على ارضية من الحماسة .

والحذر نفسه ، بل والكآبة ، كانا طريقتين لكي يعيش الناس وئاماً واقعياً ومشتركاً . فلكي يشكو احد من ابتعاد الجنود المتمردين ، فلا بد له أولاً من أن يرى فيهم قادة مستقبل وأن يقبل مقدماً بسلطتهم .

غير ان بعض الحمشات كانت تلتهب احياناً وتتسمّم ،

فكانت بعض الألتباسات تعقب عداوات حقيقية بسبب انعدام لغة حوار مشترك. أو ان ذلك كان يحدث ، بكل بساطة ، لأن الاتصالات كانت تنقطع .

ومن حسن الطالع ان الثورة كان لها هذا الحظ الاستثنائي . لم يكن ثمة احد يستطيع ان ينصب جماعة او برنامجاً يحلان محل الجماعة الثورية او برنامجها ، باستثناء حزبين او ثلاثة كانت تشرفها شجاعة مناضليها الشخصية ، ولكن صمتها وجمودها كانا قد ذهبا بحظوتها ، وباستثناء طاغية طائر ، كانت جميع البلاد ترفض ــ باستثناء البرتغال ــ ان تمنحه حق الوجود . وكان لا بد من استغلال هذه الشرعية الى ابعد الحدود ، وكان لا بد من اكتساب سكان المدن الآن ، ومن البدء بالاستجابة للمطالب الجماعية .

كان ثمة مطلبان دائمان في المدن يحظيان بموافقة العمال والموظفين من غير تمييز في الطبقة : فان ايجارات المساكن وثمن الكهرباء تكون قد التهمت نصف الرواتب حتى قبل أن تدفع لهم ، ولم يكن ممكناً لهذا أن يدوم .

وهذا ما سبق ان كان يشكو منه الناس حين كان فيديل كاسترو يدرس الحقوق في هافانا ، كان هذا ما يقال منذ خمسة عشر عاماً ، بل قبل ذلك . وكان هذا ما يزال مستمراً . ولكن مطالب الشعب كانت على قدر ثقته . وقد سبق للقادة ن عرفوا في أثناء الحرب ضغط الظروف ، وبعد الانتصار فوراً ، عرفوا تجربة الضغط الشعبي .

فأعلنوا فجأة ، تخفيضاً اجبارياً للايجارات بمعدل خمسين بالمئة . وكانت دوافع هذا القرار واضحة : فان الحكومة التي لم تكد تقيم في هذه المدينة التي تظل أجنبية بالنسبة لها ، لم تكن تسمح لنفسها بتخييب الشعب .

كان لا بد لها أن تعمل ، لا أن تعد ، وان تحرر الفقراء من عبء ساحق ، وان ترد للتجارة الكوبية الصغيرة المال الذي كان يتسرب الى الولايات المتحدة الاميركية ثمناً للسيارات والبرادات او كان يعاد توظيفه ، بحماقة ، في بنايات عقارية أخرى . كان القصد ، معالجة الاقتصاد الوطني ، واعادة الرساميل لتوجيهها نحو الصناعة ، بتخفيض العائدات .

وكان معظم الناس موافقين ، ولكن بالرغم من كل شيء تفتت الاجماع على الحوافي ، وقد سبق لنا ان رأينا ان البناء كان يمتص كل الوفر الكوبي ، ليس فقط موائد الأغنياء ، وانما وفر الطبقات المتوسطة أيضاً .

وكانت هذه البورجوازية تظن عائداتها ثابتة جامدة . وها ان شحطة قلم تنقصها الى النصف . واستولى الخوف على هذه البورجوازية . ولمدة بضع لحظات من الذعر ، لمحت هافانا الجزعة شبحاً احمر : البولشفية في جزر الانتي .

غير ان الانفعال الظاهري كان اخفّ من ذلك حين اجبرت الحكومة شركة التلفون وشركة الكهرباء على تخفيض تعرفتهما . فقد كان الجميع هذه المرة يفيد من هذا التدبير : العامل كصاحب العمل ، ما دامت التكاليف تتدنى .

ثم ان مال الشعب كان يُستردّ من جيوب الرأسماليين الاجانب . وكانت الطبقات القليلة الحظوة مبتهجة الى أبعد الحدود ، فقد فعلت الحكومة في بضعة أسابيع ما عجزت الحكومات السابقة عن فعله في خمسة عشر عاماً . لقد جرؤت على أن ترفع يدها الى الأرباح الاميركية ، فلم تسقط السماء على رأسها . لقد كان من الممكن اذن « تغيير الحياة » .

غير ان الاستياء كان يزداد لدى البورجوازيين ، فقد كانت هذه التدابير تكشف عن نزعة الى التوجيه لم يكن الحاكمون يخفونها في الحقيقة ، وكانت الظروف تبررها في أعين الجميع ، على الأقل بصورة موقتة ، ولكن كان يظن ان فيها تباشير قرارات نهائية ، فسوف يفرغ الثوار المصارف ، ويؤممون وسائل الانتاج .

وكان الناس قد بدأوا يميزون في قلب الحكومة يمينا ويساراً ووسطاً ، وكان غيفارا ، وزير الاقتصاد ، يبدو ابعث على الخوف ، مسعوراً .

وقد لازمه هذا الصيت طويلاً ، وحين عين مديراً للبنك الوطني ، بعد المرحلة المضطربة التي أرويها بكثير ، اصطف الموفرون ليسحبوا وفرهم . ولم تكن ثمة حاجة الى اكثر من اربع وعشرين ساعة لإعادة الاطمئنان لهم ، فبما انه لم يحدث شيء ، فقد أعادت البرجوازية مالها الى المصارف .

ولم يكن موقف الحكومة تجاه المطالب العمّالية من شأنه ان يزيل الاضطراب والالتباس . والحقيقة انه لم يكن وارداً

تبني موقف آخر ، ولكن البورجوازية لم تكن تقرّ هذا الموقف .

لقد أرادت النقابات — ومن ذا الذي يأخذ عليها ذلك ؟ — ان تفيد من العهد الجديد لتسترد الحقوق المكتسبة في عهد الجمهورية ، والتي ضاعت جزئياً في عهد الطغيان .

كانت النقابات تقبل الثورة . ولكنها كانت تقيم على حذر ، فقد كانت الحكومة تبدو لها مريبة لأنها هي — أي النقابات — لم تكن تنجح في تعريفها — أي الحكومة — وتحديدها . بل لم تكن تعرف كيف تصنّفها . وكانت تجد ، وهي في هذه الحيرة وعدم التأكد — سبباً للقيام بتجربة للقوة على التو ، ما دامت السلطة الفتية — هذه السلطة التي جعلها انتاجها لصَدَفتها ولأجهزتها الضغطيّة افتى مما ينبغي — ما تزال في ليونة الطفولة وضعفها .

وكانت النقابات تأمل بأن تحقق كسبين من هذا الهجوم المباغت : نصراً عمالياً في بادىء الأمر ، ثم في الاصطدامات الأولى ستكشف الحكومة عن نفسها فتعرف النقابات أي طبقة كانت تخدم باسم اسطورة الاتحاد الوطني وأية مصالح .

وبدأت النقابات اضطراباتها منذ كانون الثاني واستمرت فيها بضعة أشهر من غير أن يصيبها التعب واللهاث . وكانت الاضرابات تتنقل في العاصمة . كانت تضرب قطاعاً ثم تنتقل الى قطاع آخر . ولكن المدينة كلها كانت مشلولة ، بصورة مباشرة أو غـير مباشرة ، في جميع الأحوال تقريباً .

وكانت الحكومة هي الحكم : وكانت تنصح أرباب

العمل غالباً بأن يخضعوا ولم يكن ذلك بدافع الضعف ، وانما لأن مهمتها كانت المحافظة على الوحدة .

ثم ان الثورة كانت تشعر بالانزعاج في المدن ، وهي التي ولدت من البؤس الريفي ، فكانت تطلب مساندة العمال المظلومين الشباب . وكان القادة يشعرون أن لا سلاح في يدهم ، لا بسبب الاضراب — بالرغم من انهم لم يكونوا يريدون ولا يملكون وسائل تحطيمه — ولكن بسبب الحاجات والضيق الذي ولّدته هذه الحاجات .

وقد انعكس ازعاج الاضرابات على الطبقات المتوسطة فثار غيظها . انها كانت قد بذلت كل ما في وسعها من اجل المتمردين ومن أجل البلاد : وكان يقال ان العمال لم يفعلوا شيئاً على الاطلاق . وبالاضافة الى ذلك ، فان هؤلاء التجار وهؤلاء الصناعيين الصغار كانوا يجدون أنفسهم الحلفاء الطبيعيين للعهد ما دام كاسترو كان لا يفكر في حماية كوبا من المنتوجات القارية . فلماذا كان يضحّي بهم كل مرة لصالح هؤلاء المشاغبين ؟ وبمَ كان يفكر اولئك الثوار حقاً ؟ انهم في الماضي لم يكونوا يتكلمون الا عن الاصلاح الزراعي . أما اليوم ، فهم يرتمون في أحضان النزعة العمالية في الحماسة نفسها . فما الذي كان دعاية وديماغوجية ؟

انه لم يكن يمضي يوم الا ويؤكد فيه أحد الوزراء بأن الهدف المشترك هو زيادة الانتاج . فهل كانت الحكومة تفكر بأنها ستبلغ ذلك اذا تسامحت أمام هذه العرقلات الجريئة وهذه

الازعاجات المستمرة وهذه الأيام الضائعة ؟

وكان الدافع العميق لأستيائهم هو الارتياب وعدم اليقين . لقد كانت الطبقات الوسطى ، وقد ألفت عهود الشرق والغرب الحاسمة ، تطرح اسئلة حاسمة : الحرية ام الاشتراكية ؟ الديمقراطية ام الديكتاتورية ؟ ولم تكن تجد جواباً .

وكانت ما تزال ثملة بالحرية المستردة حين أخذت ترصد في الخطب وفي الصحافة علامات مصيرها الغامضة .

وكان الفريق نفسه يوجه الى الحكومة مأخذين متناقضين فيقول : « انهم يسلوننا بتصريحات علنية ، وفي هذه الأثناء يعملون ببطء على ادخال الشيوعية . » ويقول : « انهم لا يعرفون ماذا يريدون ، فهم يرتجلون : وليس فيهم شخص واحد يستطيع أن يقول اليوم ما الذي سيفعلونه غداً . »

وحتى ربيع ١٩٥٩ ، كانت هذه الأقوال تنطلق في كل مكان من غير سبب ظاهر : فنتج منها لدى كثير من الثوريين خوف ثابت من ان يتهموا بانهم ارتجاليون .

والذي كان يضلل الكوبيين ، هو ان الثورة كانت تحضن مرضها الطفولي ، الذي انفجر نحو نهاية الشتاء بشكل أزمة شرعية ، زهيدة لحسن الحظ .

كان « اوروتيا » رئيس الجمهورية ، قد استحق النفي والمجد لأنه ، حين كان قاضياً في عهد باتيستا ، كان يصدر أحكاماً يجعل فيها العصيان شيئاً مشروعاً . وكان يقول : ان طغيان باتيستا أمر لا شرعي . واذاً فان العصيان شرعي .

وكانت تلك حجة محامٍ . وقد قرّر المتمردون ، وهم على جبلهم ، أن يقدموا له الرئاسة القادمة للجمهورية ، من غير أن يكونوا قد رأوه .

وقصد الجبل . فتحدث اليه كاسترو مدة طويلة ثم تركه واجماً . كان ينتظر انساناً فلم ير الا مبدأ .

وعلى أي حال ، كان قد فات الأوان للعودة عن قرار كان قد أذيع في الصحافة الأجنبية .

كان فيديل يعرف ان المبادىء مجردة ، متصلفة ، لا تتزعزع ؛ فتنبأ بأن الحكومة القادمة ستكون رديئة جداً ، بسبب عدم امكان اخراج « اوروتيا » ، حتى ان فيديل فضّل ان يُبعد نفسه عنها .

وسوف يكون ثمة متسع من الوقت ليعود فيدخلها بعد الكارثة التي لا مفرّ منها .

إن هذا القرار يفرض نفسه ، ولكنه كان مصدراً لذهول كوبي عام .

وابتداء من أول كانون الثاني ١٩٥٩ ، اقيمت في شقة من فندق « هابانا ــ هيلتون » قيادة لجيش الثورة كانت تدعى « فيديل كاسترو » وتبدو تحت الطلب . اما في مباني المدينة القديمة فقد كان ثمة رجل قانون صارم يرئس مجالس الــوزراء .

وكان « اوروتيا » ، في أثناء رسالته ، مثال القانونية ، في شمولها الأوسع والاطغى ، وكان يقول :

ـ انني ألغي بيوت القمار ، والمواخير ، والكازينويات ، وآلات الدراهم .

وكان الوزراء الشبان يوافقون ؛ وكانت البرجوازية الهافانية تبدو مؤيدة لكل علاج يشفي المدينة من دائها . ووُقّع على القرار فأبرمه الرئيس .

ومنذ اليوم التالي اكتسح « الهلتون » جمع قلق كان يزدحم في المصاعد ويرقى السلالم ركضاً ويدخل الى كاسترو بدون اذن او شكليات : وكانوا هم موظفي القمار مع كل عائلاتهم . وكانوا يصرخون بأنهم كانوا يُذبحون . ألم يكن سبعمئة الف عاطل عن العمل بكافين ؟ فهل يجب وضع جميع العمال ، من بائعة السجائر الى منظمي القمار ، على الطريـــق ؟

وأحست المومسات بالخطر يتهددهن ، فلم يقصدن اوتيل هيلتون ، ولكنهن كتبن رسائل محترمة يطلبن فيها حق ممارسة مهنتهن .

واستدعى كاسترو الوزراء على الفور ؛ فتركوا القصر الجمهوري ومجلس الوزراء « واوروتيا » ، واجتازوا المدينة فوجدوا رئيسهم الحقيقي أبيض الوجه من الغضب في قصر اميركي . والتذّ فيديل بأن يشرح لهم فكرته : فقال لهم انهم قد أصبحوا شركاء لنزعة اخلاقية بليدة ولا انسانية توشك أن تقلب الثورة .

أيراد الغاء القمار ؟ حسناً . شريطة ان يؤمن العمل للموظفين

المصروفين ويعاد تصنيفهم . ولكن كيف يؤمن هذا العمل ؟ وكيف يصنف هؤلاء من جديد ، والصناعة معدومة ؟ ان الاصح ان نهتم بتصفية القمار بعد أن نكون قد قضينا على البطالة . ولن يتم هذا غداً . أما المومسات فقد كان معظمهن يأتي من الريف . ان العائلة لم تكن تستطيع تغذية الأطفال الفائضين فكان أمامها اما ان تموت واما أن تبيع نفسها .

اننا نقضي حقاً على البغاء حين نكون قد قضينا على بؤس الفلاحين ، واذن فان اصدار الأمر هنا ، في هافانا ، للنساء السهلات بألا يعرضن أنفسهن بعد على الزبائن ، يساوي كلاماً لا قيمة له ؛ اذ ان البغاء سينتقل بأسلحته وأمتعته الى المرحلة السرية .

وعاد الوزراء واجمين الى وزاراتهم ، والى همومهم ، ثم بذلوا جهودهم في أول مجلس للوزراء عقد بعد ذلك لكي يُفهموا اوروتيا ، بلطف شديد ، وجهة نظر كاسترو .

واستمع القاضي السابق بلا غضب ، ولكنه لم يتزحزح عن موقفه ، كانت الأخلاق تمنع ان يربح المرء ذهباً او يخسره لمجرد أن يكون قد ركم نقوداً في زاوية من طاولة خضراء . وقال :

— ومن جهة اخرى ، فالقضية سهلة جداً : لقد وعدت بالمنع ، وهي كلمة شرف .

وكان يبدو في الواقع انه قد ثمل بنصره وهو في المنفى ، فالتزم اموراً لم تكن تطلب منه .

ووضع كاسترو حداً لذهاب الوزراء وايابهم بفرض قانونه . انه لم يكن يستطيع أن يطيق افساد ثورة شعبية ، بأن يوافق على زيادة البطالة فيها .

ستُلغى آلات الدراهم التي لم تكن تؤمن عملاً لاحد وتسلب الدراهم الكوبية لمصلحة العصابات القارّية ، أما اليانصيب الوطني فسيبقى على أن يطرأ عليه تعديلات . وأما القمار فسيبقى كذلك . وستشرف الدولة على الأندية والكازينويات فتكون لها الأرباح ويكون عليها أن تدفع الاجرة للموظفين .

أما المومسات ، فليبقَيْن ؛ ففي هذه المرحلة الثورية الاولى ، وفي اللحظة التي تقوم فيها الحكومة الجديدة بالجردة ، وتكتشف مخلفات الشرور والجراح التي تركها لها العهد الماضي ، كان كل ما تستطيع أن تفعله ، هو ان تلغي مستثمري هؤلاء الفتيات ؛ من المتعهدين الذين يزعمون انهم كانوا يحمونهن ورجال الشرطة الذين كانوا يقبضون عمولة منهن .

ويبدو لي هذا النزاع ذا مغزى . لقد كان الحكم ، ذا رأسين ، كما يحدث غالباً بعد الحركات الشعبية الكبرى . فالسلطة الواقعية لم تكن شرعية ، والسلطة الشرعية لم تكن واقعية .

وأن تتخذ الحكومة قراراتها مؤسسة على مبادىء ، فهي انما كانت ترتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه اسلافها في عام ١٩٤٩ وعام ١٩٣٣ ، لقد كانت تحارب النتائج بدلاً من أن تعالج الأسباب . لقد كان اوروتيا ، وهو البورجوازي

الجاكوبي ، الصامد على المبادىء ، المستعجل لاعادة المدن الى الفضيلة ، يواجه من غير نفور ، ولكن من غير حماسة ايضاً ، تغيرات المجتمع الكوبي التي تتم بطريقة عميقة ، ولم يكن هذا من شأنه . ففي جميع البلاد يلحّ المحامون والقضاة والمثقفون البورجوازيون الآخرون على الصمود وعدم التزحزح ، حين تكون القضية قضية أفكار ، ليقنّعوا ترددهم ازاء الأعمال والأفعال .

وكانت الثورة الكوبية ما تزال مرتبكة في تناقضاتها ، وأنا اتصور انها كانت تخشى ان ترتمي في المجهول وان تكشف نفسها في الأشياء وترسم لنفسها قانونها اذ يكون شعب هافانا قد كف عن الانخداع ، كان العمال وربات المنازل يكتسحون منطقة ناطحات السحاب ويحاصرون الهلتون ويعرضون على كاسترو مطالبهم .

وقد أدرك فيديل انه آن الأوان لكي يضطلع بالسلطة . وعيّنه الوزراء رئيساً للحكومة .

الفصل التاسع

... ثم أصبحت قصوراً خالية !

كان يوم ١٧ أيار ١٩٥٩ ، بالنسبة لجميع الكوبيين ، هو يوم الحقيقة ؛ ففيه ابرمت الحكومة الاصلاح الزراعي . وقد كانت نصوص القانون في تطبيقاتها وتفصيلاتها وامكانية تحقيقها بلا تأجيل ، اكثر جذرية من جميع ما كانت توحيه الاشارات السابقة .

وابتداء من الإبرام ، لم يبق للاجانب — سواء أكانوا ممثلين لشركة او بصفة شخصية — أي حق بالحصول على اية ذرة من الأرض الوطنية . وقد ألغيت اللاتيفوندیا (الملكيات الكبيرة) . ولم يعد يحق للشخص أن يملك اكثر من ٣٠ كاباليريه (٤٠٠ هكتار) .

وحتى في هذه الحالة ، لا بد من توفر شرط . ان

هذه الأرض ، بهذه المساحة تُعطى لمالكها الحالي اذا حرثها واستغلها ؛ أما إذا كان يعيش من عائداتها فستكون ملكاً للذين يستغلونها لحسابهم . فاذا كان يملك اكثر من ذلك ، تصادر الحكومة الأملاك وتوزع الهكتارات الفائضة بين الفلاحين أو العمال الزراعيين .

ولا يستطيع أحد أن يملك في وقت واحد ، زراعة لقصب السكر ومركزاً لصناعة السكر . فإذا حدث ذلك احتفظ الزارع بالمصنع وخسر الزراعة . وحين تصادر الدولة شركة او املاك شخص تدفع له تعويضاً بواسطة سندات .

ثم يعاد توزيع الأراضي المصادرة توزيعاً وطنياً . وقد أنشأت الحكومة لهذه الغاية مكتباً خاصاً اسمه « المعهد الوطني للاصلاح الزراعي » وقد وُضع مبدأ ينص على أن ارضاً مساحتها ٢ كاباليريا ١ تستطيع ان تُطعم عائلة من خمسة أفراد . ويشرف المعهد الوطني للاصلاح الزراعي على توزيع هذه الحصص ، وهو يطور تطبيق المبدأ على الحالات الخاصة .

على أن في هذا التقطيع مـــا يمـــكن أن يضر ببعض الزراعات : فالقصب ، بصورة خاصة ، يتطلب دائماً مساحات كبيرة وعملاً جماعياً ، سواء قامت ثورة أم لا . ولا شك في أن تقطيع الزراعة سينتج تفسيخ الإنتاج . وفي هذه

---

(١) زهاء ٢٧ هكتاراً .

الحالة ينص القانون على توزيع الأرض بشكل قطع صغيرة ، أو نقلها بلا تقسيم الى تعاونية ، وفقاً لمصالح البلاد . فطبيعة الزراعة هي التي تبتّ في الموضوع ، فتطلب من المعهد الوطني للاصلاح الزراعي عمالاً فرديين أو جماعيين تعاونيين .

هذه هي البنود الأساسية للاصلاح الزراعي ، ولكن الحكومة الكوبية لا تكف عن الشرح ، وغايتها الاقناع . والواقع أن ليست لها قوة اخرى إلا قوة موافقة الرعايا .

ومن أجل هذا ، اعتادت أن تمهد لكل قانون بمقدمة « تربوية » . وفي هذه النصوص التي يتميز معظمها بدقة ووضوح رائعين ، تُعرض للمواطنين الحالة المجردة ، بلا اخطار ولا متطلبات ؛ ويشار الى الغايـــات التي تفرض نفسها والى وسائل بلوغها ؛ ويكفي المرء أن يحسن القراءة ليفهم ضرورة القرارات المتخذة .

في فرنسا لا يُفرض بأحد أن يجهل القانون . وفي كوبا يفرض بالجميع أن « يفهموه » . أن هناك رجالاً جدداً كان كثير منهم طلاب حقوق أو محامين ينفرون من الشكلية القانونية ، ويريدون أن يؤسسوا مراسيمهم على العقل . وقد ولدت في الجزيرة لغة جديدة تجمع الى اسهاب اسبانيا الجديد واطنابها الرفيع ، ايجازاً دقيقاً حاراً يقوم على العقلانية . ولا شك في أن « مقدمة » الاصلاح الزراعي ، هي أعمق هذه النصوص التي تسجل مرحلة في تاريخ اللغة الكوبية ، وفي التاريخ العالمي للمؤسسات الانسانية .

وقد القى كاسترو في صفحات هذه المقدمة بكل أوراقه ، فكان من الممكن أن يربح أو أن يخسر . وقد ربح .

إن دواعي القانون وإعتباراته تشكل ، بكل بساطة – في هذا الوقت الذي تحطّم فيه الشعوب في كل مكان قيود الإستعمار – انها تشكل ميثاق البلاد المتخلفة .

ولا أستطيع لسوء الحظ أن أنشر هنا إلا مقتطفات لهذه المقدمة الجذرية ، التي يجب أن تترجم الى جميع اللغات . وهذه هي المقاطع التي فتحت عيون الكوبيين :

أ – يجب تيسير أو توسيع الزراعات الجديدة من أجل تقديم صناعة المواد الخام وسد حاجات الأمة الغذائية ، وزيادة صادرات المنتوجات الزراعية . وبالمقابل استيراد المنتوجات الأجنبية التي هي أساسية لنا .

ب – يجب تنمية السوق الداخلية (العائلية ، والبيتية) بزيادة الطاقة الشرائية للسكان الريفيين ؛ وبعبارة أخرى يجب تنمية الطلب القومي لتنمية الصناعات المنكمشة باستهلاك محدد جداً ، أو لخلق صناعات لم يكن ممكناً اقامتها عندنا لعدم وجود زبائن .

ان ميزة كاسترو وقوة فكره تظهران في هذه الاسطر القليلة البسيطة . وقد كان جميع الناس في كوبا ، حتى شهر أيار هذا ، يعتبرون الاصلاح الزراعي تدبيراً سلبياً غايته هدم العهد الماضي . ولكن قراءة المقدمة قراءة أولى تجعلنا ندرك أن اللحظة السلبية في الثورة قد اختفت ؛ ان النص لا

يدغدغ على الاطلاق العواطف الشعبية وإنما يعرّف الاصلاح بأنه التنظيم الرئيسي للقوى الانتاجية ولعلاقات الانتاج .

ومع ذلك ، فلم يكن شيء ما مخفياً ؛ ان المقدمة لا تقنّع البؤس ولا الظلم الاجتماعيين ، ولكنها لا تكترث لتسمية المسؤولين عنهما . وهي ان كانت تشير الى الوضع السيء للطبقات الريفية ، فان ما يشغلها همّ الفعالية . ان تنمية الانتاج الجماعي للأمة يقتضي رفع انتاج كل فرد : بتصنيع الزراعة طبعاً ، بمجرد أن يصبح ذلك ممكناً ؛ غداً لا اليوم . ولكن المطلب الأولي هو شفاء الفلاح من أمراضه الثلاثة : البؤس والمرض والجهل .

لقد ربح كاسترو القارىء الذي اكتشف في نصوص القانون الثوري الاول معنى الثورة الكوبية وجدّتها ؛ ان هدم العهد القديم يتم بوضع الحجر الأول للعهد الجديد .

ان طرد الاسياد الاشراف واعادة هذه الآلاف من الهكتارات التي كانوا يتركونها بوراً الى الأمة كانا يعنيان في وقت واحد امتلاك وسائل تنويع الزراعات ؛ وان تقسيم هذه الأراضي البور بين الفلاحين ، كان يعني ايضاً هذا التنويع . فان هؤلاء المالكين الجدد سيكونون مجبرين ، بسبب تلاحق أملاكهم ، على استثمارها الى أبعد الحدود . والزراعة المكثفة ستحل ، في عهد الملكية الفردية ، محل عدم الاكتراث الذي كان يميّز العمل المتسع : فحين يتم في وقت واحد تحطيم العنف المتكبر الذي يحمله السادة العظام ، وتحطيم استسلامهم

الذليل للمنتجين الاجانب ، تُعطى الامة استقلالها الغذائي على الفور .

لقد سبق لهذه الجزيرة الخصبة ان اكتسبت حق انتاج غذائها . وبعد الآن سيبذر من الأرز ضعف ما كان يبذر ، حتى اذا جاء موسم حصاد ١٩٦٠ استغنت كوبا عن الأجانب فيما يخص الأرز .

وسيكون التغيير أشد من ذلك وأعمق بالنسبة لمؤن اخرى . فقد شنت كوبا لعام ١٩٥٩ — ١٩٦٠ معركة البندورة وربحتها . وقد استطاع المنتجون الذين لم يكتفوا بسد الحاجات الداخلية للبلاد ، ان ينافسوا في اميركا اللاتينية بعض الذين كانـوا يصدرون البندورة الى كوبا بالذات .

غير أن الحكومة كانت تلح على ايضاح ان رفع مستوى الحياة الريفية لم يكن « قبل كل شيء » تدبير عدالة ، وانما هو محاولة لاعادة تسيير الاقتصاد الوطني بواسطة تعديل البُنيات الاجتماعية .

●

كانت الجزيرة قد عرفت خمسين عاماً من الخمول والجمود بسبب انعدام الصناعة فيها . ولم تستطع الصناعة أن تولد ، لانعدام السوق الداخلية .

وأذكر اني كنت قد رأيت على جميع الجدران في انكلترا هذه الدعوة الملحة : « اشتروا بضائع انكليزية » . ولكن

لمن عساها كانت توجه الدعوة قبل عام ١٩٥٩ ، على الجدران الهافانية ، « لشراء البضائع الكوبية » ؟

كان الأغنياء يستهزئون بالجزيرة . وكان الفقراء لا يملكون درهماً . والنتيجة سبق ان أشرت اليها : كان الفقراء يولدون الدولارات بعرق جبينهم فيقطفونها ويعطونها للأغنياء الذين كانوا يرسلونها الى منتجي الولايات المتحدة الاميركية .

وهكذا كان القطع النادر يهرب : فكان الأغنياء يتلقون سيارات وبرادات . أما الأمة الكوبية فلم يكن يدفع لها شيء على الاطلاق ، فكانت تفتقر يوماً بعد يوم مهما كان عملها .

وأتى « الاصلاح » يقدّم الحل : بالغاء امكانية هدم جميع المستهلكين لصالح فئة صغيرة منهم تنفق النفقات الهائلة الباذخة في الخارج . وقد كان من ميزات الاصلاح الحد من بذخ هؤلاء الطفيليين ، ومن ثمّ ، من لجوئهم الى الشراء من الخارج : ولكي تثبط الحكومة الاغنياء وتمنعهم من الخيانة كانت تزيد الضرائب الباهظة على المستوردات الكماليـــة .

وهذان التدبيران الاضافيان (المصادرات ، التعريفات الجمركية) كانا بمثابة الضماد . فهما يسدّان الشريان المفتوح ويوقفان النزيف . غير ان ذلك لم يكن ذا اهمية لو لم يغيّر القانون نفسُه ، حين رفع مستوى البؤساء ، ظروف العمال ليخلق طلباً داخلياً وينعش التصنيع .

يجب ان لا يؤمن المرء ببابا نويل ، والكوبيون يعرفون ان التصنيع سيكون بطيئاً ، وانه يجب أن يسير بحكمة .

فالرساميل والمصانع والآلات في كوبا ، وفي كل مكان آخر ، لها عاداتها ولها جمودها . فمهما كان الطلب ، فيجب أن لا يعوّل عليها لاخراج المصانع من الأرض .

ان كوبا تريد أن تنتهي من اقتصادها المستعمَر . وهذا يعني ان الحكومة تأخذ على عاتقها ان تضيف الى بُنْيات التخلف الكلاسيكية (صناعات الاستخراج بواسطة الرساميل الأجنبية ، والانتاج الزراعي) قطاعاً اساسياً بتنمية صناعات التحويل .

ولكنها تؤمن بفضلية التواضع ، حتى للمدى البعيد . ان كوبا ستنتج بضائع الاستهلاك ، وهي لا تستطيع حتى ان تحلُم — الآن طبعاً — بانتاج آلاتها وأجهزتها . وستكون هذه مهمة غير مجدية وسيئة النتائج بالنسبة لستة أو سبعة ملايين نسمة . وعلى هذا فان الصناعة الثقيلة ستبقى حيث هي : أي في الخارج .

على ان استقلال بلد من البلاد لا يقتضي في حال من الأحوال ، الغاء الاستيراد . فاذا إنتزع نفسه من نظام تفضيلي يشدّه الى منتج واحد — اي الى زبون واحد — واذا وازن ميزان التجارة الخارجية بأن يجعل زيادة المشتروات متوقفة على زيادة المبيعات ، واذا اوقف ، بواسطة الضرائب الاستيرادات اللامجدية ، وحدّد في صرامة الاستيرادات ذات

المصلحة الوطنية ، فانه يُقيم سيادته الحيّة على استراتيجية ذات مستوى عالمي ، ويظل مستعداً دائماً لتأمين حرية تصرفاته باستبدال الاحلاف وتغيير الزبائن .

وبالاختصار ، فان كبار الملاّكين كانوا يحولون في وقت واحد دون الزراعات المتعددة ودون التصنيع . وقد جعل الاصلاح الكوبيين يفهمون ان تحقيق الأمر الأول لن يلبث ان يؤدي الى الثاني .

ولم يكذب الاصلاح : فان تعدد الزراعات وتنمية الطلب الداخلي ، ليسا الا شيئاً واحداً ، فتحت ضغط الجموع الريفية أعيدت الى العمل آلات كانت قد اوقفت بسبب فقدان الزبائن . واليوم ، وبعد أربعة عشر شهراً من انتصار الثوار ، وجد ١٢٥ الف عاطلاً أعمالاً لهم .

لقد كشفت الثورة الآن عن جذريتها : فقد فتتت الأملاك الكبيرة ، ولكن الذين غضبوا قليلون : فبعد نصوص الاصلاح واعتباراته ، كان واضحاً ان الوضع وحده هو الذي فرض هذا التقطيع .

كان فريق الحاكمين الجدد يستهزيء بالايديولوجيات : وكان بعض القادة يجهلونها ، بينما كانت جميع النظريات تبدو لفريق آخر منهم — مثلاً اولتوسكي وزير المواصلات الشاب — جديرة بالاهتمام ، من غير ان يكتفوا بأي منها : فقد كان يسيء الى اهم هذه النظريات ، المفرطة في العموميات ، أو المفرطة في الجزئيات ، انها وُلدت في كوبا نفسها من

دراسة للاتفاقات السُكرية. ولا ريب في أن الشعب كان سيقابل بشدة ثورة تعلن عن نفسها انها اشتراكية. ولكن الاصلاح الزراعي، لم يكن يلقي على نفسه اسماً.

والاصلاح كان يتناول بحق نظاماً للملكية لا نلتقي به قط في أي بلد — الا في البلاد المتخلفة: هو النظام الاقطاعي وكان يحدث ان يجزيء الأرض المستردة. (٢٧ هكتاراً للعائلة). فما الذي كان يفعله في هذه الحالة؟ انه لم يكن يفعل اكثر مما فعلت، قبل ذلك بقرن ونصف، الثوراتُ التي غيّرت وجه التاريخ: كان يُدخل الى الحقول الملكيةَ البورجوازية.

وفي حالات اخرى، كانت الأرض على العكس، تنتقل بكلّيتها الى تعاونية، وصحيح ان هذا الشكل الجديد يبدو مستوحى بوضوح من التجارب الاشتراكية، فكان كل شيء يتم اجمالاً كما لو ان الملكية الاقطاعية، اذ تختفي، تخلق طرازي الاستملاك اللذين نجدهما اليوم في كل مكان.

ولكن التعاونية في كوبا كانت مكتوبة في طبيعة الأشياء. فان قصب السكر، في جميع الحالات، يقتضي مساحات واسعة. فمن الطبيعي ان تُقتطع من اللاتيفونديا القديمة، الأراضي البور، فتُعطى لفلاحين آخرين ليزرعوا فيها زراعات اخرى. ولكن الزراعة نفسها، بملايين سيقانها الخضراء، لا يمكن تقسيمها الا بتفتيت انتاج السُكر بالذات.

فهل يجعلونها ترتبك بعشرين الف منتج منعزلين، منتصبين

بعضهم ضد البعض بالمنافسة والمصالح وتنوع الآلات والتكنيكات؟
وكيف تعيّن في هذه الغابة البكر حدود كل ملكية؟
وهناك ايضاً المصنع الذي يتسلم الطلبات وينتظر الحصاد، فما جدوى ان يُمتلك فردياً اذا كان الواجب قطع السيقان معاً وجعل وسائل النقل مشتركة؟

وبكلمة واحدة، يتطلب القصب الوحدة في مشروع مشترك: كان يتخذ في الماضي شكل جماعة النهابين الاقطاعيين، والمياومين الخاضعين، المدنيين، الذين لا أرض لهم، ما غداً، فسيتخذ شكل تعاونية الانتاج.

انه لا يعوّل هنا على المبادىء والأفكار. فان هذا هو النظام القديم نفسه يتحول الى تنظيم جماعي، وهذا السبب واحد: هو ان الزراعة الاقطاعية كانت قد نظمت نفسها، لتستجيب لمطالب السكر، على شكل جماعة عمل.

وذلك هو حظ كوبا: فان المرء لا يجد فيها التناقضات التي أدمت في الماضي اوروبا الاشتراكية. ان ضرورة العمل في الأرض بصورة مشتركة، لا تصطدم، لدى العمال أنفسهم، برغبة امتلاكها بصورة فردية. لنُعِد قراءة نص الاصلاح الزراعي: نجد كلمة تظهر فجأة، وبلا انذار، ولكن بطريقة خفية، هي كلمة «التعاونية». ونحن لا نرى القانون يقلق او يهتم اطلاقاً لتحديدها او تبريرها. وسبب ذلك بسيط جداً: وهو أن التعاونية، التي هي نتاج تقاليد وضرورات، كانت موجودة «قبل» ان تؤسس.

ما الذي كان يجده ، حتى عام ١٩٥٨ ، اولئك الذين كانوا يزورون ملكاً كبيراً؟ كانوا يجدون قصراً خالياً ، ومديراً ، وفرقة من العمال الزراعيين .

والقصر يبقى اليوم خالياً ، فان سيده لن يعود اليه ابداً . أما مديره ، فقد فضّل ان يختفي او يغيّر مهنته ، ولكن فرقة العمال هي التي تبقى بعلمها التطبيقي ، وتجربتها الأرضية وآلاتها . انها هي التي توٴمّن ، بين عهد وآخر ، استمرار الانتاج ، وهوٴلاء الرجال يعرفون بعضهم جميعاً . فلقد شقوا وتألموا معاً ، وقد تعودوا على الأخص أن يعملوا معاً .

وما دامت هذه الجماعة الابتدائية والتقليدية تجد نفسها وحيدة على هذه الأرض ، وما دام حضورها لا غنى عنه فيها ، فان الاصلاح يجعلها مستثمرة الأرض التي تحرثها ، بلا تقسيم ، وهكذا تعمّد باسم التعاونية .

وهذا عملياً تغيير جذري ، فالجماعة تبيع المحصول بلا وساطة الى مصنع السكر وتقبض الربح كله ــ مبدئياً على الأقل .

وقبل عام ١٩٥٩ كان المياومون يتبضعون من أقرب سمّان في القرية . وقد كان هذا التاجر المحترم ، الضائع في الطبيعة ، والذي لا منافس له على بعد عشرين فرسخاً على الأقل ، يعتبر نفسه امتياز احتكار ، ويحدّد الأسعار كما يشاء . وكان ينتهز فرصة البطالة الفصلية ، فلم يكن يتردد في ممارسة الديْن بالفائدة ، وكان بهاتين الطريقتين يربح

مال الفقراء بلا جهد ، غير انه لم يكن يربح ودّهم .

وعزمت الدولة الجديدة ان تُعدِم هؤلاء المستثمرين الدهاة بواسطة المنافسة . فكلّفت المعهد الوطني للاصلاح الزراعي بتسهيل الانتاج التعاوني بأن ينظم التعاونية الوطنية للاستهلاك .

وسرعان ما برزت « مخازن للشعب » في كل منطقة زراعية ، على مقربة من العمال ، وكانوا يجدون فيها بضائع الضرورات الأولية بسعر الكلفة (بزيادة ١٠ ٪ نفقات نقل ، رواتب موظفين ، مساكنهم الخ ..) ولم تستطع التجارة الخاصة أن تقاوم ، فأغلق السمّانة حوانيتهم .

وانتقل مال اليانصيب الوطني الى يد مؤسسة أخرى ، تكرّسه للسكنى . فان كل عائلة تتلقى المواد الأساسية : من اطار معدني الى قليل من الحديد المصفّح الى ترابه .

وبعد ذلك ، يأتي البناء ، ويشارك فيه الجميع ؛ ويوم الأحد ، يأتي العمال من المدينة فيقدمون مساعدتهم . ويكون كل بيت صغير قد صُمّم ، ويشرح المسؤولون تفاصيل التصميم للريفيين ، فيتقيدون بها . ولكن المهمة ، في القطاع الخاص ، هي سهلة نسبياً . ويُستبدل الوضع السيء لكوخ « البوهيو » بوضع مريح للمسكن الجديد . وأما في القطاع العـــام ، فان بناء المساكن غير كافٍ . ويجب جمعها وضمها .

ولم تكن الجماعات الريفية ، حتى تاريخ الاصلاح الزراعي ، تعرف هذه الصورة الثابتة من التضامن : مجتمع

سكنى ، بل كانت تعمل أربعة أشهر على أراضي السيد وتتراكم للنوم كيفما تأتى لها .

أما الآن ، فان المفروض في التعاونية ، ان تسكن في مكان عملها . وقد وضعت الحكومة ، بإشارة المهندسين المعماريين ، نموذجاً للقرية ، هو اكثر النماذج اقتصاداً وتوفيراً ، وأوفرها بساطة ، ما دام العمال يحققونه بأنفسهم .

ان القضية هي تنظيم بل عقلنة المهمات في سبيل زيادة الانتاج ، ولكن من غير ان يكون في ذلك ، أي خروج عن الانتاج الاشتراكي .

وحين اسأل رفاقي الكوبيين عن اسباب هذا الانسجام ، يجيبونني بتعداد مزايا الاصلاح التي تتجمع في مزية واحدة : هي أن مصير عمال التعاونية لا يمكن مقارنته بمصير بعض المياومين .

وقد كنت أتحدث بهذا أمس الاول ، حين كنا نتجه بالسيارة ، الى ماتانزاس :

ـ ألا تأخذهم الرغبة أحياناً في أن يتقاسموا الأراضي ؟

فأجابني جاري :

ـ ولماذا تأخذهم هذه الرغبة ؟ ان رغبة الملكية الخاصة ليست مكتوبة سلفاً في الحقول . واذا فرضنا ان لها اغراء حقيقياً ، فيجب على الأقل ، أن يكون المرء قد جربها . ولكن هؤلاء الرجال لم يملكوا شيئاً ، على الاطلاق ، من الاب حتى الابن ، باستثناء هذا المنجل الاسود في وسطهم .

لقد كان لهم إرث الجوع والبؤس والامراض ، وهذا كل شيء ؛ وانهم يريدون ان يتحرّروا منه ! انهم يريدون ان يكون لهم سقف فوق رؤوسهم ؛ وأن يعملوا لأنفسهم بأن يعملوا للجميع ، ومن ثم ان يرتفعوا بأنفسهم . وهذه مطالب محسوسة . والى جانب ذلك ، يكون امتلاك الأراضي — امتلاكاً فردياً أو حتى جماعياً — شيئاً تجريدياً في نظرهم .

الفصل العاشر

مرة واحدة ، صفّروا لكاسترو !

كانت القضية مفهومة بالنسبة للولايات المتحدة ؛ لقد استولى كاسترو على الحكم من غير ان يرشح نفسه . ولقد ظل مستولياً على الهيئة الانتخابية طوال أربعة عشر شهر من غير ان يأخذ رأيها ، بل هو لم تكن لديه حتى مجرد اللياقة بأن يُعيّن للمنتخبين تاريخ دعوتهم القادمة للأدلاء بأصواتهم ، حتى ولو تأخرت هذه الدعوة ، حتى ولو أجّلت .

وبالاختصار ، انها الدكتاتورية الصريحة .

والمواطنون الاميركيون متعلقون أعمق التعلق بمؤسساتهم ، فهم يعتقدون أن حرية التصرف والبرلمانية هما ثديا الديمقراطية . فإما أن يكون الأمر كذلك ، واما انها الفاشية او الشيوعية ،

بالتأكيد. وجميع النظم المنحرفة يجب ان توضع في كيس واحد.

وأفادت الصحافة من المناسبة؛ انتهى عهد روبين دوبوا. واكتشف الجمهور، بذعر، هتلراً آخر، او ستالينياً آخر.

والواقع ان فيديل كان يثير القلق، لا سيما وانه أعاد، منذ اليوم الأول، دستور ١٩٤٠ الى الاعتبار.

وكانت صحف القارة تتساءل:

— ما جدوى ذلك، ما دام لا يطبقه؟

والواقع ان هذا القانون المحترم كان ينص على برلمان منتخب ووزراء مسؤولين. ولم يكن في النظام الجديد أي أثر للبرلمان، منتخب او غير منتخب. أما الوزراء، فقد كان هناك وزراء؛ بل ربما كانوا ايضاً مسؤولين، ولكن لم يكن ثمة من يعرف شيئاً أمامه. ولقد اغتاظ صارمو الشمال من هذا التصريح المبدئي: ورأوا فيه نفاقاً ورياء، وهو ما نسميه في فرنسا تحية من الشر للفضيلة. ان ذلك الدستور عبارة عن خدعة، اذ انتهكه بلا انقطاع طاغية كان قد وضعه فطرده طاغية آخر، والتقط الدستور من الساقية وأعاده لمجده، لينتهكه بدوره.

وللاميركيين فكرة معينة عن الديمقراطية؛ فهي تربط الاقتصاد بالسياسة، ان لم يكن في التطبيق، فعلى الأقل في النظرية. وتكون نتيجة ذلك ما يلي: ان رئيس الولايات المتحدة الاميركية طلب أصواتاً حرة لأفراد أحرار فأعطوه

إيّاها . ولكي يحتفظ بها لصالحه ، فانه سيحمي الحرية الفردية وبالتالي الملكية الحرة . أما كاسترو الطاغية ، والذي ورث طاغية ، فلا شأن له بالانتخابات الحرة ، ولا بمجلس منتخب يراقب أهواءه ؛ وهو يسخر من الموافقة ، ولا يطلب الا الطاعة ؛ ولهذا فان الجزيرة تصبح ملكه وتنتقل الى صف الملكية الخاصة . وبالاختصارفان البرلمانية تخلق وتدافع وتضاعت الأشغال الخاصة لاستملاك الانتاج . اما الديكتاتورية فتؤدي الى الاشتراكية ، يعني انها ، في نظر هؤلاء المفكرين ، تؤدي الى تجميع خيرات الجميع في يد شخص واحد .

وهذا هو مصدر سوء التفاهم . فان لكاسترو وأصدقائه فكرة مخالفة تماماً .

ان الكوبيين ديمقراطيون ديمقراطية عميقة ، وسيتضح لنا ذلك عما قليل . ولكن المستعمرات النصفية ، حتى التي حرّرت حديثاً ، لا تملك مثالية متروبولها . واذ رأى الكوبيون الشبان النيونَ الأجنبي يسيل على جدرانهم الغالية ، واذ تأملوا العلاقات التي تربط وتوحد ما بين قصب السكر والبؤس والعبودية والعجز ، فقد تعودوا ان يفكروا شيئاً فشيئاً ان الاقتصاد هو الذي يكيف السياسة .

ولنفهم جيداً انهم لم تكن لهم نظرية حول هذه النقطة . اما النظريون فقد كانوا رجال القارة الصارمين . والرجل الصارم يعمّم . وهذه هي لذة الرجال التجريديين . اما الكوبي ، فلا يعمّم قط . إن مشكلته الوحيدة والفريدة ،

هي الجزيرة ؛ وهي ما ينبغي ان يوجّه لها اهتمامه . فقل له ان الأمر الملحّ في بلد آخر ، في أوروبا او في افريقيا ، انما هو بناء عهد سياسي اكثر مما هو زيادة الانتاج ، فانه يستمع اليك باهتمام ويصدقك بلا شك وينتهي الى القول ، بكل بساطة :

ـ أما عندنا فالأمر على العكس تماماً .

بل هو لن يقول شيئاً ؛ فهو يعلم ان الناس يفهمونه . وان يفهمه الناس في الجزيرة ، يعني ان يشاطروه يقينه الثوري . وأول بند في هذا اليقين ، هو أن التوجيه الاقتصادي شيء يفرض نفسه في كوبا ، لأن الظروف تقتضيه .

ومجرد كلمة « توجيه » في نيويورك وفي واشنطن تكفي لاثارة الفضيحـــة والدهشة . ولهذا اعتادوا هناك هذه العادة الغربية ، بوصف كل حكومة لا رأي لها بنظام الملكية بأنها حكومة شيوعية .

واذا كنت اناقش هذه الفكرة مع بعض الاصدقاء الذين يبقون لي في الولايات المتحدة ، فاني ابدأ بتنبيههم بأننا لن ننطق بكلمة واحدة عن المبادىء ، فهي ليست في موضوعنا . وما يجب أن ندرسه انما هو الفرصة والمناسبة والظرف . ان التخلف لا ينبغي ان يحدّد بأنه مجرد عجز في الاقتصاد الوطني . فهو علاقة معقدة بين بلد متأخر وبين القوى الكبرى التي حجزته في هذا التأخر : فاذا تحرّرت المستعمرة النصفية من قيودها وجدت نفسها في بؤسها تجاه متروبول قديم

مغتاظ ، وعليها ، في أسرع فرصة ممكنة أن تتخلّص من العوز والفاقة ، والا ، سقطت مجدداً في التبعية . ولا مجال للشك في هذا . فحتى لو حرّرت ضربة عصى سحرية القوة الكبرى من مفاهيمها الاستعمارية فان المستعمرة المتحررة يجب أن تنقذ نفسها بقواها الخاصة ، أو تضع نفسها ، من تلقاء نفسها ، مرة أخرى ، بين يدي مستعمريها القُدامى . وبعبارة واحدة ، ان التخلف هو توتر عنيف بين أمتين . وتتحدّد كثافته وفقاً لتأخر احداهما بالنسبة للاخرى .

إنها جزيرة نائمة مغلقة تحلم في عام ١٩٥٨ بأنها تعيش في عام ١٨٠٠ . وتستيقظ ، فتجد ان ساعة الجار تمشي ، وانه من جهته يعيش كما ينبغي ان يُعاش في عام ١٩٥٨ .

زهاء ستين عاماً من التأخر : هنا يكمن كل شيء . والمشكلة الكوبية الوحيدة ، كيف السبيل الى استدراك هذا التأخر ؟

ان المتأخر يكتفي الآن بالانطلاق ومعه عبء نصف القرن هذا ، وطبيعي ان تصطك ركبتاه وأن لا يرى في البعيد ، وعبر الغبار ، مفرزة الرأس . والحق ان عليه ان يلحق بهذه المفرزة ، وهذا يعني ان على المسكين ان يركض خيراً من أفضل السبّاقين .

ان على الجزيرة ان تمشي مشية جهنمية ، فاذا عدلت عن انتاج بضاعة واحدة ، ادنى بضاعة تستطيع ان تصنعها ، فان عليها ان تجلبها من نيويورك او من شيكاغو ، وسيكون هذا بدء تقهقر ليس من الممكن وقفه بعد ، وتكون العودة

الى الملكيات الكبيرة ، والى السُكر ، والى العبودية .

وهكذا فان الانتاج الكوبي ، في هذه الفترة ، يتبع عن كثب حالة نصف الاستعمار ، ولا ينمو بطريقة حرّة ، مهما بذل من جهد . ولم يحاول أي بلد بعد بصورة حقيقية ، ان يوقف او يشق نمو الجزيرة . ولكن حين تكون النية الطيبة متوفرة في كل مكان ، فان سرعة الانتاج القادم وايقاعه ، ولا سيما زيادة مستوى نموه ، ستكون مرتبطة ، منذ البدء ، بالنمو السابق والتحولات الحاضرة ومنظورات القوى التي تكتنفها . لقد قال لي غيفارا ، وزير الاقتصاد : « يطلبون منا أفكاراً ونظرية وتنبوءات ، ولكنهم ينسوْن اننا ثورة معاكسة . »

وكان يقصد بأن الجزيرة ليست هي التي تقود المعركة . فان التدابير التي تتخذها ، في علاقاتها مع الولايات المتحدة ، هي أجوبة وردود فعل ، وهذا أمر بديهي .

فهناك من جهة بلد صغير من ستة ملايين وستمئة الف نسمة ، ومن الجهة الأخرى بلد كبير يوشك أن يصبح سكانه مئتي مليون ، فدخل البلد القويّ القوميّ ، بالنسبة للمواطن الفرد ، مرتفع خمسة أضعاف عن دخل البلد الصغير .

وفي هذا الاقتصاد المبتسر ، تمثل الولايات المتحدة جانب الضغط . وسنؤمن ببابا نويل ونعزو لها ، لمدة فترة ، البراءة التامة . فحتى في هذه الحالة القصوى ، سنجد صانعي بتسبورغ او ديترويت يكشفون بتجرد ، « التأخر » الكوبي ، ويخلقون

في كوبا حالة الاستعجال الخطر ، يعني حضور ما يشبه خطر الموت ، الا اذا اوقفوا مصانعهم . ويخيّل الي اننا لن نجد مفكراً تحررياً في أوروبا لا يقر ان الظروف الكوبية هي التي تتطلب التوجيه : ان تصنيع القارة تصنيعاً هائلاً هو الذي يفضل ذلك على الجزيرة الزراعية . وان الحكومة الثورية « تتلقى » ضغط الواقع هذا . وهي في كل يوم ، تفكر وتعمل ، « تحت الانذار والتهديد » وتحوّل التهديد الأجنبي الى متطلب من متطلبات الاقتصاد الكوبي ، وتنشر على الناس الجهد الذي يجب أن تبذله ، وتكشف لهم أيّ القطاعات اكثر تعرّضاً للخطر . فكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟

هل يحقّ للجزيرة أن ترمي المال في البحر حين تطلب الصناعة الناشئة حديثاً رؤوس أموال لها ؟ وهل يتركون التصنيع ينشأ كيفما اتفق ، هنا وهناك ، من أهواء تعشش في رأس أو دراهم تكمن في جيب ؟ كلا ان البلاد لا تستطيع بعد أن تبذّر قواها .

والزراعة نفسها تطلب توجيهاً معتدلاً ، فبعد الاصلاح الزراعي ، ليس المهم من هو يملك الأرض ، وانما المهم ، في أثناء قيام الزراعة المتنوعة ، هي أن تعمّم الأمة ، بمجموعها ، أن يبذر المالك — فردياً كان أم جماعياً — بذوره في هذه الأرض .

صحيح ان الامة هي ، هنا ، « معهد الاصلاح الزراعي » الذي لم ينتخبه ولم ينتدبه احد . ولكن حين نفهم ان البلاد

تموت من عسر هضم بسبب الدولارات والسكر ، وحين نعرف انه يجب ان توصف لها أغذية اخرى ، تُستخرج من أرضها ، خشية ان تموت ، عند ذلك نعترف بأن المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ، هو سلطة تكنيكية ، غير منتدبة وغير صادرة عن كاسترو نفسه ، وانما فرضتها الضرورة القاسية ، ان هذه المؤسسة تعمل ما يجب أن تعمله .

وهناك مؤسسات أخرى ، وسيكون هناك مؤسسات غيرها ، وكلها تشرف عليها الحكومة . ذلك ان الواجب توفير تفكير كليّ يحيط بترتيبات التفاصيل وفقاً لكل المراد خلقه .

ولكي نحصل من العمال على اكبر فعاليّة ممكنة ، من غير أن نفرض عليهم عملاً مرهقاً ، فليس هناك — في غياب الآلات الحديثة لفترة موقتة — الا وسيلة واحدة : هي التنظيم . ويجب القيام بحركة واحدة ، لا تنقطع ، لتعديل بنيات الانتاج وعلاقاته في وقت واحد . فمن الذي يقوم بهذا التعديل ان لم يكن ذلك الفريق الحاكم الذي يجمع المعرفة والسلطات بين يديه ؟

ولكن المفكر الصارم في الولايات المتحدة الاميركية يدين جميع التجارب التوجيهية في كل مكان ، بلا استثناء ، ولا ظروف تخفيفية .

فهو يعتقد ان الطغاة وحدهم ، هم الذين يستطيعون التفكير بتجميع السلطات الاقتصادية في ايديهم ، وسبب

ذلك انهم قد بدأوا باغتصاب السلطة السياسية. وحتى اكثر الاميركيين تحرراً لا يقرون ابداً ان يكون تجميع الاقتصاد متلائماً ومتوافقاً مع ممارسة الديمقراطية ممارسة حقيقية. إن هذا مسلك عام.

ولكن سوء التفاهم هو أشدّ جذرية من ذلك، لأن اميركياً ذا نية حسنة سيقول آنذاك للكوبيين: «حسناً! برهنوا لنا ان حكومتكم تستطيع أن تمارس توجيهها بالوفاق مع مجلس منتخب».

وهذا ما يعني، في حقيقته ان التوحيه هو الديكتاتورية، ولكنهم يعطونك حظاً: خفّف غلواء السلطة التنفيذية بحكمة السلطة التشريعية، وهذا مرة أخرى، هو عكس التطبيق الكوبي: فان القادة الواثقين من ان للاقتصاد المكان الأول، يريدون أن يثيروا الحرية الشعبية في المواضع ذاتها التي يفرض أن يمارس فيها التوجيه: ان الشعب لن يكون حراً على الاطلاق اذا لم يحقق أولاً حريته السائدة في المصنع او في الحقول.

وقد صرّح لي جيمينيز، مدير المؤسسة الوطنية للاصلاح الزراعي بقوله:

«الانتخابات؟ ولمَ لا. انني لست ضدها. ولكني اتحدث عنها بلا حرارة. لأن السياسة في الوقت الحاضر ميتة، فأنت تعرف مشكلاتنا وطابعها الملحّ السريع».

وأضاف بأدب:

«فيما بعد، حين تولد السياسة من جديد...»

وسألته على سبيل الاختبار :

ـ ولماذا تراها تولد ؟

انه رجل ذكي . وقد ارتسمت بسمة على وجهه فوق ذقنه الذي يخفي صدره ولكنه لم يجبني . وبعد لحظة صمت قـــال :

ـ لماذا تتحدثون دائماً عن الديمقراطية بمظهرها السياسي ؟ ان هذا المظهر موجود بلا شك . وثقوا بأني لا انتقص من أهميته . ولكنه يأتي في المحل الأخير . انه ليس الا خديعة اذا لم يلخص في حرية الاقتراع جميع مظاهر الحرية . انني لا أعرف كيف تقوم عندكم العلاقات بين العمال وأرباب العمل . ولكني أستطيع ان أقول لكم بأنه لم يكن عندنا ديمقراطية قبل أول شباط ١٩٥٩ . والجزيرة اليوم في سيرها . وقد جعلنا الشعب يمتلك حقوقه . فكل ضربة ساطور ، وكل تثبيت مسمار يدفعاننا نحو هدفنا الأول وهو ديمقراطية العمل .

وبعد أيام طلبت مجموعة القوانين الثورية ، فقرأتها . ولكني سرعان ما اكتشفت خطأي . فلقد ظننتها ثبتاً بالمؤسسات الكوبية الجديدة ، وهذا ما لم تستطع أن تكونه على الاطلاق ؛ فالواقع انه لم تكن هناك مؤسسات ؛ لا لأن هذه الثورة ما تزال فتية أكثر مما ينبغي ، فلم يتح لها بعد أن تسن قوانين أساسية ؛ فان هناك ثورات لم يكن يمضي على ولادتها ستة أشهر حتى تتحدد الى الأبد ، حتى ولو وجب عليها أن تختفي بعد عمر قصير ، بسبب انقلاب الحظ عليها .

كلا : بل السبب هو أن الكوبيين كانوا مستعجلين للحصول على سهول البندورة ومصانع الصلب . ولم يكونوا على مثل هذه العجلة لانشاء مؤسسات لهم . وسنرى اي نوع من القوانين يفرضه عليهم الوضع ؛ على اني استطيع ، منذ الآن ، ان أقول : انها اعمال وليست اقوالاً .

يبقى دستور ١٩٤٠ . فربما قيل لماذا تتبنّاه كوبا ما دام الأوان لم يحن بعد لتطبيقه ؟

والجواب البسيط . فان وصية الجمهورية كانت اولاً شعبية . فقد كان الكوبيون يحبون أن تتيح لهم في عام ١٩٤٤ أن يطردوا للمرة الأولى باتيستا . وكانوا كذلك يحبونها ضد هذا الطاغية نفسه الذي اراد في عام ١٩٥٢ أن يلغيها .

واذ بعث الثوريون هذه الوصية من جديد فانما كانوا أمل وحدة الكوبيين : وقد سبق ان ذكرت ان هذا كان أحد اهدافهم الرئيسية . غير انه كانت قد قامت بينهم وبين الشعب مشاركة لا يستطيع المراقبون الاميركيون ان يكتشفوها . فانه لم يكن ثمة كوبي قد خُدع . ولم يكن ثمة من لم ينتظر ، نافد الصبر ، الاستشارة الانتخابية القادمة ؛ فقد كانوا مسرورين ان تقدّم الحكومة تحيتها لهذا البناء التاريخي ، ولكنهم جمعوا الى احترامهم العميق للدستور ، احتقاراً للعهد الذي أنجبه لا يقل عمقاً . وهذا في ظاهره متناقض .

ولكننا نستطيع أن نفهمه . فقد حدث لنا ، نحن أيضاً في تاريخنا ، ان كان فمنا مراً وان كان في حلقنا قذى حين نفكر

في المجالس المنتخبة ، في عام ١٨٤٩ مثلاً .

وقد أغرقت البرلمانية في كوبا نفسها لمدة طويلة . ففي مناسبة واحدة حمل كاسترو المستمعين على أن يصفروا له . وكان ذلك في اوريانت ١ . كانت الحرب قد ربحت ، ولكن الثورة لم تكن قد تولت السلطة بعد ؛ وعقد فيديل مؤتمراً شعبياً وتكلم . وكان المستمعون يصفقون له . ولكنه حين تكلم عن سيادة الشعب وعدّد الأشكال التي تمكنه من ان يمارس هذه السيادة ، ولا سيما نظام المجالس التمثيلية ، حدثت في الجموع ضجة وصخب رأى كاسترو معهما أن لا يلح على هذا الموضوع .

وكان لا بد ، على أية حال ، من العودة الى العقل : ان هؤلاء الناس لا يحبون نوابهم القدامى ؛ وفي الوقت الذي كانوا يُنتزعون فيه من الذل ومن العجز كانوا يرفضون ان يغرقوا فيهما من جديد بتسليمهم مرة أخرى الى قرود .

أما القادة الشبان ، فان نفورهم من البرلمانية لا يرجع الى الماضي والى تجارب آبائهم السيئة اكثر مما يرجع الى المستقبل والى ما يحمله النظام التمثيلي من بذور التهديد والخطر .

وقد سألني أحدهم :

ـ ما هو المطلوب ؟ ان ننتخب ؟ لن نفعل ذلك أبداً . فانقل أسفنا لذلك . وحذار ان يحكوا عندكم الهذر الاميركي ،

---

(١) مسقط رأس كاسترو .

من اننا سنموت جميعنا خوفاً من أن يجعلنا الانتخاب اقلية. فكيف تجرؤون أن تطلبوا من القادة الكوبيين أن يقوموا باستفتاء، وفي الوقت نفسه ترددون في جميع كتب التاريخ السياسي، ان الاستفتاء، ليس هو بصورة عامة إلاّ تكريس الأمر الواقع؟ اننا في الحقيقة نعرف جزيرتنا. ونعرف ان استشارة انتخابية — سواء اتخذت شكل الاستفتاء أم لا — ستعطي كاسترو ٩٠٪ من الأصوات. وأنتم أحرار في أن لا تصدقوا ذلك. ولكن انتظروا قليلاً، تنزهوا قليلاً مع فيديل وستكونون مثلنا، ستعرفون.

وكان على حق: فبعد يومين عرفت، بل اكثر من ذلك، شاهدت؛ وسأتحدث عن هذا وأدلي للقارىء باسبابي.

وكان الوقت مبكراً جداً. فقلت له ببساطة:

— لنفرض ان أرقامكم صحيحة. أفلا تظنون انها تجعل الاستفتاء ضرورياً؟ انه سيكون نصراً عظيماً، وسيغلق أفواهاً كثيرة معادية، حتى اني لا أفهم تماماً لماذا تحرمون أنفسكم من ذلك؟

— لسبب واحد. اننا لا نريد ان ندفع ثمن نصر الثوار بسحق الثورة. فما الذي يعطي لجماعتنا معناها؟ انها وحدة النظر، الوحدة العملية. اننا عدة أفراد في شخص واحد؛ رجل واحد، وهو الرجل نفسه في كل مكان معاً؛ ونحن لا ننفك نشرح هذه الحقيقة؛ فان الأمة المتخلفة، بعد أن طردت أصحابها من اللاتيفوندیا، تجعل من الافتاح، القاسم

المشترك لجميع الطبقات ، مصلحتها المشتركة . والآن ما الذي سيكون عليه مجلس منتخب ؟ انه سيكون مرآة خصوماتنا وخلافاتنـــا .

ـ ولكنكم تقولون ان ليس هناك بعد خصومات وخلافات؟

ـ تماماً . فلا بد من توتر العمل ، ومن حرارة تذويب لكي تستطيع الجماعات والأفراد أن تتخلص من وجهات نظرها الضيقة . ومن حسن الحظ ان كل شيء يتم في الحرارة . ولكنك اذا اوقفت كل شيء لتعطيه قانوناً انتخابياً فسينقسمون من جديد ، لأن هذا القانون صنع لكي يقسمهم . والدليل هو أن هذا القانون سيوصف بأنه عادل ، اذا مُثلت الجماعات والمصالح في المجلس بنسب توافق أهميتها القومية . ومن جهة أخرى ، فيجب على المنتخِب ان يختار . فان هناك ، على الأقل ، حزبين . وهذا يعني جماعة للاستبدال ؛ وقد لا يكون هذا خطيراً جداً . ولكنه يعني خصوصاً اقتصاداً للاستبدال . وقد يقال : اقتصادان ، ولمَ لا .؟ قد يكون هذا مقبولاً أو مطلوباً في الخارج ، ولكن ليس كذلك في جزيرتنا ، وليس اليوم .

ثم سألني مباشرة : « ما عساكم تفعلون اذا طلب منكم ان تجروا في كوبا استشارة انتخابية ؟ »

ان المنتخِب يمكن ان يوجد دائماً ؛ فليس هو الذي يقلقنا . أما المرشحون للانتخابات ؟ سنضع على الورق تعدّد الأحزاب ؛ هذا حسن جداً . ولكن اين نأخذ الأحزاب

الحقيقية ؟ أتظنونها تولد من تلقاء نفسها ؟ اننا نشك في ذلك : انظروا بالاحرى كم هي تستعجل لكي تختفي . ستعود بعض الأشجار الجافة للازدهار : فالحزب الارثوذكسي قد حافظ على وجود اسمي ومقر اجتماعي ، سيُعلن بعض الاربعينيين انهم ممثلون ومنتمون اليه . ولكن هل تأخذون على عاتقكم أن تجدوا له برنامجاً ؟ ان هذه التشيكلة البورجوازية لليسار المعتدل ، لن تجرؤ على ان تصطف الى يسار الثوريين ؟ ولن تكون من السذاجة بحيث تصطف الى يمينهم . ان الثورة لا تعود الى خلف : فهل يُظن ان الشعب سيعطي أصواته للمرشح الذي يقترح العـــدول عن الاصلاح الزراعي والعودة الى نقطة الصفر ؟ الحقيقة انه ليس ثمة أي وضع ممكن اليوم في نصف الدورة : فالثورة ، في وحدة عملها التطبيقي ، هي بالضرورة يمينها بالذات ويسارها بالذات . وفي قلبها التقى المقاومون والمتمردون وارتبطوا . وكل حزب جديد يجب أن يقبل كنقطة انطلاق ، اطارات النشاط الثوري وهدفه الأساسي ووسائله : وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً اذا لم يأخذ لحسابه الهدف الحالي للجزيرة كلها : زيادة الانتاج .

فأين اذن ستكون خلافات وجهات النظر ؟ ان الاستعجال هو على أي حال واحد بالنسبة للجميع : يجب المضي بسرعة . والناس في كل مكان ، كما سنرى ، يتعلمون أن يتطلبوا ، فصالح الجميع في أن يعجلوا الحركة . فهل يمكن تصور مرشح يتميز عن الفريق الثوري بأن يعلن امام المنتخبين

أنه سيمشي أبطأ مما يمشي ذلك الفريق ؟ ان الوسيلة الوحيدة في أن ينفصل عنه ، من غير أن يفقد نفسه او يخسر ، هي أن يسبقه وأن يتجاوزه . ولكن هؤلاء الفتية الذين يتولون السلطة ، خفيفو الحركة نشيطون . ثم ان امامهم سبعة عشر شهراً من التجارب ، فليحاول من شاء أن يدركهم . ولكن لن يحاول أحد . فاذا عمدنا غداً الى اجراء الانتخابات ، بل اذا استأثرت بعض الأحزاب بأصوات الكوبيين ، فان الاختيار سيكون أسهل جداً مما ينبغي : فهناك من جهة جماعة مجرّبة ، فعالة ، شهيرة ، تستطيع أن تستشهد بمجدها وبمشاريعها وبنتائج هذه المشاريع . وهناك من جهة أخرى تشكيلات لم تكد تخرج من مهدها ، وهي بلا أي تجربة للسلطة ، ولا يمكن أن تعطي الا وعوداً مجردة .

الفصل الحادي عشر

ثورة الشباب !

ليست اكبر فضيحة في الثورة الكوبية هي أنها نزعت من الزارعين أملاكهم ، بل هي انها رفعت الى السلطة صبياناً . فمنذ سنوات وسنوات ، كان الأجداد والآباء وكبار الإخوة ينتظرون أن يموت الديكتاتور ليحلّوا محلّه في حراسة البلاد .

وبين الفينة والفينة ، كانت الأحزاب ، تنبوأ منها باليوم البعيد الذي يتغير فيه فريق الحكام ، تجازف بالاعلان عن تعلقها بالبرلمانية . وكان كل شيء على ما يرام ، حين استولى الصغار على السلطة وعبّروا عن رغبتهم في الاحتفاظ بها .

لن يكون في الحكم شيوخ !

والواقع اني لم أر شيخاً واحداً بين القادة ، لقد طفت بالجزيرة ، وتنقلت بين مراكز القادة ، ومن طرف السلّم الى طرفه الآخر ، التقيت بأولادي ، اذا صحّ التشبيه . وعلى كل حال ، بأولاد معاصريّ . أما الآباء ، فلم يكونو ا يعلنون عن أنفسهم . إن الأربعينيين في هذه الجزيرة هم أوفر اربعينيي العالم تخفياً .

وليس وزير الاقتصاد ، الهزيل الأشقر ، هو بنيامين الثورة ، فهو في التاسعة والعشرين من عمره . وهذه هي السن المتوسطة لأعمار الحاكمين هنا . ولكنه يملك جذل الاحداث الرصينين ، وهذا يكفي ليجعل الشبّان يتسلّون بالمزاح بصدد شبابه ، مما يحمل على الدهشة من شبابه .

فان ارموندو هارت في السابعة والعشرين ، ولا يتجاوز غيفارا وراوول كاسترو الثلاثين . وهم حين لا يتحدثون عن الشؤون العامة يبدون شباناً فيما بينهم ، فيتبادلون المزاح ويشعر المستمع الى أحاديثهم انهم يبدأون شيخوختهم باكراً : وفي رأيي ، أبكر مما ينبغي .

وقد سمعت من كان يعزو اروتيا الى عبء السنوات الثقيل ، بالرغم من انه لم يكن يبلغ الستين ، وقد كانوا يقرّون ، مع ذلك ، ان رئاسة الجمهورية تقتضي سناً معينة ، علامة الاعتدال الخارجية ، وهم لهذا مبتهجون بأن يكون عمر الرئيس الجديد ، السيد دورتيكوس ، « أربعين عاماً

على الأقل » ، على حد قول أحدهم .

أما انا ، فاذ اكون بينهم ، احسّني اكبر سناً مما لو كنت في باريس . واني أخاف في الوقت نفسه ان أضايقهم وان اخون معاصريّ .

لقد انتدبت الظروف الشباب ليقوموا بثورة ؛ ما دامت الثورة واجبة فالشباب وحده كان يملك القدر الكافي من الغضب والقلق ليباشر هذه الثورة ، وكان يملك القدر الكافي من النقاء لينجح فيها .

وفي هذه الجزيرة كانت دفقة العدد تُفسد التوازن وتجعل للسنين أقليّة . ولكن هؤلاء المسنين كانت لهم ، منذ وقت طويل ، مراكز يتشبثون بها : فما كادوا يرفعون رؤوسهم وينظرون الى المجتمع الكوبي ، حتى رأى القادمون الجدد جميع المخارج مسدودة وجميع الأعمال مأخوذة من اخوتهم الأكبر سناً . ثم أُغلقت الأبو اب ، فلم يكن التقدم ممكناً .

فكان ثمة ، عند جهة من جهتي الجدار ، المجهّزون ، ومن الجهة الاخرى ، جموع الذين بلا عمل ، الذين كانوا يتناوبون كل عام ، والذين كانت صفوفهم الأولى ، تتلقى ضغط الاخيرين باستمرار . لم يكن ثمة من مستقبل الا ان يكون هذا المستقبل تدني المؤن الغذائية . وقد اكتشف العاطلون الجدد ، أن البطالة لم تكن نتيجة حادث عارض ، وانما كانت ، بكل بساطة ، قدرهم . وفجأة ، رفضت هذه الجموع الفتية النظام الذي كان يرفض لهم الحياة . وكان من حسن حظ

البالغين الكبار ، أن تكون لهم أعمالهم : فقد كان باقياً لديهم ما يفقدونه ، ومهما بلغ الراتب الثابت من التواضع ، فانه يجعل أصحابه يميلون الى الخضوع .

أما الشباب ، فلم يكن لديه ما يفقده : كان يرى الأخوة الكبار يُسايرون الطغيان فيفكر : « انما هم يخضعون لمصائبنا » . وكان هؤلاء الصبية ، اذ يرتمون ضد الامتيازات ، يثورون في الوقت نفسه على الأشخاص الكبار . وقد اخترعوا لأنفسهم تجاه تخلي الكبار ، ثباتاً لم يفقدوه قط ، وهو الذي أتاح لهم أن يفهموا النداء الذي كان ثبات كاسترو يطلقه . كان شيئاً واحداً ، بالنسبة لهؤلاء الصبية المريعين ، أن يتمردوا على النظام الديكتاتوري ، وعلى الذين أتاحوا له القيام او الاستمرار بسبب جمودهم . كان شيئاً واحداً أن يجعلوا جيش المرتزقة يذهب هباء وأن يحملوا الأكبر منهم سناً على الاستقالة ، وفي هذه المغامرة العجيبة حرّر الريف المدن وحرّر الأولاد الآباء .

وحين يعود الجنود من الحرب ، يجدون اخوية كان يُبعد عنها المدنيون ، وقد كان الابعاد هنا اكثر حسماً وجذرية . فان جنود المقاومة السرية الشبان ، كانوا يصارحون اخوتهم وأخواتهم الأصغر منهم سناً ، بأهدافهم المرسومة ، كانت المقاومة تكنّ رغبة خبيثة في الاحتفاظ بأسرارها دون الجيل الهابـــط .

ولا ريب في أن هذا كان بدافع الأمن ، ولكن مع ذلك ،

ما الذي كان يُسبّب عدم اطمئنان البالغين ؟ كان أبناء العائلات يتنقلون في المنطقة تحت اسماء مستعارة ، حاملين أوراقاً مزورة ، وكان اخوتهم الأصغر منهم سناً ، يسهرون على تنبيههم ، في البيت الأبوي ، وكان أرباب البيت يجهلون كل شيء .

وقد حدث قبل أيام من النصر ، في مدينة من مدن الريف ، ان احتاج طبيب الى وقود لسيارته . وحين طلب ذلك ، أُرسل الى السلطات الثورية ، ومثل أمام القيادة العامة . وكان القائد المحليّ في دورة تفتيشية . وكان الوقود يتعلق به ، فاضطر الطبيب الى الانتظار ، وكان يعرف ، كالجميع ، القائد الشاب باسمه المستعار ، اسم المقاومة ، وبكفاآته ، وكانت الضجة العامة تنسب اليه اعمالاً مجيدة كثيرة ، حتى أن المتمردين سلّموه المدينة فور استيلائهم عليها وعهدوا اليه في محو آثار الحرب بأسرع وقت . وبدأ الشك يحوم في رأس الطبيب المنتظر الذي كان يرى شباناً يروحون ويجيئون — بصفتهم مساعدي القائد المباشرين — فيكتشف انه يعرفهم ، اذ سبق له ان رآهم يخرجون من الكليات أو من الليسه ، ولكنهم كانوا يصرّون على أن يسمّوا أنفسهم بأسمائهم المستعارة وعلى ألا يسمّوا قائدهم الا بلقبه . ولم يمض وقت طويل حتى شعر الطبيب بعزاء كبير ، حين اكتشف انه كان يعرف القائد تحت مظاهر مجهولة : لقد كان القائد ابنه .

كان هذا الشاب الهاديء الرصين قد تزوج في وقت

مبكر . فرزق ابناً . وكان الزوجان الشابان يسكنان ، كما هي العادة ، في بيت أهل الزوج ، فهل يمكن تخيل عائلة اكثر وحدة ؟ وكانت الحرب المدنية تعصف في البلاد ، ولكن هذا الابن الهادىء ، كان ينام كل ليلة في بيته . وكان ذلك يعني انه كان ينام خارج بيته في الاسبوع ، وان زوجته كانت تحمي سرّ غيباته . وفهم الطبيب ، في مزيج من العواطف انه كان له ابن ذو امجاد ، ولكنه كان مفرط التخفي . ولقد عاش هذا الأب في الجهل ، مخدوعاً بحضور امرأة صغيرة السن وطفل وليد ، وقد أغرقوه في هذا الجهل عن قصد ، بينما كانت زوجته تعرف كل شيء ، مما يدل على أن النساء كن موضع ثقة اكثر من الرجال . وقد انكشفت القصة في جو من المرح ، فما دامت الثورة قد ربحت ، فان الابن قد أحسن هذا التصرف . وانا أجهل ان كان الطبيب قد انطوى لحظة على نفسه ، وبحث عن أسباب هذا التحفظ الذي كان في حقيقته ، يدينه . فلو ان ابنه اطلعه على سرّ ، لما سلّمه ، بلا شك ، حتى ولو أخضعوه للتعذيب ، ولكن أتراه كان يشجعه ؟.

ولقد حدّثني شاب بورجوازي ثوري عن وجهة نظر الشبية ، فوجدت حديثه يلخص هذه الوجهة خير تلخيص :

— « لقد احترمت ، وما أزال احترم ابي واخوتي الكبار ، فهم أشخاص طيبون شجعان ، وحين كنت صبياً ، اتخذتهم قدوة ووددت لو احتذي بهم طوال حياتي . ثم خيّبوا لي

أمني ، ولم تكن تلك غلطتهم ، ولكنها لم تكن كذلك غلطتي » .

وأتصور ان هناك مئة طريقة اخرى لوصف أسلوب الرجال وحركة المكاتب . اما انا ، فابدأ بهذه الطريقة وأقف عندها ، فاذا كنا بحاجة الى خيط قائد — ونحن بحاجة اليه — فان الشباب هو البديهة الأكثر مباشرة ، والأشد امتناعاً عن الانكار ، انه في كل مكان ، وهو يذرع الشوارع ، وفي المساء ، يقوم بتجاربه في هافانا ، تجاه البحر . وهو هنا ، قد أصبح مزية داخلية ، لقادته ، من غير ان يكفّ عن كونه مرحلة من الحياة . واذ يعلن هذا الشباب نفسه ثورياً ، فانه يُنتج ما يشبه وضعاً اجتماعياً ، ان علاقات العمل والنزاعات الطبقية وكل شيء ، كان يزدوج بالعلاقة الاساسية ، علاقة الشبان الذين يعانون حياتهم مع الأشخاص الكبار الذين صنعوا لهم هذه الحياة . والعمل اليوم ، في الورشة ، وفي الحقول ، وفي الوزارات هو عمل « شاب » . شاب حقاً . والقيادة تمشي في اتجاه عقربي ساعة : ان القيادة تقتضي ان لا يكون القائد قد عاش اكثر مما ينبغي . ويكفي أن لا يكون المرء اكبر سناً من ثلاثين عاماً حتى يُطيع . وهذا يعني ، ان العهد يُنتج ويكشف عن انقلاب جذري في العلاقات البشرية . واذا أردنا أن نفهم هذه العلاقات المتغيرة ، فيجب أن نبحث ، في جميع الميادين ، عن نتائج هذا الحدث التاريخي ، غزو البرابرة لكوبا .

لقد ارتمت على شعب الجزيرة المتمدن جداً بربرية جديدة ،

هي الشباب الذي كان يتقدم مقنّعاً. والفاتحون الجدد يعاملون السكان معاملة طيبة. ولكنهم يحتفظون بمسافة بينهم، ويتزوجون فيما بينهم؛ فليس هناك من تآخٍ.

وتستطيع كثير من الثورات ان تشكو، كالاشخاص. انا «لم يكن لي شباب.» ويكون السبب انها قد دُفعت اكثر مما ينبغي واكبر مما ينبغي: بدافع من الضرورة؛ فقد كانت هناك طبقات ينبغي تجاوزها، وامتحانات ينبغي تقديمها؛ وكانت هناك أمراض طفولية تتأكلها؛ غير ان كوبا تتمتع، حتى الآن بهذا الحظ: فانها لم تكن بها حاجة الى أن تشكو وتغضب من بداءتها؛ وهذا من حسن الحظ؛ فلو فعلت، لهدمت نفسها؛ فمن عام ١٩٥٧ الى ١٩٥٩ اعدّت ثورة الشباب مغامرة جديدة كانت تُعاش منذ أربعة عشر شهراً: شباب ثورة.

فلنتساءل عما تعنيه، بالنسبة لحكم جديد، قضية أن يمارسه شبان. اما أنا فلن أدرس الا ثلاثة أمور اساسية: كيف تكيّف الحركة الجديدة هؤلاء الفتية لتجعل منهم السلطة التنفيذية التي تقودها الى الشاطيء الأمين؛ وكيف يحفظون للثورة البناءة ميزة «التمرد السلبية»؛ وكيف يحققون عملياً الحكم الصادر على الكبار من قبل الضغط التعدادي. وبعبارة اخرى: ما الذي تجعله السلطة منهم؟. وماذا يجعلون من السلطة؟ وفي هذه الجزيرة التي تسترد شبابها كل يوم، هل تراهم قد أحدثوا انقلاب التحالف الذي يفرض نفسه

وأسسوا ديمقراطيتهم العملية على أجد العلاقات الانسانية ؟

ان شبابهم هو الذي جعلهم يقدّرون ، حين تسلموا الحكم ، ضعفهم وجعلهم يتحملونه . وكانوا بحاجة الى ممتهنين ممارسين في جميع المراكز ، والى تكنيكيين واخصائيين ؛ فأين تراهم سيجدونهم ؟ انها ازمة نقص في الملاكات ، على انه كان هناك عدد منهم على أي حال . وكان لا بد من البحث عن هذه النخبة في عالم المشبوهين ، الرجال البالغين . ان الخبراء الماهرين ، هم عادة ، انتظاريون انتهازيون . وقد كانوا يقيمون على حذر ، بين النور و الظل ، يحسون نبض الثورة خفية . ولا شك في أن الرابطة الأولية المطلوبة بعد انتهاء الاضطرابات الكبيرة ، حين يكون كل شيء مرمياً في الأرض ، ويجب محو آثار الحرب ، وحين لا تكون عودة هجومية من قبل العدو امراً مستبعداً ، ان هذه الرابطة المطلوبة هي الثقة .

وقد قال لي ذات يوم غيفارا ، وهو يشير الى رأسه :

ــ من النادر أن يستطيع كاسترو ان يجد رأساً اشد امتلاء ؛ ربما كان يستطيع ان يجد رأساً أجمل صنعاً ؛ وهو يعرف انه لن يجد رأساً يتفاهم خيراً من هذا مع رأسه ، حتى في تفاصيل الأفكار .

وقد تُرك الخبراء لترددهم ، واستُغني عن خدماتهم ، ووزعت الثقة المهمات . ففي الوزارات والمؤسسات ، وعلى رأس الخدمة الأكثر تكتيكاً ، وضعت حكومة المتمردين

المقاومين ، متمردين ومقاومين . والواقع انه لم يكن قد أتيح لأحد من هؤلاء ، الذين ألقوا في المعمعة وهم في العشرين ، أن يكتسبوا خبرة خاصة في أي قطاع من الجزيرة ، ولا أن يحصلوا على كفاءة ويبلوروها . وكانوا يشتكون جميعاً من التعليم ، كما سبق ان ذكرت . فقد كان التعليم ثرثرة بلا حقيقة . وأما أولئك الذين استمروا في دراساتهم ، والتمسوا في الكليات تخصصاً أول ، فان باتيستا كان قد رفض بطريقة أكثر حسماً ان يؤمن لهم الثقافة : فقد كان يتعلل بأي اضطراب ليغلق الجامعة على الفور ١ .

والحقيقة انه لم يكن ثمة شيء ولا أحد يستطيع ان يساعد القادة الجدد ؛ لا الرجال البالغون ، ولا التقاليد — فان علاقات الجزيرة بفولكلورها ، بالاضافة الى رغبتها في الاستقلال ، قد قطعها المقص الاميركي حوالي عام ١٨٠٠ — ولا رجال الماضي الكبار .

ولم يكن بوسع مثلهم أن يُفيد كاسترو ؛ فقد كانت الأوضاع مختلفة اكثر مما ينبغي . ولم يكن من قاسم مشترك بينهم الا الجرأة والارادة الحديدية باكتساب الاستقلال لبلدهم .

وهكذا وجد هؤلاء الفاتحون الشبان أنفسهم مقصورين على أن لا يعتمدوا الا على انفسهم ، وأمامهم أهداف واضحة .

---

(١) استمر اخر اغلاق للجامعة من ٢٦ تشرين الثاني ١٩٥٦ الى شهر نيسان ١٩٥٩ .

ولكن لم تكن أمامهم طريقة مشقوقة لبلوغها. فما عساهم يفعلون، هؤلاء الشبان ذوو الضمائر؟ ما يفعله كل من كان في مكانهم؛ لقد أدركوا انهم يدخلون في مرحلة «الانسان ـ الجوقة». فحين يكون بلد متخلف قد بذل الجهد الكبير لينتزع نفسه من البؤس، فابنتظار تشكيل الملاكات يجب أن يضطلع القادة بجميع المهمات، وان يأخذوا على عاتقهم جميع الصلاحيات ولا يخشوا ان يتحولوا الى رجال شموليين، وإلا فان الحركة الوليدة، توشك أن تموت. ويصبح الموتى والآلام جهوداً ضائعة.

قال اولتوسكي، الذي كان عضواً نشيطاً جداً في «حركة ٢٦ ـ ٧»:

ـ لا أدري لماذا جعلوني وزير مواصلات؟ ربما ذلك لأني كنت مكلفاً من قبل بتخريب المواصلات.

وقال غيفارا، مدير البنك الوطني، وهو يقدّم لي قهوة لذيذة في مكتبه: انني أولاً طبيب. وبعد ذلك جندي بعض الشيء. وانا الآن كما ترى «بانكييه.»

وليس هو الوحيد من نوعه في كوبا: فان الثورة تختار عن رضى رجالها ـ الجوقات ـ بين الأطباء والجراحين.

وقد قسّم معهد الاصلاح الزراعي الجزيرة الى مناطق اقتصادية. وقد كانت الحاجة ماسة الى مهندسين زراعيين لادارة هذه المناطق، من أعلى السلم الى أسفله؛ ولكن عُيّن أطباء وأحياناً أطباء بيطريون. وقد سألوا عما يجب

أن يفعلوه ، فجاءهم الجواب :

ـ سترون عما قليل .

وحدثت اخفاقات كثيرة ، ولا سيما في الأشهر الأولى ، ولكن الهيئة الطبية ، بعد كل حساب ، اضطلعت بهذه المهمة الاضافية اضطلاعاً اكثر من مشرّف . وقال لي أحدهم :

ـ السبب انهم يملكون حسّ الأجهزة العضوية . فهم يعتبرون المنطقة ، أو المقاطعة الاقتصادية كجسم حي . ويعرفون ان كل شيء يتوقف على كل شيء .

ولكني أعتقد شخصياً ان نجاح هؤلاء الأطباء الزراعيين ، صادر قبل كل شيء ، عن ميزة خاصة في معرفتهم ؛ فان هؤلاء الأطباء المختبرين ، قد تعلموا ، منذ ان كانوا في الكلية ، ان يجمعوا التطبيق والعلم ، جمعاً لا ينفصل ؛ وقد حملوا عاداتهم الى ميدان نشاطهم الجديد . وهم يرون في الحل الذي يرتجلونه تطبيق قانون صارم سيحاولون أن يضعوه ؛ وهم سوف يرون في جسم القوانين المعروفة التي تحكم اقتصاداً ما ، القوانين التي يجب ، اليوم ، الأخذ بها لأن تطبيقها ممكن .

وليست الكلية هي وحدها التي تشرف . فهناك متطوعون في جميع المهن الحرة . وهناك عدد من الشبان الذين لم يعرفوا قبل ذلك أية مهنة .

وبعبارة اخرى ، فان الرجل الجوقة ـ هو دائماً مغتصب ؛ لأنه يحتل مركزاً يخص غيره ، بصورة طبيعية ؛ وعذره

الوحيد ، هو أن هذا الغير غير موجود . وليس هناك في كوبا ، من هو مختص مئة بالمئة بعمل ما يعمله ؛ ولكن هذا لا يثير قلقاً ؛ فان الاختصاص سيأتي من النجاح . وعدم الاختصاص من الفشل .

وبانتظار أن تنقّي الثورة القمح من الزؤان ، ليس في كوبا شخص صاحب حق بمهنته ، ما دامت الثورة لم ترد للمهن الخاصة ، ذوي النيات السيئة ؛ وتعيين مسؤول في مركز عام ، لا يعدو ان يكون اكثر من تجربته في هذا المركز ؛ وهو سيستمتع بتأجيل جديد كلما احرز نجاحاً جديداً . ولكنه ليس مؤمّناً ضد الغد ، ضد الساعة القريبة ؛ ربما كان مغتصباً ، ولكنه مغتصب موقت ؛ والجزيرة كلها تجهل ما يُسمى ، في الجهات الأخرى ، الحقوق المكتسبة .

ان هؤلاء الشبان المقتنعين بعدم كفاءتهم يخشون الخطأ القادم والادانة التي تتبعه . وهم لا يفكرون حتى بأنهم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بذكر حسناتهم السابقة ؛ ان في ذلك انتقاصاً من العزة والكبرياء .

غير أن هناك استثناء ، هو جيمينيز . فقد كان مرصوداً سلفاً ليدير المعهد الوطني للاصلاح الزراعي : فهو عالم جغرافي ، وقد نشر ، في عهد باتيستا ، الدراسة الوحيدة القيمة عن كوبا . فهل أتى الى الجغرافيا بالثورة ، أم أتى الى الثورة بالجغرافيا ؟

الواقع ان هذا الكتاب كان يكشف الأمراض ، ويعيّن

الأدوية بنزاهة لم ترق للعهد ، فصودر الكتاب . وقد ظهر الآن من جديد ، ولا يزال على أهميته بالنسبة للأحداث .

غير اني أقصد الى القول بأن العلم ، مهما كان موثوقاً ، والكفاءة ، ولو اعترف بها الجميع — وحتى في الخارج — فانهما لا يمنحان هذا الثوري الا صفة ظاهرية : ان كل ما قيل ، وكتب ، وعمل ، قبل مطلع العام ، ١٩٥٩ سيظل حرفاً ميتاً . انه الماضي . وليس جيمينيز ، العالم الجغرافي ، اكثر قابلية من جيمينيز ، المتمرد ، ليصبح جيمينيز المصلح : فإن ما يجعله جديراً وقادراً على ادارة المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ، انما هو الجهد الشاق الذي كان عليه أن يبذله ، وما زال يبذله ليغير نفسه بأن يغيّر البلاد . كان باستطاعته ، في أثناء الثورة ، أن يكون بلا جهد ، رجل علم وجندياً : وهذا العملان لا يتسالمان ولا يتحاربان . ولكن أحدهما يجهل الآخر . أما بعد النصر ، فقد بدأ كل شيء : ان الطلب الوطني لا يُحسب له حساب : ومن المستحيل أن يكون الانسان عالماً جغرافياً وثورياً في وقت السلم . وقد وضع جيمينيز الجغرافيا في خدمة الثورة . ووجبت ملاءمة المعارف العلمية للضرورات التطبيقية ، وجعل العالم خبيراً مجرباً ، من غير أن يؤدي ذلك ، الى مراقبة العمل من قبل العلم . ولقد فقدت معرفته للأماكن وللأرض وللجو كل استقلالها : وكانت تتلخص كل يوم ، وهو وحده الذي يحسن قراءتها ، في تدابير زيادة الكمية ، كاقامة تعاونية من عشر أو من

خمسة عشر عائلة في منجم الفحم هذا ، ومنح ذلك المكان حبوباً للبذار ، وبدء أعمال التحريج في هذا المكان الآخر . وانه من القسوة بمكان ، أن يصبح العالِم رجل عمل ؛ فانه لا يبلغ ذلك من غير أن يحطّم عظامه قليلاً .

وفي الوقت الذي كان فيه رجال الوزارة يتعلمون تطبيق النظريات ، كان لا بد للآخرين أن يحسنوا العمل ، أن يضيئوه بالنظريـــة .

ولقد عانى هؤلاء وأولئك معاناة شديدة من نقصهم . وكانت هذه المعاناة ، على أشدها في الأشهر الأولى من عام ١٩٥٩ . لقد كانوا يشعرون ، امام إلحاح المهمات . بهذه الفجوات شعوراً كان يؤدي بهم الى الشرود والضياع .

كان بعضهم يقولون : « هل اجرؤ على التقرير ؟ » وكان البعض الآخر يقولون : « هل سأفهم ما سوف أقرره ؟ » .

ومن الممكن أن يبدو التعلم الثاني أشد التعلمين حطاً وخفضاً : فانهما عامان في غابة الحيوانات ، ثم تأتي العودة الى الصف . ولو كانوا في الأربعين لعمّق العمر جهلهم وجعل ملكاتهم صدئة : ان الكبار يشردون حين يراد تثقيفهم : فنحن نخشى ان لا نتلقى أو أن لا نحفظ . فاذا كان الرجل — الجوقة اكبر سناً مما ينبغي ، صرّت عجلة الثورة ، وكانت خشنة : بحيث انها تضرب على الأعصاب . ونقص الملكات يمارس ، في البلاد المتخلفة التي تحاول ان تدير أمرها ، ضغطاً مزدوجاً على القادة . والأمر الملحّ العاجل ، هو الانتاج

تُشنّ المعارك : معركة البندورة ، معركة الأرز ، وفيما بعد ، معركة الحديد . وعلى هذا ، يكون قضاء ساعة للدراسة الهندسة الزراعية أو دراسة المعادن بمثابة سرقة للوقت واضاعة له . على أن هذه الاضاعة تحدث ايضاً اذا عمل المرء وهو لا ينظر الى أبعد من أنفه ، اذا عمل في الضباب ، ربما انه لا يسرق هنـــا ؛ ولكنه يبذر ولا شك . غير ان النفقات واحدة في آخر المطاف ؛ واذا كان من الواجب إعادة العمل ، زادت التكاليف أيضاً . فما هو السبيل للانتاج ، ولزيادة الانتاج ، من غير ادراك لذلك ؟ يجب أن لا نخلط بين الثورة التي تقوم بمجازفات محسوبة وتؤسس اختراعاتها على التجربة ، وبين المغامرة التي ليست هي الا لعبة مسلية من لعب المصادفة والاتفـــاق .

وبالاختصار ، فان هذا المطلب المزدوج والمتناقض ، يعرّف ويحدّد زمن الثوريين : ليست هناك دقيقة واحدة للنظرية ، وليس هناك من عمل لا يقوم على التجربة — والرجل الجوقة يعرف منذ البدء انه لا يعرف شيئاً : فعليه أن يتعلم كل شي ، أي أن يتعلم طوال الوقت ؛ ولكن أمامه كل شيء للعمل ، فعليه اذن ان يعمل طوال الوقت .

الفصل الثاني عشر

الذين لا ينامون ...

ان العمر هو الذي ينقذ الحكام في كوبا . فشبابهم يُتيح لهم أن يباشروا العمل الثوري في صلابته القاسية . واذا كان على المسؤول أن يتعلم ، اذا كان عليه أن يستنير بمعارف نظرية ، فهو لا يحدّث في ذلك أحداً : وانما يجعل القضية قضيته . ولن يعرف احد ، في أي قطاع يكون قد التقط بعض ذرّات من الوقت ــ وذلك يكون عامة في قطاع الحياة الخاصة . ولن يعرف احد انه يزيد ويضاعف الى ما لا حد كثافة جهده ليقصّر ما أمكنه ذلك مدة التعليم .

ولكننا نستطيع ان نحدس بما لم يقل لنا : فان غيفارا ، إذا لم نرد أن نتحدث عن سواه ، يعتبر رجلاً ذا ثقافة كبيرة .

وهذا ما يُرى بسهولة ؛ فلسنا بحاجة الى وقت طويل لنفهم ان وراء كل عبارة من عباراته ذخيرة من ذهب . ولكن هذا العلم الواسع ، لطبيب شاب كرّس نفسه ، بدافع من ميل وحماسة ، لدراسة العلوم الاجتماعية ، تفصله هوّة من المعارف الدقيقة والتكنيكية التي يحتاجها مدير مصرف للدولـــة .

انه لا يتحدث عن هذا قط ، إلا حين يريد أن يمزح حول تغيّرات مهنته . ولكننا نشعر بكثافة الجهد : فان هذه الكثافة تعلن عن نفسها في كل مكان ، باستثناء هذا الوجه الهادىء المرتاح .

ان الموعد المضروب اولاً لاجتماعنا هو موعد خارق للعادة : منتصف الليل .

ولعل ذلك من حسن حظي ؛ صحيح ان الصحافيين والزوّار الأجانب يُستقبلون بترحاب ولمدة طويلة ؛ ولكن ذلك يتم حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً .

ولقد اجتزنا لنبلغ مكتبه قاعة واسعة لا أثاث فيها ، ما عدا بضع كراس ومقاعد خشبية ، طويلة مصفوفة بإزاء الجدران . وفي احدى الزوايا ، كانت تقوم طاولة وفوقها تلفون . وعلى جميع المقاعد كان التعب يسحق الجنود ، حتى اولئك الذين يقومون بالحراسة ، وحتى الذين كانوا ينامون متبرمين ، وهم يشعرون في أحلامهم بعدم الراحة وبصعوبة أوضاعهم .

ورأيت خلف طاولة التلفون ضابطاً شاباً متمرداً ، منطوياً الى أربع ، وشعره الطويل الأسود متدلٍ على كتفيه ، وقبعته على أنفه ، وعيناه مغمضتان . وكان يشخر بصوت خفيف وشفتاه المستديرتان تضغطان بقوة على طرف سيكار كبير لم يكد يُشعل ؛ ولا ريب في أن آخر حركة أتى بها النائم هي أن يُشعله ليقاوم اغراء النعاس .

وقد شعرت ، وأنا اعبر هذه القاعة ، المضاءة مع ذلك اضاءة باهرة ، اني استقل قطاراً قبل الفجر وأدخل قاطرة كل ما فيها نائم . وقد رأيت هناك وتمثلت العيون الموردة التي تنفتح والأجسام المركومة أو الملتوية ، المرهقة والمضايقات الليلية ــ ولم أكن قد شعرت بالنعاس بعد ، ولكنني أحسست معهم بكثافة الليالي المؤرّقة .

وانفتح باب ، فدخلنا : وزال الشعور السابق . وكان ينتظرني ضابط من المتمردين ، خشن البشرة ، يرتدي البيريه . وكانت له لحية طويلة وشعر مسترسل ، كجنود القاعة الموصلة ، ولكن وجهه الأملس المرتاح الذي كان حديث عهد بالحلاقة ، بدا لي وجهاً صباحياً . وكان هو غيفارا . أتراه كان خارجاً من الحمّام ؟ ولمَ لا ؟

الواقع انه كان قد بدأ العمل ليلة الأمس في ساعة مبكرة جداً . وتناول الغداء ثم العشاء في مكتبه ، واستقبل زواراً وكان ينتظر أن يستقبل آخرين بعدي . وسمعت الباب ينغلق خلف ظهري ، ففقدت في وقت واحد ، ذكرى أتعابي

القديمة وحسّ الوقت . ان الليل لا يدخل الى هذا المكتب . ولا يبدو النوم ، لدى هؤلاء الرجال الساهرين ، المتمتعين بالصحة ، حاجة طبيعية . وانما كان روتيناً تخلصوا منه تخلصاً يتراوح بين القوة والضعف .

ولا أدري متى يرتاح غيفارا ، ولا متى يرتاح رفاقه . وافترض ان هذا متفاوت . فالانتاج هو الذي يبت في الأمر . فاذا انخفض توقفوا . ولكن على أي حال ، بما انهم يبحثون في حياتهم عن ساعات بور ، فمن الطبيعي أن ينتزعوها أولاً ، من « لاتوفنديا » النوم .

تصوروا عملاً مستمراً طوال الساعات الأربع والعشرين . ولكنه يُنفذ منذ أربعة عشر شهراً من قبل الجماعة نفسهم ، ذلك هو المثل الأعلى لهؤلاء الشبان ، لقد بلغوه تقريباً : فان الليالي في عام ١٩٦٠ هي ليال بيضاء في كوبا . صحيح انها ما تزال تتميز عن النهارات ، ولكن ذلك بدافع التأدب ، ومراعاة للزائر الأجنبي .

يبقى انهم ، بالرغم من مراعاتهم المبالغ بها ، لم يكونوا يستطيعون الامتناع عن تقليل الساعات البليدة التي كنت اكرّسها للنوم الى أقل حدّ ممكن ، فقد كنت أنام في ساعة متأخرة جداً ، فيوقظونني في ساعة مبكرة جداً . ولم اكن أتألم من ذلك . بل على العكس ، فقد كنت غالباً منزعجاً أن أنام ، مهما كانت الساعة متأخرة ، بينما يكونون هم ما يزالون ساهرين ، وان استيقظ مهما كانت الساعة مبكرة ،

لأعرف انهم قد سبقوني الى الاستيقاظ ببضع ساعات .

ثم انه من المستحيل أن يعيش المرء في هذه الجزيرة من غير ان يُشارك في توترها الجماعي .

والواقع ان هؤلاء الشبان يقومون بعبادة خفيّة للطاقة . ولكن لا نظن انهم يتحدثون عنها ، أو يجعلون منها نظرية ، فانهم يعيشون الطاقة ، ويمارسونها ، وربما يخترعونها ، فنحن ندركها من آثارها ، ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة عنها .

ويحتاج غيفارا الى الطاقة ليُبقي مرح الصباح النظيف الطليق في مكتبه وعلى وجهه ، ليلاً نهاراً . والجميع يحتاجون اليه للعمل ، بل لمحو آثار العمل وكدور النعاس . انهم يريدون أن يتحدثوا عن عصبيتهم ولكنهم لا يريدون ان يدعوها تظهر ، وهم يدفعون مراقبة أنفسهم الى الحدّ الذين يبدون معه مرتاحين ، ويكونون كذلك . فالأمور تبلغ معهم بحيث يستعملون هذه الطاقة ، التي أصبحت طبيعتهم الثانية ، ليجوروا على طبيعتهم .

انهم يعملون اللازم ، جميع اللازم ، بل اكثر من اللازم . وقد قلت انهم يعتدون على نومهم ، وهذا واجب ، فانهم لم يكونوا يحتملون أن يفاجئهم العدوان ، اذا وقع عليهم يوماً عدوان ، وهم في أسرّتهم . وهذا ما أفهمه أيضاً . ومن الذي لا يفهم ؟ من الذي لا يفهم أن القلق والغضب ، ازاء المؤامرات والتخريبات هما اللذان يجعلانهم مستيقظين

اكثر من الليل ؟

ولكنهم يمضون اكثر من ذلك أيضاً ، حتى يبلغوا أن يرددوا كلمة باسكال : « يجب أن لا ننام بعد أبداً » . بعد أبداً . وكأني بهم قد غادرهم النوم ، وهاجر الى ميامي هو أيضاً ، فأنا لا أعرف فيهم الا حاجة اليقظة .

ذلك انها حاجة . وهي على كل حال هوس . انهم يسهرون بلا سبب . او انه كان عليهم بالأحرى ، واجب القيام بمهمة قبل بزوغ الشمس . وقد أنجزوا المهمة . فطلع النهار . وقد كان للعمل الناجز أفراحه التي تبدو جميلة جداً عند الفجر : وقد رفضوا أن يعودوا الى غرفهم ، أن يسدلوا الستار ليخلقوا فيها الظلمات التي تطردها الشمس ، وأن يكفنوا الصباح ، الذي هو تبصرهم ووعيهم ، لمدة ساعات فارغة ، في خبل ليل مزيف .

انهم يمضون ، فينظرون الى النهار ، والى النخيل في الساحة أو الى البحر ، انهم سعداء ، ثم يعودون الى مكاتبهم ، ويقلبون من غير أن يجلسوا ملفاً آخر أقل حاجة للاستعمال ، ويجلسون ليقرأوا احدى الوثائق . فيجدهم زائرهم للمرة الثانية في الساعة الثامنة أو التاسعة ، ناضرين ، مبتسمين ، حليقي الذقون ، ولكن أعينهم قد بدأت في الاصفرار تحت غشاوة تهديد جديد قريب.

انهم مهمومون ، وهم لا ينفكّون يتساءلون ، وبكل تأكيد ، سوف يتلفون أنفسهم بأسرع مما ينبغي . وفي جلسات

مجلس الوزراء ، واجتماعات اللجان ، والمناقشات الأخرى المشتركة ، يكون هناك دائماً فريق من الرؤساء ليسوا هم أبداً أنفسهم ، يقرّون أن يعظوا الآخرين ، وأن يتحدثوا بالمنطق والعقل . وفي نهاية الأمر ، تمطر الحقائق ، مطراً غزيراً اكثر مما ينبغي : ان من يريد أن يُسافر بعيداً يُراعي دابته : وبالاختصار يجيء أوان النوم .

وهذه النصائح العاقلة ، تثير حماسة الآخرين ، فيقررون بالاجماع ، أن يتبعوها في اللحظة نفسها . وينتهي الاجتماع ، ويتعانق الجميع : تصبحون على خير !. ويستقلّ كل منهم السيارة التي تنتظره ، فيوقظ السائق ، حتى اذا قطع منعطف البناية أعطى عنوان الوزارة أو المعهد .

وهو يريد بكل بساطة أن يترك أمراً على الطاولة . يجده المعنيون غداً . وفي اليوم التالي ، يوجد هذا الأمر ؛ وتوجد غيره أمور كثيرة ، ويوجد الوزير أو المدير ، شديد الحيوية ، يرسم تصميم مشروع جديد .

●

أما فرانكي ، مدير جريدة « ريفولوسيون » فشأنه شأن آخر : انه لا يكاد يكبر الثوريين . ولكنه كان يعيش عيشة مرنة ، يكتب أو لا يكتب ؛ وفقاً لأمزجته ؛ قبل أن تعطي الثورة لهذه الحياة دفقتها الجديدة .

فحياته الآن قاسية مليئة لا راحة فيها : ولكنه حين قذف

بنفسه في المقاومة ، وتولى مهمة الصحافة السرّية ، حين اختار المقاومة السرية ، والحرب المدنية والهوس ، شعر بأن العنف كان ينتزعه من ايقاعاته الطبيعية ، و بأنه سيبث فيه ، حتى الموت ، ايقاعاً يكاد لا يُحتمل ، توتراً متزايداً .

انه يشعر بين وقت وآخر بتعبه ، فيقلقه ذلك . المهم قبل كل شيء ، ألا تتخلى عنه أعصابه . هذا الرجل البرونزي ، ذو الشارب ، يدير الينا عينيه الكبيرتين ، الرصينتين غالباً — حتى حين يبتسم ، ويعلمنا بأنه لم ينم منذ اثنتين وثلاثين ساعة ، وانه يأسف لاضطراره للانسحاب . وليس في صوته أي تفخيم أو تلحين . بل هو صوت هاديء عارٍ . وصاحبه ، من فرط الاعتزار والتحفظ بحيث لا يستطيع أن يزعجنا بحالته الصحية أو شواغله . ولكن ذلك لم يمنعنا بأن نفهم انه كان مرهقاً حقاً . فاذا شاء ، صاحبناه الى بيته . ولكن لا ، انه يطلب ببساطة ان نضعه أمام الجريدة . فليس أمامه الا عمل ينهيه ثم يكون بعد ساعة في سريره .

وننقله الى حيث يريد . والوقت متأخر جداً . ويصحبنا أصدقاء آخرون من الصحافيين الى المطعم الذي كان قد اختاره لنا . فنتناول العشاء ، بعد ذلك بساعة . ثم اذا به يظهر من جديد ، وهو يحمل تعبه على وجهه ، ولكنه يبسم لنا . ان في الجريدة عملاً ، رحلة ايزنهاور الى اميركا اللاتينية ، وهذه الاتهامات السخيفة ، في صحيفة يومية من صحف الولايات المتحدة التي يجب دحضها وتفتيتها ، وبالاختصار ،

انه سيقضي الليل ، وهو يأكل لقمة معنا : قبل أن يعود الى العمل . ويتركنا بعد ذلك بقليل . ثم نلقاه في اليوم التالي ، حليق الذقن ، نضراً .

أما فيما يخص الطعام ، فهم أقل من ذلك دقة وصرامة : انهم يأكلون حين يتفق لهم ذلك ، وحين يفكرون بالطعام ، وحين لا يجدون شيئاً آخر يعملونه . وهذا لا يعني طبعاً انهم يتناولون وجبتين زهيدتين في اليوم . فإن التغذية ليست ممنوعة .

وحين كانوا يدعونني للعشاء ، كانوا يأكلون جيداً ، من غير أن يشربوا . الا أن يكون قدحاً من « الديكويري » الكوبي يأخذونه تأدباً لأننا كنا نحب هذا المذاق الخفيف من الروم في ثلج الحامض الذائب .

ان لهم قناعة اللاتينيين . كان الأجنبي يأتي ليمثل في « الفيدادو » بين جدران فنادقهم ، ولكن الكوبيين ، حتى في عهد باتيستا ، كانوا ينفرون من الشرب . والحقيقة انهم كانوا يودون لو يجدوا زمن الحرب مرة اخرى ، فقد كانت نُدرة الأغذية تعطي ، آنذاك ، العنف الغرامي لضربة صاعقة لدى التقاء متمرد بصحن طعام ساخن . والخضوع للجوع فجأة هو المثل الأعلى للتمرد ، ولكنهم أبعدوا جميعاً من برنامجهم اليومي ، التعاقب الروتيني للغذاء والعشاء ، حتى أن هؤلاء الشبان . الذين يظهرون لضيوفهم الأجانب ، اكبر عناية واكرمها ، قد نسوا في بعض الأيام ،

أثناء بعض الدورات ، معدتنا ، لأنهم نسوا معدتهم !

ونهضنا ذات يوم باكراً . فتركنا سانتا كلارا بالسيارة ، وصعدنا نحو مرفأ صيد صغير ، فركبنا قارباً شراعياً مع زهاء عشرة من أصدقائنا . وبعد بضع ساعات أنزلونا جميعاً فوق جزيرة خالية . وحين وضعنا فوق أرضها أقدامنا ، لم تكد تكون أقل خلواً . وكنا واقفين على رقعة أرض ضيقة يغطي فيها النبات كل شيء ، نتبادل الأحاديث على مهل ، والشمس تحرقنا .

وكان المساء يهبط حين أقلعنا من الجزيرة ، وقد زدنا علماً بما لاحق روبنسون من نحس . ولاحظ أحدنا آنذاك بأننا لم نعط شيئاً نأكله . بضع ساعات من الصوم ، ليس أمراً خطيراً . أقصد ان أقول انني لم أحسّ بشيء . ولكن رفاقي يملكون الطاقة المعدية . فانهم اذ نسوا هذا النسيان الممتاز حقوق معدتهم ، ادّوا لي خدمة ان أنسى حقوق معدتي . ولكني ظللت مبهوتاً اذ لاحظت أن هؤلاء الشبان وزوجاتهم الشابات لم يهملوا في الحقيقة شيئاً ؛ فقد وجدنا على السفينة سندويشات ، وكانت هذه السندويشات قد أعدّت في سانتاكلارا ونقلت معنا بطريق البر ثم بطريق البحر باتجاه الجزيرة الخالية ، ثم في اللحظة الأخيرة ، تُركت في جوف القارب . قد يقال لماذا ؟ ولكن من يعرف كوبي اليوم ، ولو معرفة سطحية ، يميل الى الجواب : بل لماذا أُخذت السندويشات ؟ غير ان أدهش ما أدهشني طوال

رحلتنا الروبنسونية هذه ، هو أن السفينة ظلت طوال الوقت راسية تحت نظرنا . كانوا يرونها ، ولم يكونوا يرون السندويشات ولو كانوا وحدهم لما تكلفوا تهيئة نزهة ولا الاهتمام بشهيتهم .

●

ومن بين جميع ساهري الليل هؤلاء ، كان كاسترو أشدهم سهراً . ومن جميع هؤلاء الصائمين ، كان كاسترو أقدرهم على الطعام ، وأقدرهم على الصوم .

وسوف أتحدث عن جنونه ، الذي هو حظ كوبا . ولكن ، على أية حال ، نرى المتمردين مجمعين : انهم لا يستطيعون أن يعطوا أنفسهم صلاحية مطالبة الشعب بالجهد الا اذا مارسوا على حاجاتهم الشخصية دكتاتورية حقيقية . فهم اذ يعملون أربعاً وعشرين ساعة متتالية ، بل اكثر من ذلك حين يجمعون الليالي البيضاء ويبدون قادرين على أن ينسوا الجوع ، فانهم يبعدون ، بالنسبة للقادة ، حدود الممكن . وهذا النصر الموقت ، وهذه الصورة البارزة للثورة العاملة دائماً ، يشجعان عمال الجزيرة على ان يصفّوا نهائياً القدرية ، وأن ينتصروا كل يوم على جحيم المستحيل القديم .

أود ان اقول ان القادة يفعلون المستحيل . يفعلونه كل يوم ، ويعرفون انهم لن يفعلوه لمدة طويلة ؛ فان المستحيل المقهور ينتقم من قاهره بتقصير حياته ، ولكن هل هم راغبون رغبة كبيرة في أن يموتوا شيوخاً ؟

ان المتمرد الذي يأخذ تقاعده يشكل في نظرهم شيئاً لا يروق ؛ فالثورة ليست شرفية .

ثم انهم ، بعد مضي أربع سنوات ، قد قاموا باختيار جذري ؛ ان من الممكن قتلهم ، ولكن ليس من الممكن اخضاعهم . وهكذا فان حياتهم الجديدة قد ولدت من هذا الموت المقهور . وقد كان ذلك تدريباً وتمريناً ؛ كان معمودية النار . لقد قُلب باتيستا الآن ، وباقي حصوم كوبا مترددون . فان أوان القتال قد فات ، او انه لم يأت بعد . ولكن حضور الموت موجود فيهم ؛ ان وجودهم قد سبق أن أعطي ، وهو لم يؤخذ بعد ، ولكنهم يستمرون في اعطائه ؛ والجنون في العمل هو بمثابة الاتلاف ؛ ان حياتهم تحترق ، وستفني نفسها بسرعة من أجل عمل سيبقى وقتاً طويلاً .

ما هو المطلوب ؟ خمسة أعوام ؟ عشرة أعوام ؟ انهم لا يدرون من ذلك شيئاً . فالجزيرة هي التي تبتّ في الأمر . انهم لن يذهبوا ما لم يتم الألتحام ؛ وما لم تُهدم الامية ، وتشكل الملاكات للصناعة الجديدة . وبعد ذلك ، ما عساهم يفعلون ؟ ان المعلومات المتنوعة والناقصة دائماً التي يملكها الرجل — الجوقة ، لن تستطيع في المرحلة الثانية ، الا أن تزعج التكنيكيين والعلماء الذين يكونون قد كوّنوهم . وبالاختصار فان القادة الشباب يهدفون الى تحقيق المرحلة الحالية من الثورة وأن يقودوها الى شاطىء اللحظة التالية ، وأن يلغوها بالغائهم لأنفسهم ذاتها .

انهم يعرفون قوتهم . والمرحلة التي تبدأ في العام واحد يعرفون انها لهم . وفي العام ١٠ سيكون كل شيء أفضل أيضاً . وهم سيقبلون ألا يعيشوا يوماً واحداً من عام ١٩٧٠ اذا وُعدوا انهم لن يخسروا ساعة واحدة من عام ١٩٦٠ .

وهذا ينسجم تماماً مع التطلب النبيل الذي يقوم في دقة أخلاقهم . فمنذ طفولتهم احتقروا العفو المزيّف ، والمجاملات التي كانت العاصمة تبيعها للأجانب ، وأكثر من ذلك ، المباهج المريبة التي كانت تُسلّي الكوبيين ــ أغنياءهم وفقراءهم عن مصيبتهم . لقد كانوا ، حين يرون السواح يعاملون الجزيرة ، كفتاة فقدت عزتها ، كفتاة سهلة ، يشعرون بالخجل والعار ، وشعور العار ، كما أشار الى ذلك ماركس ، هو شعور ثوري . وهذا يكفي لرسم الخطوط الكبرى لنظامهم الاخلاقي . ان هذا النظام سيسلك طريقاً معاكساً للطريق الذي كان قائماً حتى الآن .

لقد رأيت بيت فرانكي ، مدير أوسع الجرائد انتشاراً ، ورأيت في الجانب الآخر من الطريق بيت اولتوسكي وزير المواصلات : بيتان على شاطيء الماء ، لذيذان ، ولكنهما اقتصاديان ، وسط مساكن أخرى يسكنها بورجوازيون صغـــار .

وفي هافانا أحياء اخرى تواجه البحر ، تقوم فيها فيلايات باذخة . وقد صودر بعضها ، وبينها قصر حقيقي كان أحد موظفي باتيستا الكبار الاغنياء قد شيّده لعشيقته ؛ ولكن لم

يكن جيمينيز هو الذي يسكنه ولا غيفارا ، حتى ولا كاسترو ؛ وانما أعطيَ للأدباء والمثقفين ليستقبلوا فيه الأجانب بانتظار أن يصبح مركزاً لاتحادهم .

وللوزارات سيارات ، ولكن ، ليس للوزراء . فان الدولة المالكة تخصص السيارات للمراكز وتجهل الأشخاص . ثم انه لا المكاتب ولا الأشخاص يحبون انفاق الوقود بـــلا جدوى ولا يحبون أتعاب الفرامل والعجلات بلا سبب واضح . ان كوبا لا تصنع سيارات . ولن تصنع السيارات لفترة طويلة ؛ ووضع البلاد لن يسمح لها ــ الا في حالة الضرورة العاجلة ــ ان تستورد سيارات ؛ ان المسؤول يشعر تحت قدميه وفي ظهره ، وفي ضجة المحرّك ، التحول الذي لا بد منه ، والذي يجعل من الهيكل حديداً ملتوياً ، مع الزمن . وان اولتوسكي ، يفضل أن يتنقل على قدميه حين يستطيع .

انهم يضحّون بوقتهم كله خدمة للأمة . ولكنهم يرفضون أن يبذروا مالها . وحين يذهبون الى الخارج ، يستقلون الطائرة ليوفروا الوقت الوطني ، ولكنهم يهتمون بالسفر في الدرجة السياحة ليقتصدوا الدراهم الوطنية .

ثم ان هذا التواضع يناسب أعمارهم ؛ فماذا عساهم يفعلون في الدرجة الأولى (اللوكس) ؟ ان شركة الكوبانا تنقل أحياناً ، وسط النساء والأولاد والرجال النائمين ، شاباً هزيلاً جالساً على مقعده وعيناه مفتوحتان ؛ لقد كان هذا الشاب في الماضي باحثاً عن الثروة ، أما الآن ، فهو

قائد يتنقل .

وقد حدث أخيراً ، في مكان ما فوق أوروبا ، ان أجفلت روح مسنّة ، وعرفت شيخوختها ، أدركت ان عهداً كان ينقضي ؛ انه دبلوماسي شريف كان قد ارتضى معايشة جميع العهود ما عدا دكتاتورية باتيستا ؛ والسفراء هم أشخاص مسنّون ، وقد أدخل العهد الجديد سعادته ؛ وكان سعادته ذاهباً لتسلم وظيفته الجديدة .

وفي احدى المحطات ، الفى الدبلوماسي نفسه بالقرب من شاب رديء الثياب الذي يمسك في يده خارطة ابحار . فتبادلا بسمة . وصعدا الى الطائرة . وامحى الشاب أمام العجوز الذي عاد الى مقعده في الدرجة اللوكس ، كجميع أصحاب اللياقات ؛ فشرف أمة في الخارج يُقاس بما يعطى سفراؤها من لياقات .

وقال السفير ، وقد التفت الى رفيقه :

ـ ان الى جانبي مقعداً .

فبدرت من الشاب حركة اعتذار ، وقال :

ـ انني أسافر بالدرجة السياحية .

وعاد الى مكانه بين مهاجري السماء . وفي المحطة التالية : لم يُعثر على السفير :

ـ ماذا تريد ؟ لقد كنت وزيره ؛ وقد خجل منّي .

وحين روى لي صديقي الكوبي هـــذه القصة ، لم يكن بالتأكيد يريد الاستهزاء بالدبلوماسي . فهو يجد شيئاً مشروعاً

أن لا تبخل الأمة وتقتر حين تبعث من يمثلها في الخارج. فيجب أن يمنح السفير كل شيء ؛ شيخوخة خضراء ، ومقعداً مريحاً في الدرجة الأولى ، وعند الوصول ، باقة زهور اذا كان ذلك ممكناً. أما الوزير ، فانه ليس ممثلاً. وانما يعتبر نفسه عاملاً من عمّال العهد الجديد ، واحداً من مئة الف عامل يعطون للسفراء أمة كوبية يمثلونها في الخارج.

الفصل الثالث عشر

متمرّدون الى الأبد ...

حين تنفجر ثورة ما ، في جميع أنحاء العالم ، فان الحكومة القائمة تطلق صفة « العصاة » على الثائرين : فهذا يعني أنهم ينتصبون باسم رغبات منحطّة ضد السلطة الشرعية ، وأن عليهم أن يستسلموا ويخضعوا أو يموتوا .

واذا حدث ان انتصرت الثورة ، فان الحكومة تطير او تُركم في السجون ؛ ويستولي قادة المنتصرين على الحكم ويمارسونه ، ويطلقون على أنفسهم صفة المحرّرين ، الثوريين ، أو ما يشابه ، ليُفهموا الشعب أنهم قضوا على الاحتلال القديم ، وانهم سيبنون نظاماً جديداً . وتختفي كلمة « العصيان » لفترة من الزمن من القاموس ، وسوف تظهر من جديد لتصف الثورة القادمة . وهذا كله أمورٌ بديهية ، ويتم تطبيق

الكلمات على الوضع بصورة آلية .

الا في كوبا . فقد كانت كلمة « عصاة » تقرأ في صحف الديكتاتورية ونحن نقرأها الآن في الصحافة الثورية ؛ والمقصود واحد في الحالتين : انه كاسترو ومحاربو العصابات في الجبل .

وقد كنت أتحدث ذات يوم في سيارة مع السائق ، وهو شاب عسكري ، فارتكبت خطأ سؤاله عن « الجنود » . وكان قد أجاب بجذل وحيوية على جميع الأسئلة السابقة ؛ أما هذا السؤال فقد أربكه ، فنظر إليّ في شيء من الحذر ، كما لو اني قد حدثته بلغة يجهلها ، وانتهى به الأمر الى إلقاء نظرة الى جاره فرانكي ، مدير جريدة « ريفولوسيون » داعياً اياه الى نجدته . وقال فرانكي :

ـ انه يقصد « الجنود العصاة » .

ولم يكن الشاب بحاجة الى اكثر من ذلك لاسترداد ثقته وهدوء مزاجه . وأضاف فرنكي وهو يلتفت إليّ :

ـ ان كلمة « جندي » لم تعد تعني عندنا شيئاً . فهي الكلمة الوحيدة التي ما تزال غير محددة . او انها تعني : احد مرتزقي باتيستا . وعلى هذا الشكل أيضاً . تعني كلمة « الجيش » اذا لم توصف بصفة أخرى ، المؤسسة العسكرية للعهد السابق . فاذا كانت تتحدث عن جيشنا ، فيجب أن تقول « الجيش المتمرد » . وكلمة « متمرد » تكفي لوصف الرجال الذين يؤلفونه أو تكفي أن تنطق كلمة واحدة ، بدفقة واحدة ، بنفس واحد : « جندي متمرد » .

لماذا ؟ أولاً لسبب اساسي وعملي : هو ان فرق كاسترو قد صُنعت في حرب مدنية ، أي ، في حرب كان المدنيون يشنونها على العسكريين ؛ ولم يكن هدفهم المعلن أن ينتصروا فقط ، بل أن يبددوا الجيش النظامي ، وهذا ما فعلوه .

وفي الوقت نفسه ، فان هؤلاء المدنيين ، المنتصرين على المرتزقة ، حوّلهم نصرهم الى جنود ، والمعروف ان الجيوش الشعبية ، حين تنتصر ، تجد نفسها أمام أحد امرين : اما ان تتحول الى مؤسسة عسكرية ، او أن تلغي نفسها . ولكن ، في اللحظة التي يختار فيها النظام الجديد طريقه . يكتشف — وهذه هي المصيبة التي هي القاعدة ، ان أقوى أعدائه ، هم في الخارج . وسيكون من الجنون رمي السلاح حين تكون البلاد مهددة بالغزو . ويبقى الجيش الشعبي ، ولكن من غير نظام له . فهو جهاز شبه رسمي ، يبقى على الحياة بسبب متطلبات الدفاع القومي وحدها .

أما في كوبا ، فليس هناك من يقبل هذا التساؤل المخزي ازاء الجهاز العسكري ، لأن هذا الجهاز قد أنشيء ليبلغ هدفاً فريداً حدده كاسترو تحديداً ممتازاً : وهو تقويض الجيش النظامي تقويضاً تاماً . على أن يختفي سريعاً بعد ذلك .

وما دام الجنود ، من حيث اتوا ، ليس لهم من مهمة أخرى الا أن يبقوا الشعب في العبودية ، فان الجزيرة لن تعيل بعد جنوداً على الاطلاق . والواقع أن مهمة رفاق كاسترو الرئيسية هي أن يعجّلوا اللحظة التي يستطيع فيها

هذا الجيش المدني ، الذي جعل عسكرياً ، لينتصب ضد الجيش العسكري وليقهره ، أن يعمد الى تصفية نفسه .

وبدافع منهم ، فان الشعب كله ينظم نفسه في فرق ميليشيا ؛ ولم تكن قد تكونت بعد فرقة واحدة حتى تشرين الأول . أما اليوم ، فان الفلاحين وسكان المدن يتعلمون على استعمال الأسلحة ، وقد أصبحوا مئة الف ميليشي ، بينما لم يكن مقاتلو الحرب المدنية اكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف .

وحين يصبح الشعب كله القوة المسلحة ، فان الجيش المتمرد يكون قد عاش .

وستبقى بعد عدة خدمات تكنيكية لتنظيم حرب شعبية عند اللزوم .

وبينما يستعد الشعب ويتسلّح للحرب ، يتعلم جنود كاسترو أعمال السلام . فهم يتابعون متابعة كليّة التبادل الذي كان يحدث حاراً في الصراع ضد باتيستا . فاذا بالفرق تنسحب من المدن ، وتتوزع في وحدات صغيرة تحرث الأرض الى جانب الفلاحين .

وبالاختصار ، فان هذا الجيش يهدم جيشه ويتمركز : يتمركز بأن يهدم نفسه ، ويهدم نفسه بأن يتمركز . فالقضية قضية سير معقّد لا يتراجع : لقد أنتجت الأمة جهازاً دفاعياً ، فهي تسترده وتذوبه في نفسها . وما دام هذا الجهاز قد خُلِق فقط ضد المؤسسة العسكرية ، فعليه أن يُعلن ماهيته : جيش

معاكس .

كل هذا ، كان لا بد أن يظهر في الأوامر ، وفي الشعارات . ومن أجل هذا يُسمى أبطال هذه الحرب أنفسهم متمردين وعصاة ؛ ومن أجل هذا يطيلون لحاهم وشعورهم .

ومن أجل هذا أيضاً كانت أعلى رتبة هي رتبة المقدّم . ومن أجل هذا كان على رأس الجيش المعاكس زنجيّ (وهذا الزنجي يرئس القيادة لأنه وحده القادر على أن يفعل ما يفعل : ولكن قبل عام ١٩٥٧ لم يتح له أي حظ في أن يظهر امكانياته) .

وقد كانت اللحي نتيجة أمنية وعهد : هي أن لا يحلق العصاة ذقونهم قبل نهاية الحرب . ولقد صدّقت ذلك : ولكن الحرب انتهت على كل حال ، واللحى تنبت ، والشعر يبقى طويلاً . ثم اذا كان هذا قسماً ، فانهم قد فعلوا أسهل ما يمكن القيام به ؛ فأي ارتباك كانوا سيقعون فيه لو أقسموا أن يحلقوا ذقونهم كل يوم ، بينما هم دائماً في حالة نفير يرهقهم السير وتطاردهم الطائرات !

كان الشعر الطويل واللحية ينموان آنذاك في الاضطراب وفي اليأس بسبب انعدام الوقت : فكانا يشهدان بفوضى الشعر على أن قطاع الطرق هؤلاء يثورون على النظام ، والواقع أن معظم الجيو ش النظامية تأمر رجالها أن يحلقوا ذقونهم في أوقات متقاربة منتظمة : فليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه القوات نفسها غير قادرة على ربح حرب شعبية . أما في الجبل ، فان الشعر قد قهر الذقون الناعمة

فوضع الفن العسكري موضع السخرية .

وقال لي رفيق من رفاق فيديل : «كان جنود باتيستا يجدوننا من قلة اللياقة ، ومخالفة الآداب ، بحيث انهم يذعرون . فاللحية في نظرهم هي الكمين ، وهي قانون الغابة ، وهي الاستئصال . والواقع اننا كنا نعيد الأسرى من غير أن نلمس شعرة واحدة في رؤوسهم ؛ ولم يكن لنا حيلة في ذلك : فقد كنا من أكلة لحوم البشر ؛ وفي النهاية ، حين كانوا يرون لحية خلف أنبوب بندقية لامع كانوا يفرّون . »

وليس هذا بالتأكيد الا رمزاً . وكذلك كانت كلمة «عصيان التي أرادوا أن يحتفظوا بها ؛ فبوسعنا أن نتصور خلف اللغة والأوضاع تنظيماً للجيش . ولكن ذلك يؤدي الى ان نعزو للثورة الكوبية حذراً لا هدف له ولا دافع آخر له إلا الرغبة في الحذر ، وهذا ما يتميز به الفرنسيون .

الواقع ان الفئة الحاكمة قد كشفت الأوراق على الطاولة وقالت ورددت أن المؤسسة العسكرية كانت تحمي الامتيازات ضد البؤس . وان الواجب لم يكن فقط تقويضها ، بل أيضاً اتخاذ تدابير تكفل أن لا تتشكل من جديد .

ويجب الذهاب الى ابعد من هذا : فان عدة شروط وأوضاع تجعل الحرب مستحيلـــة في كوبا إلا ان تكون حرباً شعبية ، حرب عصابات . والواقع ان العلاقات بين الجزيرة وبين الولايات المتحدة ليست طيبة . وهذا اقل ما يقال عنها ، ونحن نراها كل يوم تزداد سوءاً : وان

الكوبيين ليتساءلون في غيظ وقلق : هل تقاطع الولايات المتحدة السفن الكوبية التي تبلغ الشاطىء الجنوبي ـ الشرقي من القارة ؟ وهل ستخفض كوتا السكر ؟ وهل ستنظّم ضرب الحصار على كوبا ؟

وهناك احتمال آخر ، فبعد ان تُرسل بواسطة المظلات اسلحة كافية لجنود باتيستا القدامى ، المنتشرين الآن عبر الجزيرة كلها ، هل تُعلن حرب مدنية مزيفة لتبرير تدخل مسلّح للأمم المتحدة ، اي للولايات المتحدة الاميركية . ؟

ان الكوبيين ليقولون طبعاً ان الامر قد بلغ حد تبادل الضربات وهم لا يتمنون هذا الحد ابداً . ولكنهم يلاحظون ان الحرية الكوبية تغيظ بلد الحرية . حرب اعصاب ، إغاظات وتكديرات ، نغز ابر ، ثم احياناً حدث مفاجىء وكئيب يضيء البحر حتى الشاطىء ، من مثل انفجار سفينة « لاكوبر » . وهنا يقبض على الحقيقة « الفاجعة » : ان كوبا « عدو مميت » ، ثم تتبدد هذه الحقيقة ونعود فنجد ببساطة الحرب الباردة .

فلتكن الحرب الباردة . فانها بين انداد متساوين يبحثون عن التوازن نوع من تجميد الحرب .

ولكن حين ينصُب هذا التوتر الذي لا يُحتمل أمةً صغيرة فقيرة في وجه عملاق خانق ، فان عدم تكافؤ القوى ، يخلق وضعاً للعنف . ولنفترض لحظة ان الولايات المتحدة تخفف من عداوتها ، ولنقرّ انها لم يخطر ولن يخطر

في نيتها ان تلجأ يوماً الى القوة . ولكن يبقى انها « تستطيع » ان تلجأ اليها ، « وتستطيع » ان تحاصر كوبا : فهل تتصور الجزيرة السكرية وهي تُحاصر الشواطىء الاميركية ؟

اذا كان هناك مؤتمرون مغتاظون في واشنطن يصرحون بأنهم يرفضون « في جميع الاحوال » اللجوء الى التدخل المسلّح ، فان هذا التعهد الملتبس جدير بأن يُثير القلق . فلماذا تمتنع الولايات المتحدة ، في الواقع ، عن الهجوم المفاجيء ، وعن غزو الجزيرة ، لو لم يكن لها الامكانية الدائمة لذلك ، واحياناً الاغراء ؟

ان احداً لا يطلب من كاسترو ان يُقسِم بأنه لن يطلق فرقة في هجوم على البيت الابيض : فلماذا يفعل ذلك ؟ وما جدوى هذا ؟ فاننا بالاجمال نجد العقود السكرية التي تُلزم طرفاً واحداً فقط ، نجدها في كل مكان . وقد كان هذا الالزام من طرف واحد ، هو الذي يميّز العلاقة الأساسية للمتروبول بمستعمرته النصفية ، وهو الذي كان يخرب هذه المستعمرة لصالح ذلك المتروبول . ولكن منذ مطلع كانون الثاني من السنة واحد من عمر الثورة ، فان المستعمرة النصفية تقيم جهازاً اقتصادياً جديداً حرّرها من متروبولها بمقدار الثلاثة ارباع . غير ان إلزام الطرف الواحد ، يظل تهديداً وحشياً وثابتاً ؟ ذلك انه ينتج عن عدم تكافؤ القوى الذي لا يصدّق . وهذا الالزام ، يظهر

اليوم في عريه من خلف تقلبات الاقتصاد ، انه قانون القوة . فالأقوى يملك المبادرة . وله وحده ان يبت اذا كان سيظهر قوته حتى لا يستعملها او حتى يسلكها كلها في عملية كلما أنجزت بسرعة ، كانت الفضيحة التي تثيرها اخف واضعف ، ان حجة الأقوى هي دائماً الحجة الفضلى : فهو يفرض نظامه ويبقيه الوقت الكافي ، والاقوى يملك جميع الحقوق في عالمه ، سواء كانت القضية تخص العالم الجديد او العالم القديم . ولقد رأت الامم وهي منقطعة النفَس ، البرق الذي كان يصعق الغواتيمالا ، فلم يقل معظمها شيئا : ان القوات الاكثر وحشية هي قوات النظام . وقد رأى العالم ، من غير ان ينفعل ، كيف يدعو مونرو غواتيمالا الى التزام النظام .

ان كوبا تواجه في كل لحظة مصير هذه الجمهورية : العودة الى النظام . ويمكن لكل تقدم تحرزه ان يعود عليها بالخراب ، لأنها تؤكد فيه رغبتها التي لا مردّ لها بالاستقلال .

وهكذا يأتيها الخطر من احسن اعمالها ، وينمو مع تحسُّن هذه الاعمال ، وذلك سباق ضد الساعة ، ويمكن ان يكون لكوبا اسباب تحملها على الاعتقاد بأن وحدة الشعب المسلح ، اذا أضيفت الى التصنيع ، جديرة بأن تقضي على التهديد .

ولكن ما لم تجتز الثورة هذه العتبة ، فان كل خطوة

تقرّبها منها ، تقرّب لحظة الهجوم الاجنبي . وبالاختصار فان الثورة تمشي مكشوفة ، وبالنسبة للخائفين المذعورين الذين لا يجرؤون على العمل ، اصبح مصير غواتيمالا شيئاً بدهيا : ان هناك نظاماً للعالم الجديد يوضع في واشنطن ويفرض على القارة ، وعلى جزرها ، منذ الألاسكا الى « ارض النار » ، وهذا النظام لا يحتمل وقتاً طويلاً ما يحكم بأنه خروج على النظام من قبل جزيرة ، فذات يوم ستأتي قوات القارة المسلحة لتعيد الى العقل قطعة السكر ، هذه الصاخبة المحتجّة .

ولكن جميع هذه البديهيات المتصلة بالتعب والخوف تخلّف لدى الثورتين أثراً مختلفا تماما فتعيدهم الى التمرد والعصيان . ولو لم تكن الولايات المتحدة موجودة ، فربما كانت الثورة الكوبية تخترعها ، فهي التي تحفظ عليها نضارتها واصالتها .

ذلك ان الكوبيين ، في مختلف نواحي الجزيرة ، يجدون انفسهم الآن ، بوجه الولايات المتحدة ، في وضع مشابه لوضع المتمردين في سلسلة جبال ميسترا في عام ١٩٥٨ ، تجاه خمسين الف رجل من رجال باتيستا .

وآنذاك ايضا ، كان هناك نظام وقوات لحفظ هذا النظام : فكان آباؤهم يخضعون له ، وكان باقي الشعب المقتنعون بالدعاية بأن حجة الاقوى هي دائماً اقوى الحجج ، لا يزالون يتشبثون بشعارات الطغيان القديمة : « اذا لم

يكن هناك سكر ، فليست هناك جزيرة » .

لجميع هذه الاسباب كان رجال سلسلة ميسترا عصاة متمردين ، متمردين ضد الاساطير من غير ان يستطيعوا النظر اليها مواجهة . متمردين ضد الاحكام المسبقة التي كانوا يريدون تقويضها في كل مكان ويشعرون بأنهم طُبعوا بها . متمردين ضد نظام قائم كان يعتبر نفسه العقل بالذات والحقيقة بالذات ، وكان ينبغي لهم ان يهدموه في انفسهم ليكتسبوا القوة على قلبه بالسلاح . متمردين — وقد كانوا يشعرون بذلك في ساعات التعب — ضد عهد كانوا يجدونه متسللاً مقيماً لا يُقهر في خفايا جسمهم ، متمردين ضد افكار بليدة ، جعلها مربُّوهم عاداتٍ فيهم .

ولكن ما كان يمنحهم ، في هذه المعركة المشكوك فيها ، اضواء خاصة ، « نعمة فعّالة » : هو انهم كانوا قد زهدوا بالحياة مرة والى الابد .

ان كل شيء يتغير بالنسبة لأنسان يكون الموت هو اعمق اسراره واكثر حظوظه مباشرة : فان المشاريع المستحيلة تصبح ممكنات ، على قياسه وقدّه . ان النظام القائم ، يحتفظ ببدهياته للاشخاص الذين يريدون الحياة . ولكن حين يختار المرء العذاب والموت ، وحين يعبّر هذا الاختيار عن نفسه بتجنيد حقيقي للقوى الحية ، فان العودة الى النظام هي التي تصبح الاستحالة الجذرية ، فالبدهية تنطفيء ، وتحل محلها مناورات اخرى تكشف ضلال

الاقوى وعجزه .

« الحرية او الموت » تلك كانت صرخة الكوبيين في اثناء حرب الاستقلال الكوبية . وقد اخذها كاسترو اليوم وعدّلها قائلاً :

ـ الحرية ، سنحصل عليها ما دمنا محافظين على الوحدة الوطنيه . فيجب ان نقول : « الامة او الموت » .

ولا شك في ان هـذا العنف الذي لا يكبح ، وهذه الثقة الحزينة ، ولكن الكلية ، وهـذا الايمان بالانتصار على كل حال ، كل ذلك ، يستمدّ قوتـه ، قبل كل شيء ، من الغضب .

كان نظـام « اللاتيفوندیا » يثير رجال كاسترو ، لأنه كان ينتج رجالاً متخلفين ـ مفرطين في البؤس ، او مفرطين في الخضوع ـ وكان يبقيهم في انسانية متخلفة . فكانوا يحنقون آنذاك ويغضبون على جميع أنواع الحرمان التي كانت تنتظر كوبياً منذ ولادته ، باسم جميع الحظوظ ، التي كان يمكن توفيرها لهم ، وبالاختصار ، باسم ماكانوا يتمنون ان يعملوه لسكان الجزيرة .

واليوم ، وقد اصبحوا اسياداً بلا منازع ، فاننا نرى غضبهم المقدس القديم يتضاعف ، انهم يغضبون باسم ما فعله الكوبيون ، عامان من الصراع ، عشرون الف قتيل ، انواع مختلفة من التعذيب ، جهد لم يضعف لا في اشهر الحرب الاربعة والعشرين ولا في اشهر السلم السبعة عشر ،

ولكن جميع هذا العمل الذي شارك فيه الجميع ، شيئاً فشيئاً ، والذي كان هدفه انتزاع الجزيرة من بؤسها ، سيكون جهداً ضائعاً ، هو الجهد المضحك الذي تبذله ذبابة مرصودة لتسلق زجاج ، ولن تكون القصة الا قصة « بليدة يرويها ابله ، مليئة بالضجيج والجنون » ، اذا كان يكفي مزاج شرير لعملاق ثمل بعض الشيء ان يحطم الجزيرة بضربات من قبضته .

ان هؤلاء البنائين الشباب ، يشعرون شعوراً دائماً ، بأن ضعف عملهم ، المهدّد بلا انقطاع ، يرجع الى الادارة الشريرة لبعض الاميركيين ، ومن ثم ، الى التأثير الكبير الذي ما يزال يمارسه العملاق العابس على نمو العهد الجديد . وعلى هذا المستوى يحدث لهم ، بلا انقطاع ، ان يصطدموا في مشاريعهم ، بمقاومة اجنبية ما تزال مفرطة الفعالية ، وهي تصدر غالباً من الجماعات الخاصة لا عن واشنطن مباشرة . وتحدّ هذه المشروعات ، ويوضع العمل موضع الخطر : وهذا يكفي لألهاب روح التمرد وانمائها .

انه لا يكفي بعدُ تحقيقُ الاصلاحات بواسطة الشعب ومن اجل الشعب ، وانما يجب حمايتها والابقاء عليها ، بالرغم من مقاومة جارٍ قوي .

والسلبية والرفض والتمرد ضد النظام اللاانساني تستمد غذاءها من قلب العمل الايجابي ، وهي جذرية بمقدار ما يبذل الثوري من نفسه للبناء . وهذا ما يعبر عنه راوول

كاسترو ، على ما اعتقد ، تعبيراً جيداً ، حين يقول في احد خطبه :

« ان الحملات الموجهة الى كوبا ، هي « دينامو » ينتج قوة اكبر لصالح الثورة » .

ويقول كاسترو :

« ان العهد الجديد كان عهداً انسانياً » .

وهذا صحيح . ومع ذلك ، فيجب الاقرار بان كثيراً من الثورات قد استحقت ، في عهودها الاولى ، هـذا اللقب الجميل ، ثم فقدته تحت عبء مهماتها الساحقة . وان ما يحمي ثورة كوبا اليوم — وما قد يحميها مدة طويلة ايضاً — هو ان التمرد يشرف عليها ويراقبها .

الفصل الرابع عشر

هذا العملاق المضطجع في الغبار ...

ليس كاسترو رجلاً سهل الفهم . ولكي يستطيع المرء ، في معظم بلدان العالم ، ان يتفاهم مع وزير ، فعليه ان يتواضع ويحدد من حيويته كثيراً : ان السلطة تبسّط كثيراً من الاشياء . اما من اراد ان يفهم فيديل ، فاعتقد ان عليه ان يدفع لهيبه الخاص الى حد التطرف : وذلك لاضاءة الجديد كما يأتي ، من غير اللجوء الى تجارب قديمة .

وقد رأيته للمرة الاولى في « هولغوين » في ثوب مدرسي : كانت ثكنةٌ تُردُّ الى الشعب . وكان كاسترو يدشن هذا الثوب الجديد .

وقد وصلنا متأخرين جداً ، وكانت السيارة قد تبعت ، بعد ان غادرت المدينة ، سلسلة ضاجّة لا تُصدّق من

المركبات والمارة : سيارات خاصة ، تكسيات – كانت تروح وتجيء مجاناً – شاحنات محمّلة بالاولاد : وكان هؤلاء الاولاد المتحركون يبـــدون وكأنهم اسرى الذين لم يكونوا يتحركون .

وكان هناك عائلات في كل مكان . كان الرجال بلباس يوم الاحد ، يرتدون القميص الكوبي الخفيف الذي يتدلى على البنطلون الى منتصف الفخذين ، وكان الصغار والكبار يحتمون من الشمس بقبعات مستديرة من القش ذات اطراف مرفوعة ، يعتبرها المدنيون رمزاً للعمل في الحقول . وكان الجميع يضحكون سروراً ويثرثرون . كانوا ينتظرون شيئاً . ماذا ؟ ان يروا كاسترو طبعاً ، وان يلمسوه ربما ، كما تفعل النساء في اكثر الاحيان لكي يسرقن منه قليلاً من عظمته الوقحة ، قليلاً من سعادته .

وترجّلنا اخيراً ، ووضعنا سيارتنا البويك بين سيارة باكار وسيارة شيفروليه . وقال جندي متمرد :

– من هنا الطريق .

فرأيت ساحة مقاعد .

وعلى الدرجات ، عند قدمي ، كان الوف من الصبية : وفي الساحات تحت ، كان عشرات من الألوف . وفوق هذا البحر من الاولاد ، كانت عوّامة تبدو متروكة للريح : انها المنبر اذا شئنا : بضعة الواح خشبية مجمعة مدعومة باعمدة دقيقة كانت ما تزال حتى الامس جذوع اشجار صغيرة .

ولقد اراده كاسترو على هذا النحو ليتحدث عن كثب الى هذا الجمهور الفتي وكان درابزين من الخشب ، ذو كوى ، يتعهد بحماية هذا المنبر الذي كانت تصفقه الموجات البشرية بلا انقطاع .

وكان جندي طويل وقوي يتحدث الى هذه الامواج الصغيرة التي لا تُحصى ، وكنت اراه من ظهره : وكان هو .

« من هنا » . وشقّ لنا الجندي المتمرد ذو الثوب العسكري ممراً ، فهبطنا الدرج ، وعند الصف الاول ، اجتزنا جسراً ضيقاً فالفينا انفسنا وسط المتمردين . وكان كاسترو ينهي خطاباً . وكان قلقاً . ان عليه ان يُلقي خطابين آخرين قبل نهاية اليوم . وسيكون الاخير اهمهما ، فقد كان عليه ان يتحدث الى ممثلي النقابات العمّالية في هافانا وان يطلب منهم ان يضحّوا بقسم من رواتبهم لتُضاف الى الرساميل الاولى التي تعطي شارة الانطلاق للتصنيع . وقد كان يشعر ، من دقيقة الى اخرى ، بان صوته كان يبح . فعجّل الحركة . وبلغ النهاية في بضع دقائق . وكان كل شيء يبدو منتهياً ، وكان كل شيء يبدأ . ولأكثر من ربع ساعة ، كان هؤلاء الاولاد مقلوبي الوجه ، فاغري الفم ، يصرخون كالمجانين .

وكان كاسترو ينتظر ، وهو منزعج بعض الشيء : كان يعلم ان كوبا تحبّ الخطب الطويلة ، وانه اسهم في خلق هذا الميل لدى الجمهور ، وكان يشعر آنذاك انه

لم يقل ما فيه الكفاية .

وقد اراد ان يعوّض عن هذه الكلمات القصيرة بالبقاء مدة اطول .

وقد لاحظت آنذاك ان مستمعين اثنين ، لا تزيد سنهما عن الثامنة او العاشرة ، قد تعلقا بحذائيه ، الشقراء الصغيرة بحذائه الايسر والاسمر الصغير بالايمن . ورويداً رويداً ، قامت علاقة غريبة يين جمع الصغار وبين فيديل . وكانوا ينتظرون منه شيئاً اكثر : تخليد هذا الحضور بعمل ما .

ولكن العمل كان هناك ، كان هو الثكنة ، ذليلة تحت تيجان السلام . ولكن كان قد أعلن عنها منذ مدة طويلة بحيث انها فقدت جدتها . والحقيقة ان هؤلاء التلاميذ لم يكونوا يعرفون ما يريدون . ربما باستثناء عيد حقيقي يجمع في وحدة روعته الماضي الذي كان ينمحي والمستقبل الذي وُعدوا به . وكان فيديل الذي يشعر بذلك شعوراً عميقاً ، يظل شبه حائر ، هو الذي كان يضع نفسه كلها في اعماله الثورية ، في خدمة الامة كلها : كان يندهش بأن يتقلّص فيصبح هذا الحضور العاري شبه السلبي .

وفجأة اخذ العقرب الصغير الذي كان يتشبث بقدمه ، ورفعه من ابطيه عن الأرض ، فلاحظ الجميع آنذاك ان الصبي كان يصرخ بلا انقطاع .

وسأله كاسترو :

ـ ماذا تريد ؟

فصاح الصبي :

ـ تعال الى عندنا ، تعال الى القرية .

ـ وهل هناك شيء لا يسير جيداً في القرية ؟

وكان الصبي هزيلاً ، ذا عينين لامعتين مجوفتين ، وكان ظاهراً ان آلامه التي ورثها في العهد السابق سيكون علاجها اصعب من علاج آلام الامة . ولكنه قال باقتناع :

ـ كل شيء على ما يرام يا فيديل . ولكن تعال الى قريتنا !

وأنا اتصور انه تمنى هذا اللقاء مئة مرة ، حتى اذا تمّ له ، لم يكن يعرف ما يفعل به . ان يلمس ؟ نعم . ان يلمس الحذاء ، واليد ، وبعد ذلك ؟ لقد كان يتمنى ان « يفيد » من الرجل الذي كان يحمله بين يديه القويتين ، ان يطلب ، وان يحصل على ما يطلب . لا بدافع مصلحة ، بل ليعقد بين الصبي والرئيس علاقة حقيقية . ان هذا على كل حال هو الشعور الذي أحسست به ، حين رأيتهما وجهاً الى وجه ، الوجه الصغير ، الملتهب برغبة مجنونة ، ولكن فارغة ، المنحني فوق هذا الوجه العريض ، ذي الشفتين الكئيبتين بعض الشيء . لقد حسبت ، ان كاسترو ، كان هو ايضاً يعيش ، بوعي عميق ، هذه الدرامة الصغيرة .

وقد وعد ان يقصد القرية يوماً : ولم يكن وعداً عابثاً . فالى اي مكان تراه لم يكن يذهب ؟ ثم انزل الصبي .

وها هو الآن ينظر الى الجمع ، متردداً خشناً بعض الشيء . وتظاهر بأنه يتحرك للذهاب ، بعد ان طلب منه رفاقه ذلك بالحاح . وكان يبتعد قليلا عن الحاجز ، ولكنه لم يكن يذهب : كان يبدو خائفاً . وعاد الى مكانه الأول . وكان الصبي يرتجف ويبكي . فقال له فيديل :

— ولكني وعدتك بأن أجيء !

عبثاً . كان الاولاد قد عادوا الى الصراخ ، وكانوا يتزاحمون بقوه عنـــد المنبر حتى كادوا ان يحملوه ، وحتى ان الجنود المتمردين — وكان عددهم مئة يحملون المعاول والبنادق ، رجالاً ونساء — لم يستطيعوا ، وقد دُعوا الى العرض امام كاسترو ، ان يشقّوا لهم طريقاً .

وكان كاسترو ما يزال متبرماً فوق الحماسة المنطلقة . واخيراً ، تناول قبعة القش التي كان يمدها له احد الاطفال ووضعها على رأسه ، من غير ان يبتسم .

انني اسرد هذه الواقعة ، لأنها نادرة : فان كاسترو يحتقر الاستعراضات الديماغوجية والتنكرات . وقـــد فعل رمز عمل لأنـــه لم يكن ثمة عمل يُعمل . وقد رُفعت قبعة القش بعد ذلك بسرعة . ورئيت ، لمدة لحظة ، على رأس غيفارا ، ولا ادري كيف سقطت بعد ذلك على رأسي ، وقد احتفظت بها وسط عدم الاكتراث العام ، لأني لم أجرؤ على نزعها . وبعد ذلك فجأة ، وقع الانهزام . بلا سبب واضح ، فقد لاذ كاسترو بالفرار ، وخلفه لاذ

القادة المتمردون بالفرار ايضاً وهم يتجاوزون الدرجات .

وحضرنا في يوم السبت الاول من المرافع استعراضات ورقصات الكومبرسال . وتنزهنا وسط حفلات الرقص الشعبية .

وقد اويت الى سريري في الساعة الخامسة صباحاً . وبعد ذلك بساعتين ، انتزعني صوت فرانكي من النوم ، ليبلغني ان فيديل كاسترو سيمر ليأخذنا في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين .

وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين اخبرتني مخابرة تلفونية ان الدكتور كاسترو كان ينتظرني في الباحة . ولم اكن مستعداً . فلم اصل الى نهاية السلم الا بعد عشر دقائق من التأخر .

ولم يكن كاسترو في الباحة ، كما لو ان العاج وأنوار الثريات قد اوقفته على العتبة . فقد كان في الخارج ، واضعاً قدمه على آخر درجات السلم . والى يمينه رأيت امرأة فتيّة ترتدي اللباس العسكري . انها سيليا ، سكرتيرته . وكانت قد قادتهم حتى الجبل ، بعد نزولهم من البحر ، وظلّت هناك معهم ، وشاركت في القتال ، وهي متمردة شهيرة .

وهرعت اليه لأعتذر . فحيّاني ولكنه ظل جافاً ، وكان غياب المترجم يغيظه اكثر من تأخرنا : فلم يكن « اركوشا » قد أُخبر في الوقت المناسب ، فكانوا يبحثون عنه . وانتظرناه . وكنت انظر بضيق الى هذا العملاق المقطّب الذي لم يكن ينظر اليّ . وكان يلبس الثوب

العسكري المتمرّد في بساطته : قميص وبنطلون كاكي . وتحت الركبة ، حذاء طويل اسود . وكان كل شيء يبدو نظيفاً ، ولكنه كاد يكون متهرئاً من فرط الاستعمال . وكان عاري الرأس ، وكنت أرى فوضى شعره الكستنائي ، اما اللحية والشارب فأقل غزارة ، وهما لا يكادان يغيّرانه . ويظن من يراهما انهما مزروعان بالاتفاق ولغاية واحدة : هي اعطاء الثورة رمزاً .

وقد رأيت صورة لكاسترو يبدو فيها فتياً وبلا لحية ، فرأيت الرجل نفسه . وكان يميّزه في نظري من بين الجميع ، وجهه الجانبي المائل ، وهذا الانف الطويل ، الذي ينسحت الى خلف تحت جبينه المتقدّم ، وهذان الخدان العريضان المسطّحان ، وهاتان الشفتان الغليظتان الحمراوان ، المغموزتان دائماً بداعي التفكير ، والغيظ ، والمرارة ، واللتان تنبسطان احياناً ببسمة . لقد رأيتهما فاجعتين او غاضبتين ، ولكنني لم أرهما حسيتين الا حين تنغلقان كالقبضة حول سيكار طويل مطفأ بالاجمال .

وذهبنا تاركين لأكروشا موعداً . ان كل شيء خير من هذا التوتر البليد . واستمر الحديث بطيئاً ونادراً ، باللغة الانكليزية .

وحاذينا البحر ، على رقع عريضة من الرمل الاصفر . وقبل عام ١٩٥٠ ، كانت الشواطىء ، تُشترى برمتها مع المقصورات الشاطئية ، فلم يكن يسمح لأي فقير ان

يضع قدمه على الرمل الكوبي . اما بعد التحرير ، فقد اصبحت الشواطىء ملك الدولة .

وقال كاسترو باختصار ، وهو لا يزال مستاء : انه كان ينوي ان يُرينا بعض هذه الشواطىء ، وعلى الاخص فارادیرو ، اشهر هذه الشواطىء ، وهو يبعد مئة كيلومتر عن هافانا .

وحدث سوء تفاهم جديد : لقد قلت في نفسي : ما يعنيني من هذه الشواطىء ؟ انني انتظر شيئاً آخر من كاسترو .

والواقع انه كان يقوم بدورة تفتيشية . وكان عليّ ان اعرب عن ذلك .

كانت سياحة الاجانب ، قبل عام ١٩٥٧ — ولا سيما في الشتاء — احدى اهم ثروات الجزيرة ، ولكنها ماتت مع الحرب . وخسرت كوبا ملايين الدولارات . وقد بذلت حكومة الثورة جهوداً كبيرة لانعاشها ، ولكن ذلك بقي بلا جدوى ، حتى الآن . حتى انها لاتستطيع ان تستغني عن زوّارها في الشتاء والربيع .

وبانتظار ذلك ، هي تسعى ، للتعويض عن خسائرها ، بخلق السياحة الداخلية . وتحرص قبل كل شيء ، على تنمية السياحة الشعبية . وهذه البهجة التي لا يعرفها العمال الفقراء ، يجب ان تكون في الوقت نفسه ، توسيعاً مفيداً للسوق الداخلية . ولكن يبقى كل شيء للعمل : فان اقناع الشعب بأن يسوح في الجزيرة ، كما يفعل قادته ، يقتضي حملة برمتها .

هذا اذن ما كنت اجهله . فمهما فعل كاسترو ، رئيس

الحكومة الكوبية ، فانـــه لايفعل الا لعدة دوافع مختلفة . ولما كان قد دعاني للقيـــام بنزهة في الجزيرة ، فانه اراد ان ينتهز الفرصة ليفتش الاعمال الجارية . ويمكننا القول ايضاً : بما انه قرر ان يزور المنشآت السياحية ، فقد انتهز الفرصة ليدعوني من اجل رؤية كوبا ، تحت اجمل مظاهرها .

ولم نكن قد سرنا عشرة كيلومترات حتى فهمت الاهمية التي كان يعلقها على هذا الامر ، مثلما كان يعلق على جميع الامور .

وتوقفت السيارة . فهبطنا الى الرمل ، وسط المنشآت الجديدة : ابنية عالية من الباطون المسلح على شكل نبات القطر يمكن ان تستعمل كمظلات وكبينات وحوانيت .

شاطىء شعبي : مفتوح وخال عـــلى مدى النظر . ولم نلتق فيه احداً ، باستثناء الموظفين الذين كانوا ثلاثة : امرأتين ورجلا . كانت احداهما مهتمة بالكبينات ، والاخرى واقفة على صندوق حانوت لبيع المأكولات . اما الرجل ، فقد كان يبدو مراقباً . وقد اكّدوا لنا جميعاً ، بكل ما في الايمان من قوة ، بانهم كانوا ينتظرون عمالاً يجيئون في اليوم نفسه .

ـ كثير من العمال ؟

ـ بعضهم .

فاظلم وجه كاسترو قليلاً ، واراد ان يرى كل شيء ، حتى المناشف : كان يُرينا ، ولكن تلك كانت طريقته في ان ينظر . واخيراً قدّم لنا مشروب الليمون .

وما كاد يبلل شفتيه بقدحه ، حتى وضعه وقال بصوت قوي :

ـ انه فاتر .

وظل صامتاً مفتر الفم . كان مقطباً لو انه كان يمسك غضبه . وفهمت فجأة ماكان يفكر به : « كيف يروق لهم ان يأتوا ، اذا لم تكونوا تؤمنون لهم بعض الرفاهية ؟ . »

غير ان المرأتين لم يبد عليهما القلق ، كانتا تريان استياءه ، وتحتفظان بهدوئهما كما لو انهما تشعران بانه لم يكن يتوجه اليهما .

وسأل كاسترو :

ـ اليست هناك برادات ؟

فقالت الموظفة :

ـ بلى ، ولكنها معطلة .

ـ وهل اخبرت المسؤول عن ذلك ؟

ـ طبعاً ، في الاسبوع الماضي . (واضافت بألفة :) والقضية كما تعلم لا تحتاج الى شيء كثير . فتكفي ساعتان للعامل الكهربائي .

ـ ولم يتكلف احد اصلاح العطل ؟

فهزت كتفيها وقالت :

ـ انت تعرف ما هذا .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي فهمت فيها ما كنت اسميه ، من قبل ، الديمقراطية المباشرة .

لقد قامت بين العاملة وكاسترو مشاركة فورية ، فقد كشفت بلهجتها وابتساماتها وبهزة كتفيها ، انها غير مخدوعة ، وان رئيس الوزارة ــ الذي كان ايضاً قائد التمرد ــ كان يدعوها بهدوء ، اذ يعبّر عن افكاره بلا مواربة ، الى التمرد .

وفكّرت للمرة الاولى « اله مهيّج » .

وقال :

ــ اريني هذا .

فارته البراد . وكان ثمة في رأيهـــا احتكاك سيء . وهذا سبب كل شيء . وفحص الاجهزة بعناية ، حتى اوشك ان يفككها . وحين التفت اخيراً الى المرأة الشابة ، كلّمها بقسوة ، ولكن كان واضحاً للجميع ان هذه القسوة لم تكن موجهة اليها بالذات .

ــ ان اهمالاً كهذا ليس بذي بال ، فمن الممكن ان يحدث ، لجميع الناس ان يشربوا شراباً فاتراً او حتى ان يكونوا عطشى . ولكن هذا الاهمال يكشف عن نقص في الوعي الثوري . فاذا لم نصنع في كل شاطيء كل شيء للشعب ، فان الشعب سيعرف اننا لانتمنى بما فيه الكفاية ، ان يأتي ، ولن يأتي . واقول ان احدنا ، اذا لم يفعل ، طوال الوقت ، كل ما يستطيعه ــ بل اكثر ــ فهـــذا يعادل تماماً كما لو انه لم يكن يفعل شيئاً على الاطلاق .

وانهى كلامه بهذه العبارة المدمدمة التي سجّلتها :

ــ قولي للمسؤولين بانهم ان لم يهتموا بمشاكلهم ،

فستكون لهم مشاكل معي .

وكنت قد ادركت منذ وقت طويل ، بصدد الاصلاح الزراعي ، قوة هذه الفكرة التجميعية الشمولية : لقد كان كاسترو في رأيي ، رجل الكل ، رجل النظرات الشاملة . وقد كان حسبي ان اراه على الشاطىء الخالي ينقب بهوس في براد معطل ، حتى ادرك انه كان ايضاً رجل التفاصيل الصغيرة ، اوانه كان بالاحرى ، يصل في كل مناسبة التفصيل والكل وصلاً لا ينفصم .

وكانت سيارة اخرى قد توقفت خلف سيارتنا . لقد لحق بنا اخيراً المترجم والصحافي .

ولكن لم يكن استبدال الانكليزية بالاسبانية هو الذي اعاد لكاسترو مزاجه اللطيف ، وانما كان السبب انه التقى ببعض الفلاحين .

كنا نسير على طريق معترضة . فرأينـــا الى اليسار ، على بعض الارتفاع ، حاجزاً من الرجال لابسي القميص الكوبي ، ينظرون الينا تحت قبعاتهم القشيّة . وكان منعطفاً رديئاً ، عـــلى طريق صاعدة بقسوة : وابطأت السيارة ، وفجأة قفز احد الرجال على ظهر السيارة . وسرعان ما اسرها الفلاحون .

وفُتحت جميع ابواب السيارة : واطلت قبعات القش والرؤوس السمراء فوق كاسترو . وجرى حديث طويل : كانت التعاونية ترجو فيديل ان يزورها . وكان فيديل

يود ان يتابع رحلته . وشرحوا له اخيراً ان التعاونية تعتز بانها قد سبقت الزمن المحدد لها : وهي لم تتلق بعد تصميم المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ، ومنذ اكثر من عام ، بدأت تبني ، بمساعدة عمال المدينة ، كل يوم احد ، قريتها التي ستنتهي بعد شهر .

— تعال يا فيديل ، تعال انظر الى الاشغال .

وفجأة رأيت كاسترو واقفاً خارج السيارة . وكان حاجباه مقطبين وكان يبدو حذراً اكثر منه معجبا . واجتاز الطريق بخطى واسعة ، ودفع الحاجز ، ودخلنا جميعاً في اعقابه ، وكان الفلاحون ذوو القامات الطويلة الدقيقة ، يحيطون بي ، فغاب عن رؤيتي . وفجأة سمعته يصرخ بصوت موبخ آسف :

— اين هي القرية ، اين هي القرية ؟

فابتعد الفلاحون مندهشين . وكان الجميع ينظرون اليه ، ولم تكن له عينان الا لينظر بهما الى البيوت الهزيلة من الاسمنت المسلّح ، الرمادية تحت بريق الحديد المصفّح المتموج المنثور على طول درب مغبر . والتفت كاسترو اليهم ، وكان يبدو آسفاً فقال وهو يشير الى البيوت الرمادية :

— انظروا اليها . انظروا اليها . انكم انتم الذين ستسكنونها ايها الاشقياء .

فقال شاب ، يبدو انه قد جُرح :

— اذن ، فقد اخطأنا بان نبدأ مسبقاً ؟ انك انت

الذي طلبت الينا ان نكسب الوقت . وقد ...

قال كاسترو :

ـ انكم لم تخطئوا .

وتردد ثم قال :

ـ اعطوني عصا .

فاتوه بغصن شجرة ، وحاول ان يرسم تصميماً في الغبار ، ثم رمى الغصن :

ـ اعطوني ورقة وفحماً :

فهرعوا يحملون له ورقاً مقوى وقطعة فحم . فقال :

ـ حسناً ! هكذا .

وارتمى على الارض ، على بطنه ، وكان مستنداً الى مرفقه الايسر يتكلم ، وبيده اليمنى ، يرسم على الورق المقوى خطوطاً فحمية كثيفة . وانحنيت مع الآخرين ، وفهمت ، انه لم يكن يرسم تصميم المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ، فان التعاونية كانت قـد ابتعدت عنه ابتعاداً شديداً ، حتى ان العودة اليه كانت تقوض ما فعلته تقويضاً . كان فيديل يحاول ، بتلك الحماسة التي عهدتها فيه ، في كل الحالات ، ان يطبّق التصميم على الظرف الحالي ، وان يعطيهم نموذجاً قابلا للسكنى واقرب ما يكون الى النموذج الفوضوي الذي رفعوه . اخيراً رفع رأسه وبسط لهم التصميم :

ـ هل فهمتم ؟

ونظرت اليهم في فضول ، وانـــا اتساءل : كيف سيقبلون هذا العمل الاضافي ؟ وكانت عيونهم تلتمع . فقلت في نفسي : انهم فهموا اسرع وافضل مني . وكان كاسترو قد اوضح لهم معنى البناء الدائري ، ثم بدلاً من ان يردهم الى تصميم المعهد الوطني للاصلاح الزراعي ، اخترع حلاً وسطاً يصلح لهذه القرية وحدها ويأخذ بعين الاعتبار الجهود المبذولة سابقـــاً . صحيح انهم اضاعوا بعض الوقت ، ولكنهم بالمقابل ، كانوا يشعرون انهم موضوع مساعدة خاصة .

وبكلمة واحدة ، كانوا يحسون ان هذا العملاق ، المضطجع في الغبار ، كان يحبهم .

الفصل الخامس عشر

... فيديل ، فيديل ، تعال !

غادرنا الشاطىء بعد الظهر ، فأتيح لي بعد ذلك ان اكتشف العلاقات البشرية التي تشدّ القائد والفلاحين ، في قسوة المطالب المتبادلة .

وقام كاسترو باشارة ، فغادرت السيارة الطريق ، وأخذت تسير في الاراضي . وكنا نقفز ، كما لو كنا في قارب ، على موجات الاثلام السوداء الثابتة وعلى الحصى .

وفي البعيد ، كانت الادغال تبدو وكأنها تهديد — رأيته في كل مكان — مستعدة لاكتساح ارض الجزيرة كلهـا لدى ادنى اهمال : غزو عناكب في الافق تُرى ارجلها الجامدة التي تنتظر .

وتوقفنا املم جماعة من سبعة عمال او ثمانية . وكانت

خلفهم آلة زراعية . والى يمينهم سيارة التعاونية . وكانوا قد رأونا قادمين ، ولم يشكّوا لحظة في ان القادم هو كاسترو .

وجاءت المصافحة فورية ، وقد بدأت عقب تبادل التحيات . ولكنها كانت تنمّ عمّا فيها من ود ، ان هؤلاء الاشخاص لم يكونوا متعارفين بعد ، ولم يكونوا قد تبادلوا لمس الايدي ، ولكن هذه الشكليات كان يمكن ان تتقلّص كثيراً وسريعاً ، لأنهم كانوا جميعا من اسرة واحدة ، تربطهم مصالح واحدة وحاجات واحدة .

لقد حيّا كاسترو برصانة ، فقال الفلاحون :

« مرحباً فيديل » . وعلى الفور بدأ أسئلته :

« كم ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ يزيد الانتاج ؟ ولماذا لا يعملون بسرعة اكثر ؟ »

ولم تتأخر الاجوبة : لأن توزيع المهمات كان سيئاً ، ولأن الأعمال الصعبة قد عهدت الى من هم غير اكفاء . واستشهد اكبرهم سناً ، وهو اربعيني ذو بشرة سمراء ، وكان صدغاه يبيضّان ، استشهد بالآخرين : كانوا يحسنون قيادة التراكتورات واصلاحها افضل من أي انسان ، وكان قد قال ذلك ، ودلّل عليه للمسؤول الذي كان يصرّ على ابقاء شخص غير كفء في هذا المركز الحسّاس . وقال لفيديل :

— أعطوني تركتوراً لأريك على الفور كيف احسن قيادته .

وأحس كاسترو هنا انه بين نارين : كان يجد دوافع قوية لحسم الموضوع فوراً ، استجابة لميله الى العلاقات

المباشرة في تمرده على جميع انواع التدرجات والمراتب ، وقد تصورته بقول : « اذهب ، فجيء بالتركتور » . ولكن نظام المراتب الذي كان يحطمه ، لو فعل ذلك ، هو نظام المعهد الوطني للاصلاح الزراعي الذي اسسه بنفسه والذي كان ، بالاجمال ، راضياً عنه كل الرضى .

وهو يعلم انه عامل دائم ، وبصورة فضولية من عوامل الفوضى . والواقع انه ما دام يطوف بالجزيرة ، وما داموا يلتقون به في كل مكان ، فان فِرَق العمل ، أياً كانت ، تجد من الطبيعي ان تطلب منه ان يحلّ شخصياً مشكلاتهم : ولماذا تُراهم يكتفون بالمحكمة الاولى او الثانية حين تكون تحت تصرفهم المحكمة العليا ؟ انه بالتأكيد لا يحتقر ان يكون موجوداً في قلب كل كوبي ، كفرقته المتمردة او كالقوة المباشرة بأن يتطارح الموضوع مع رئيس الحكومة وجهاً لوجه . ولكنه في الوقت نفسه غير قادر ، بالرغم من كل شيء ، على ان يستجيب لهذه المتطلبات التي لا تُحصى ، وغير قادر على ان يتولى بنفسه جميع تفصيلات البناء القومي ، فهو لذلك يخلق المؤسسات والمعاهد والمكاتب ويحافظ على نظام المراتب .

وقد رأيت سيليا تكتب بعض الملاحظات على دفترها : وكنت اعرف ان كاسترو سيسأل عن الوضع ، فهو لن يتسامح بأن يجيء اقتصاد سيء للقوى الانتاجية فيحدّ المعركة القائمة .

ولكني كنت ارى جيداً كذلك انهم لن ينجحوا في جعله يدين مسؤولين لم يكن يعرفهم .

ـ توجهوا الى رؤسائكم المباشرين .

وسرعان ما احتجّ احد الشبان :

ـ انهم هم الذين ارتكبوا الاخطاء : فيجب الاّ نعتمد عليهم لمعرفة هذه الاخطاء .

فأجاب كاسترو بصبر :

ـ اذهبوا معهم الى رئيس المنطقة .

ولكني شعرت منذ تلك اللحظة بأنه يريد ان يذهب . لقد قرر ان يقوم بتحقيق . وهو سوف ينبيء جيمينيز ولكنه لا يريد الآن ان يخطّيء او يصوّب احداً .

ودخل فجأة الى السيارة تاركاً العمال مشدوهين . واذ كنت ادخل السيارة بدوري ، رأيت على الطريق شاحنة تمر وتختفي في سحابة من الغبار .

نصف استدارة . وخلفنا كان المتحدثون يقومون غاضبين بحركات كبيرة . وقد قفزنا على الطريق من مخبأ الى مخبأ ، طوال ثلاثة كيلو مترات او اربعة ، ثم رأيناها تُسدّ فجأة : كان ثمة نساء واطفال وشيوخ يشكلون فريقاً متكاتفاً شديد التصميم على ان لا يدعنا نمر .

كانت هي التعاونية التي كان الرجل ذو التركتورات ورفاقه ينتمي اليها . وكان الجميع يصيحون : « فيديل ، فيديل ، قف » .

توقف جديد . وكنت قد بدأت اعرف التكتيك . لقد جمّدت السيارة واكتُسِحت . حرارة خانقة ، وكنت أرى الايدي والوجوه المنحنية . وكنت أتنفس ناراً .

وكان فيديل يدمدم متذمراً . وترجم لي اكروشا :

ـ يقول : ان تلك الشاحنة الملعونة هي التي أذاعت سرنا .

وأضاف بقلق :

ـ وسوف تنشر الخبر من اول الطريق الى آخرها : اننا هالكون .

وانحنت نساء وقدمت ايديهن المفتوحة ، لم يكن بعضهن يردن الا لمس فيديل ، بينما كان البعض الآخر يسعين للقبض عليه من اجل اخراجه من السيارة .

وقالت سيدة بلهجة معتزة :

ـ ان الشعب يريد ان تأتي فترى قريتنا .

واستسلم فيديل . ولنعترف انه لم يكن له الخيـــار . وترجّل فخرجنا خلفه ، ورأيته يشرف على الجمع برأسه وكتفيه . ولكنه كان قد استعاد تقطيبه وعلى وجهه هيئة شك وحتى خجل . وقالت لنا سيليا :

ـ سيذهب حتى مدخل المدينة ، ثم يحاول ان يرتدّ ويلوذ بالفرار . فابقوا بالقرب مـــن الأبواب ، حتى اذا عاد ، ساعدوه بالقفز الى السيارة .

ولم يُتح لنا حتى حظ للفرار ، فقد ارتفع الغبار على الطريق التي كنا قد عبرناها ، ودوّم كالزوبعة ، واقترب

منا ثم سقط كاشفاً عن سيارة توقفت خلف سيارتنا : وعرفنا سريعاً الرجال السبعة الذين كانوا مركومين فيها ، فانهم متحدثو كاسترو النهمون ، الفلاحون الذين كنا قد تركناهم . كانوا ايضاً قد رأوا الشاحنة تمر ، فاستنتجوا بأن نساءهم اللواتي أبلغن الخبر ، سيمسكن فيديل وانهم سيكون لهم مجال اللحاق به . وكانوا مستعدين لمواصلة الحديث .

وقد طاردوه بالفعل . فاستجاب لهم فيديل بلا رضى كبير ، ولكن بلا ارادة سيئة . ويجب ان اعترف بانني قد ضللت سريعاً . فان اركوشا لم يكن بعد الى جنبي ، اذ ان هذا الجمع المضطرب قد انتزعه مني ، ثم ظهر لي ان الحديث يتخذ وجهة اخرى .

فقد شارك فيه شبان آخرون ، ثم شيوخ . وكانت هناك دائماً اللهجة نفسها : عجلة وإلحاح وتوتر ودّي مرح ، ولكن بلا استرخاء . وكان كاسترو يتركهم ينتزعون منه الكلام بادىء الأمر . ثم اطلق احدهم فكرة بدت انها تربكه . وقد رأيت ، لمدة لحظة ، سحنة فيديل القلقة ، ثم اخذ يتحدث بقوة ، ولكن بلا عنف . وقد دعمه الشيوخ ، فكانت نهاية الحديث . وعدنا الى السيارة والناس يصفقون لكاسترو ويدعونه يهرب .

وقال لي اكروشا في السيارة :

— كانوا يتحدثون اخيراً عن كل شيء وعن لاشيء .

والتفت الينا كاسترو باسماً وقال :

ـ لقد انتصرت عليهم .

فسألته :

ـ ولماذا ؟

ـ لقد انتهوا الى الحديث عن الارز . وكنا قد اوصينا بزراعة كمية معينة في كل كباليريه . فهاجمنا شاب بقوله : انهم في عهد ابيه كانوا يزرعون ضعف هذه الكمية .

وكان كاسترو يضحك . ثم تابع يقول :

ـ ان جيمينيز ورفاقه يعرفون بالتأكيد لماذا حدّوا من زراعة الارز . وانا لم اكن اعرف ذلك . وبما انهم خففوا مئة بالمئة الارز المزروع في كل كباليريه ، فهذا يعني ان التجربة السابقة لا بد ان تكون قد اعطت نتائج سيئة . ولما كانت هذه التجربة قديمة ، فقد مثلت امام هؤلاء الشبان الدور السيء بان وجهت حديثي الى الشيوخ .

ـ وماذا حدث ؟

ـ حدث ان الشيوخ كانوا يتـــذكرون كل شيء ، فالواقع ان الارز كان يصبح مليئاً بالماء اذا زُرع بكمية اكثر من التي اوصينا بها ، فكان لا يؤكل .

ونظرت سيليا في المرآة العاكسة وقالت :

ـ انهم ما يزالون يتبعوننا .

والتفت فرأيت الفلاحين السبعة في السيارة . وقال كاسترو :

ـ لقد اصبح الامر صيداً ومطاردة . ان ذلك يسلّيهم . على اي حال . إن اليوم يوم الأحد .

وفي اللحظة نفسها . اوقف جمع آخر السيارة مرة اخرى وأسرها . قرية جديدة ، وتعاونية جديدة ؟ إن هؤلاء لم يكونوا يطلبون شيئاً : كانوا ينظرون ويصفقون . بلى : فلقد ابتعدوا ودفعوا الى الباب كاهناً يرتدي جبة طويلة بيضاء ، وكان خائفاً جداً ، وقالت الاصوات :

ـ هيّا ، حدّثه ، ان هذا حظك ، فلا تجعله يفوتك .

وكان الكاهن يدعو كاسترو فيديل كالآخرين . وكان يتكلم بسرعة كبيرة ، كان عليه ان يعرض فكرة حياته ، وكان الوقت معدوداً عليه . وكان له رأس فلاّحي حقيقي . وكان يشبه رعيّته . ولكن صوته الودّي كان يكشف عن ثقافة حقيقية ، وقد قال انه ، منذ عشرين عاماً ، قد درس المنطقة ونقّب فيها بمساعدة جيولوجيين واخصاء المان ذكر اسماءهم ، ويبدو انه كان لهم شأنهم في هذه المادة ، وكان على يقين مطلق بان الارض كانت تحتوي آبار بترول هامة ، وانه كان يمكن استثمارها منذ الآن ، لا سيما وانه قد جهّز آلات وتكنيكات جيدة للاستخراج اقل كلفة واوفر ملاءمة لتكوين الارض . وقد حفظت العبارات الدقيقة لخاتمة حديثة :

ـ انني واثق يا فيديل مما اقول . فاذا كنت تصدقني فاعطني مليوناً . واذا لم أعد على كوبا بضعف الربح ، فأعدمني رمياً بالرصاص !

فابتسم كاسترو ، فهو لا يلتزم ابداً ، على ما شهدته ،

ولكن سيليا سجلّت ملاحظات ، وخرج الفلاحون السبعة لمدة لحظة من سيارتهم وارادوا ان يستأنفوا المناقشة المقطوعة . ولكن القرية كانت اشد اهتماماً بكاهنها منها بمصائبها ، وقد تخلّى الفلاحون السبعة عن محاولاتهم ، لشعورهم بانهم لم يؤخذ بوجهة نظرهم . فعادوا الى قريتهم حين مضينا في طريقنا . ولكن يجب ان اسجل هنا واقعاً اثار انتباهي : ان كاسترو لم يمنعهم مرة واحدة من ان يتبعوه .

ولكننا لم نكن خفيفين في اية مرحلة من رحلتنـــا . فان سائق الشاحنة الخبيثة قد اعلن النفير العام في القرية .

وحين غادرنا كاهن القرية ، سألت كاسترو :

ــ ما رأيك بما قال ؟

فاجاب :

ــ البترول ؟ ولمَ لا . فقد كشفت تنقيبات جدية منذ وقت طويل عن وجود مساحات من الغاز في المنطقة .

وكان يهمّ بمتابعة كلامه حين أُوقفنا من جديد . وكان هذه المرة زنجياً وحيداً هائلاً وغاضباً : وقد نبع من جدار اذ كنا نجتـــاز مدينة صغيرة ذات بيوت بيضاء وارتمى علينا . وكان يضرب بباطن يده ضربات خفيفة على غطاء السيارة . وقد قال لفيديل بغضب :

ــ انك قليـــل الحذر ! فاحم حياتك . فهي لنا ، وليست لك ! ما الذي تصنعه في مقدمة هذه السيارة ؟ انت تعلم جيداً ان من الممكن اطلاق النار عليك ، وانه

من الممكن ان تصطدم بشاحنة ، فماذا سنفعل نحن ؟ سنكون في وضع ممتاز ! تفضل ، فاجلس في المقاعد الخلفية مع سيليا ، واسمح ان أُجلس في المقاعد الامامية جميع هؤلاء الاشخاص الذين يلتذون بجلستهم في الخلف !

فقال فيديل وهو يبتسم :

ـ انهم ضيوفي .

فهزّ الزنجي كتفيه وقال :

ـ وبعد ذلك ؟ خذهم الى النزهة ما تشاء ، ولكن اذا كان لا بد من الموت ، فليموتوا هم .

وكان بعض الصبية يركضون الينا وهم يصرخون . فرآهم الزنجي . فابتعد بلطافة وقال .

ـ هيا ، انك مستعجل ، ولن اوقفك اكثر من ذلك .

فابتسم فيديل ابتسامة عريضة ، بادله اياها الزنجي فيما هو يهدده باصبعه . وقفزت السيارة نحو مغامرة جديدة من المنازعات والمناقشات والصداقات .

لقد اختنقنا عشرين مرة . وتخلصنا عشرين مرة بفعل معجزة . وفي قلق ، رأينـــا ، انا وسيمون دو بوفوار الشمس تهبط ، كأنها بندورة دامية ، على نبتات البندورة الطريّة . وقلت :

ـ قل لي يا اركوشا ، الن نعود هذا المساء الى الفندق ؟

فقال :

ـ بل سنعود الى فارادیرو وننام فيها .

ـ ولكني كنت قد ضربت مواعيد لصباح الغد ...

فهرّ كتفيه وقال متفلسفاً :

ـ ولكن حين يعرفون انك مع فيديل ...

غير انه وافق ان يتلفن ليخبر بالامر الاشخاص الذين كنت قد وعدتهم .

وتوقفت السيارة عشر مرات اخرى : انها كانت عجلة لمامة . وقـــد لممنا فلاّحة مسنّة كانت تنتظر الاوتوكار فوضعناها حيث ارادت ، ولم يكن كاسترو ولا وزراؤه يرفضون الاوتوستوب .

وقد كنت احتفظ بعشرين صورة في ذاكرتي . وكانت على وشك ان تختلط .

وقلت لاركوشا :

ـ سأنسى هذه الرؤوس ، فانها ستختلط . وهذا ما يؤسفني : فقد كان لكل من هؤلاء الفلاحين شخصية قوية جداً . ثم انهم فرديّون ، وكل منهم يأمل ان ينبع كاسترو ذات يوم امامه . وفي انتظار ذلك ، هم يفكرون ، وكل منهم ، وفق شخصيته ، يضع اختراعاً او انتقاداً ولكنها تبقى هي الفكرة نفسها ، وهو يرجع اليها كل يوم ، حتى اني شعرت في كل مكان ، انهم كانوا يخرجون فجأة فكرتهم الثابتة ويعرضونها بسرعة ، ولكنهم لم يُشعروني قط بانهم كانوا يرتجلون . وقال لي اركوشا :

ـ قل هذا لكاسترو .

فقلت له :

ـ تفضل فترجمه .

وفعل . فبسم لي كاسترو : لقد تحطم الثلج بيننا . وتحدثنا عن الريفيين . كان هو ايضاً يعتبرهم فرديين كباراً . وكان ما يثير حماسه في التعاونيات ، هو ذلك التوتر الذي كان يقوم فيها بين الارادة المشتركة والشخصية الحرة لكل فرد :

ـ حين يكون المسؤولون صالحين ، فان جميع العمال يتحمسون للعمل المشترك ، وفي ذلك صالحهم . وهم يشعرون به . ولكن ما يروقني فيهم هو انهم يظلون في كل مكان اشخاصاً متميزين .

وقلت :

ـ لقد لاحظت ذلك ، فبالرغم من القبعات المستديرة والقميص الكوبي والسواطير احياناً ، فان كل انسان لا يشبه اي انسان . هل يعرفون القراءة ؟

ـ الذين رأيناهم ؟ اتصور ان لا ، بالنسبة لمعظمهم .

فقلت :

ـ اذاً كيف نشرح ذلك ؟ لقد ظننت هؤلاء الأميين مثقفين .

فأجاب :

ـ ذلك انهم يفكرون . طوال الوقت . وكانت الثورة هي المحرك القاطع : فان الفكرة قد اخذت تسير لدى كل منهم ، بواسطتها ، وهي لن تقف بهذه السرعة .

●

وكنا نمر بين حقول القصب ، في دسكرة ، فنبع رجل رافع الذراعين ، ولم يحاول ان يوقف السيارة ، بل اكتفى بالقول :

ـ مصنع ، يا فيديل ، مصنع !

وتركنا نمرّ . وقال فيديل :

ـ لو كان قبل ثلاثة اعوام لطلب وظيفة في ادارة . فأنت ترى التقدم . انه يريد ان يتمكن جميع عمّال القصب في بطالتهم التي تدوم ثمانية اشهر من ان ينصرفوا الى الصناعة . ولكن المؤسف ان ذلك لن يتم غداً . فاذا كان ينبغي انتظار التصنيع ، اتراه سيحتفظ بهذا الوعي الثوري ؟

وصمت . والتفت الى زجاج السيارة . ورأيته هذه المرة يسحب عدة مجّات من سيكاره . ولكن لم يجرؤ أحد على استئناف المحادثة . وتذكرت فجأة حكاية كان اولتوسكي قد رواها لي ، وكانت تأخذ تحت هذا الضوء معنى جديداً . فذات مساء ، قبل وصولي بأيام عُقد مجلس للوزراء . وحضر الجميع في الوقت المحدد ، باستثناء كاسترو . وكان مساعدوه يطلّون من النوافذ بانتظاره ، فاكتشفوه اخيراً وسط زهاء مئة امرأة وفتاة كان يستمع الى بكائهن وصراخهن . وأفلت فيديل وولج باباً وجده امامه وضاع في الممرات ، وتأخر حتى وصل الى قاعة المجلس . وكان وجهه كئيباً :

ـ هؤلاء النساء هن اللواتي اخّرنني .

فقالوا :

ـ نعرف ذلك . فهن يتبعنك في كل مكان .

فأجاب وهو يجلس :

ـ ذلك انهن يُطالبن بحقهن .

وكانت هؤلاء النساء الصبيات ، على ما اذكر ، يرغبن ان يكنّ معلمات ، فان مدرسة خاصة قد استغلت ثقتهن فسلبت منهن مالاً وعاماً من العمل وأعطتهن أخيراً شهادة كان مديروها يؤكدون ان الدولة تعترف بها رسمياً وان هذه الشهادة كانت تخولهن حق التعليم . وطبعاً كانت الشهادة لا تساوي شيئاً ، وقد زارت هؤلاء النساء وزارة التربية الوطنية : ليست هنالك وظائف ، وأُخبرن بأنهن كن ضحايا تدجيل . ومنذ ذلك الوقت ، كن ينتظرن كاسترو في جميع زوايا الشارع ويبكين .

وكان الوزراء ينتظرون ان تبدأ جلسة المجلس . ولكن كاسترو ظل مقطباً صامتاً . ورأى احد الشبان ، اذ مرّ بالقرب من نافذة ، ان جوقة الباكيات لم تكن قد غادرت المكان .

وقال كاسترو اخيراً بصوت متعب :

ـ يجب ان يقال لهن شيء ما .

ولم يكن يوجّه كلامه الى احد . ثم ردد ، وقد التفت هذه المرة نحو هارت :

ـ افعل شيئاً من اجلهن .

واحتجّ هارت : لا ليرفض مساعدتهن ، وانما ليبرر

نفسه . فقال :

– انهن لسن فقط ضحايا ، ولكنهن ايضاً مشاركات في الذنب ، ذلك انهن سقطن عدة مرات في امتحانات الدولة . وهذا ما ينزع منهن حق التقدم اليها مرة اخرى . لقد كن يعرفن جيداً ان هذه الشهادة الخاصة لا تساوي شيئاً ، وقد اردن ان يحصلن عليها ليضعننا تحت الأمر الواقع .

فاقتنع مجلس الوزراء بأجمعه ، وأفهم كاسترو ان ذلك اضاعة للوقت الثمين . فان هؤلاء الأوانس ، لكي يحرجن الحكومة ، احرجن انفسهن ، فيجب ان يُرفض طلبهن .

وظل فيديل على صمته : ان جمود هذا الجسم الكبير يؤثر ، ويبدو جموداً نباتياً .

ورد بلطف ولكن بحزم :

– يجب ان يعطين شيئاً ما يا ارماندو .

وسأل الجميع لماذا ؟ فأجاب باقتناع ، ولكن من غير شرح :

– لأنهن يطالبن .

وأومأ الى الساحة عبر النافذة وأضاف :

– لقد جئن وانتظرن وبكين .

وسأل رفاقه مندهشين :

– وهل هذا يكفي ؟

فهزّ رأسه بقوة وقال :

– نعم ، هذا يكفي .

حتى ان الوزراء آثروا ان يبتوا القضية على الفور :

لن تكون للشهادة الخاصة التي تحملها المرشحات اية قيمة ، وبالرغم من انهن فقدن حق تقديم الامتحانات مرة اخرى ، فسيُسمح لهن بتقديمها بصورة استثنائية .

وها اني الآن ، في عذوبة المساء الرمادية ، كنت ارى بالقرب مني كتفيه العريضتين . وقلت لنفسي ان عليّ ان أسأله هو نفسه وقلت له :

ـ ان الذين يطلبون ، اياً كان ما يطلبون ، يحق لهم ان يحصلوا عليه ؟ ..

وترجم اركوشا ، فلم يجب فيديل . والححت :

ـ اهذا هو رأيك ؟

فسحب من سيكاره نفسا . وقال بقوة :

ـ نعم .

ـ لأن الطلبات على نحو او على آخر ، تعبر عن حاجة !

فاجاب من غير ان يلتفت :

ـ ان حاجة الانسان هي حقه الاساسي على جميع الآخرين .

وقلت له ، وانا واثق من جوابه :

ـ واذا طُلب منك القمر ؟

فأخذ نفساً من سيكاره ولاحظ انه كان قد أنطفأ . فوضعه والتفت نحوي واجابني :

ـ اذا طلب مني القمر ، فهذا يعني ان الطالبين سيكونون بحاجة اليه .

ان لي اصدقاء قليلين . ذلك اني اعلق على الصداقة

اهمية كبيرة . وقد شعرت بعد هـذا الجواب انه اصبح واحداً منهم . ولكنني لم ارد ان ابذر له وقته بأن اعلن له ذلك . وقد قلت له ببساطة :

– انك تسمّي الثورة الكوبية نزعة انسانية . ولمَ لا ؟ ولكني مـن جهتي لا اعرف الا نزعة انسانية واحدة ، وهي لا تقوم لا على العمل ، ولا على الثقافة ، وانما تقوم قبل كل شيء ، على الحاجة .

فقال لي :

– ليست هناك نزعة انسانية اخرى .

ثم التفت نحو سيمون دي بونوار وقال :

– الحقيقة انهم يخيفونني ، بين فترة واخرى ، وبفضلنا يجرؤون على ان يكشفوا عن حاجاتهم ، ويملكون الجرأة على ان يفهموا آلامهم ، وان يطلبوا وضع حد لهـا ، فهم بالاختصار بشر . وما الذي نعطيهم اياه ؟

وانعطفت فكرته فجأة . ولكن تبعتها من غير مشقة . وقال بصوت خشن :

– يجب ان نطلب من كل انسان كل ما هو ممكن . ولكني لن اضحي ابداً بهذا الجيل لحساب الاجيال القادمة ، فان ذلك سيكون تجريداً .

الفصل السادس عشر

... انما هو الجزيرة برمتها !

تناولنا العشاء في فندق من فنادق المعهد الوطني للاصلاح الزراعي وتحدثنا قليلاً . واعتذر كاسترو عدة مرات عن تعبه . وكانت سيليا مبتهجة : اخيراً ، ليلة راحة وهدوء ؛ وكنا على وشك الانتهاء من الطعام حين جاء مدير الفندق يبلغ كاسترو ان صيّادي القرية المجاورة سيذهبون ، وانهم كانوا يتمنون ان يأخذوه ، على ان يعيدوه عند الفجر .

فقال كاسترو باسترخاء :

— لا ادري ان كنت استطيع ، فأنا تعب اكثر مما ينبغي ؛

ولكنا رأينا في نظر سيليا انه كان قد قبل .

وصباح اليوم التالي ، حوالي الساعة السابعة ، التقينا من جديد على المائدة نفسها . وقال لي اوتيرو :

ـ ان كاسترو قادم عمّا قليل ، فهو يشرف على قلي السمك الذي اصطاده هذه الليلة .

وسألت سيمون دو بوفوار سيليا :

ـ هل كنت برفقته ؟

فأجابت : ـ لقد عدنا هذه اللحظة .

ـ لا بدّ انك ميتة !

فقالت : ـ آه ! لقد اعتدت ان انام في كل مكان .

وعند ذلك ظهر كاسترو ، نضراً نشيطاً ، يتبعه صبيان يحملان قطع السمك المقلي . وقد اكلنا هذه المقليات دون ان نتردد ، وقلوبنا ومعدنا ملطخة بالنعاس . غير أني لا اذكر ان سيليا اكلت منها شيئاً .

وفي السيارة ، سألت اركوشا الى اين نحن ذاهبون ، فقال لي :

ـ الى المستنقعات . وسنبقى فيها حتى الغد .

فقلت : ـ حسناً .

وقد كنت ادركت مرة والى الأبد ان علينا ان نجعل انفسنا في حالة استعداد دائم .

وفي السيارة شُرحت لي الأمور بصورة اوضح ، ففهمت ان احد عظماء هذا العالم كان يصحبني الى بيته .

ان جمهورياتنا المتتابعة ، في فرنسا ، كانت وما تزال تكرم المدعوين بأن تجعلهم يقيمون مثلاً في « رامبوييه » .

وكنا نسير على طريق محفرة ، فنثير زوابع من غبار ،

باتجاه رامبوييه الكوبية .

مستنقعات ، الى اليمين والى اليسار . ووصلنا الى « سياناجا دو زاباتا » وهذه المنطقة هي أخلى المناطق ، والشمس تدفيء مياهها منذ قرون ، ولم يسبق لأحد ، حتى عام ١٩٥٩ ، ان اقتنع أن بوسع الكوبي ان يعمل شيئاً آخر فيها ، غير ان يهرب منها . وكان بعض الفقراء المسنين اباً عن جد ، نصف المتوحشين ، يعيشون فيها وما يزالون عند تخوم المستنقعات ، ويقال انهم فحّامون . وعلى بعد قليل ، كانت الاعمال تبتديء لتجفيف المستنقعات وتطهيرها ، وعلى الارض المكتسبة سيزرع الارز — اساس الغذاء الكوبي — بكمية وافرة تفي حاجة البلد ، دون اللجوء الى الخارج .

وتأملت مكان الماء الآسن ، وحاولت دون نجاح كبير ان املأه ، ان أتصور في مكانه ، حقول الارز على مدى النظر . ولكن صوت كاسترو كان قد بدأ يدعوني الى أحلام جديدة ، ففي هذا المكان الرديء ، تريد الحكومة ان تبني أجمل مدينة سياحية في كوبا . واضاف الصوت ، بعد لحظة :

— وربما اجمل مدينة سياحية في العالم .

وعرفت من جديد جنونه الاعتزازي ، انه يريد ان يغير العوز الى خصب وغزارة . وعلى هذه الشطئان العاقة ، كان قد جاء ، يبحث عن المستقبل .

قناة طويلة : كانوا يجرفون الرمل في كل مكان ، واكتشفت على حافتها اليمنى سلسلة لا تنقطع من الآلات الجارفة التي تقطر وحلاً . وتركنا السيارة لنستقل قوارب ذات محرك .

وطرنا فوق الوحل ، وعبرنا طريقاً مسدودة ثم هبطنا بحيرة مستنقعة : وبلغنا بيت كاسترو . وكانت ثمة بحيرتان متواجهتان ، وبينهما رقعة من الحليب بقهوة ، كان ثمة ثلاثة رجال ينظرون الينا : اثنان في الاربعين احمرا الوجه ذوا عيون من خزف ، وشاب في الثلاثين عارٍ الى نصفه يرتدي الشورت ويحمل سمكة كبيرة يُريها من بعيد لفيديل .

وقال لي اركوشا باختصار :

ـ انه راوول .

على ان قاربنا انعطف الى الشمال وانزلنا على الرقعة الارضية الاخرى . واستقبلنا رجلان : عم راوول واخو زوجته . وكنا في قلب « الاملاك العائلية » التي كانت وستظل ملكاً وطنياً . ورأيت بناء طويلاً من طابق واحد مبنياً بالمواد نفسها ، والاسلوب نفسه ، الشبيه ببيوت المعهد : فتحت لمع الحديد المصفّح المتعرج تقوم جدران رمادية من الاسمنت المسلّح .

ودخلت ، فاذا انا في غرفة صغيرة . وعلى جانبي ممر مركزي هياكل اسرّة ، صفّان متراكبان . زهاء عشرين فراشاً ، وعلى كل منها غطاء . واعترف باني لم افهم ان ينام رئيس الحكومة واخوه واسرته وضيوفه

في هذا المرقد — « القاووش » ، ولكن ماكدت اتأكد من ذلك ، حتى شعرت بسرور عظيم : لقد وثقت عشية الامس ، في نهاية يوم مضطرب ، بفيديل كاسترو . وكان حسبي الآن ان ارى قصره لتتأكد هذه الثقة .

وفي الجهة المقابلة للمرقد ، رأيت بناء آخر اصفر ، ولكن من النوع نفسه : هو غرفة الطعام . وكانت هناك طاولة كبيرة تقوم بين اربعة جدران من الباطون ، تحيط بها مقاعد خشبية ، خزائن وبوفايات ابتدائية ، وطباخ كهربائي ومجلى : لقد حُشِد في القاعة نفسها كل ما يسمح باعداد الطعام وكل ما يُسمَح بأكله .

وخرجت من الباب الخلفي ، فوجدتني امام بناء ثالث واخير .

وكان فيه مكتب ، وهو المكان الوحيد الذي كان مكيّفاً بالهواء ، كما ان فيه مغاسل قديمة ، واظن انني اذكر ان باب المغاسل كان قد فقد مزلاجه .

وقمت بالطواف بهذا البيت الصغير الثالث ، ثم وجدتني في ممر اسود طري . وكان قد ألقي فيه بعض الواح خشبية ليتفادى بها المارّ ان يتلطخ فيها بالوحل .

وكان اركوشا قد لحق بي ، وكان كاسترو يقترب تتبعه سيمون دو بوفوار ، وكان يحمل على كتفه بندقية ذات رصاص متفجر .

ودعيت الى ترك الممر على اليمين والى ان اتقدم قليلا نحو الماء لأتحقق من انني كنت امشي وسط مستنقع ، وقمت

بذلك ، ثم قيل لي ان اقفز ، فقفزت ، وكان لديّ شعور استياء بان الارض كانت جلداً ميتاً ، مفصولاً بفراغ من الجلد الحيّ ، وفي هذه الاثناء سألت سيمون دو بوفوار كاسترو :

ـ ماذا تفعل بهذه البندقية ؟

فأجاب :

ـ انني اصطاد .

ووضع البندقية على كتفه . وصوّب الى اليسار على مستنقع ، كانت الاعشاب الاستوائية تملأه ، ثم اطلق ، فانبثق نبع موحل .

وفي اثناء الحركة التي تبعت ، اخرج ماء النبع ابشع اسراره وخفاياه ، ثم فجأة ، بعد عودة الهدوء ، رأينا بطناً ابيض يطفو ، وهُرِع كاسترو يغطس في الوحل حتى كعبيه ليعود بسمكة ميّتة . وقد كنت احسب من جهتي ان السمكة قد تمزقت بفعل تلك الرصاصة المتفجّرة . ولكنهم اوضحوا لي انه يجب اطلاق النار بعيداً . وان مجرد الانفجار يكفي لقتلها .

وكان كاسترو يشعّ سروراً ؛ ان هذا المكان ، وهو اكأب مكان في العالم ، لم يكن في نظره محطة موقتة يكتفي بها ، لأنه ليس ثمة افضل منها : وانما كانت « الألدرادو » التي تخصه ؛ وكان حين يسمح لنفسه بفترة عيد ، كان يذهب فيقضيها في الاسرة ، تحت هذا السقف من الصفيح المموج .

وقال لي بعد ذلك بلحظات :

ـ ليس في هذه الجزيرة امكنة كثيرة لا اكون مطارداً

فيها . وهذا واحد منها ؛ « والسياناجا » تتمتع بصيت سيء ، ولذلك لا يأتي احد يبحث عني فيها .

ولكنه كان على خطأ : فحين دخلنا الى غرفة الطعام ، رأينا راوول وخلفه ساكنا الضفة الاخرى بوجهيهما السليمين وشعرهما الأبيض وعيونهما الفارغة .

وقال راوول :

ـ اميركيان .

ورأيت نظر كاسترو يضيء ثم ينطفيء : سائحان .

وقدّم الرجلان نفسهما . كانا قادمين من جورجيا . وكانا يقضيان شهراً كل عام في كوبا . ولم تكن الأحداث السياسية تهمهما ؛ ولكن « هوايتهما » كانت صيد سمك « التروتا » وكانا يقيمان في « السياناجا » لأن السمك فيها كان اكبر سمك في العالم . واخيراً دعانا الرجلان لتناول الغداء عندهما .

وحدث طفو في جمعنا : صحيح ان أحدنا لم يكن يكنّ عداوة مبدئية لهذين الرجلين النشيطين ، ولكن من جهة اخرى ، لا أعتقد انه كان بيننا من يرغب في قضاء النهار معهما ، باستثناء فيديل ، الذي فتح عينيه على سعتهما وصرّح ، في اعمق صمت ، انه يسرّنا ان نقبل دعوتهما .

وبعد الغداء ، كشف فيديل لعبته . كان الاميركيان يصطادان سمك المستنقعات الكبير بقصب النبال . ولم اكن اعرف شيئاً من هذا ، ولكن يبدو ان كلاً منهما كان يملك قصبة صيد رائعة من طراز جديد .

وكان فيديل قد رأى هاتين الآلتين حين دعاه الاميركيان . وبعد الغداء ، تبع الرجلين مسحوراً ، بل كان يتبع قصبتيهما . وها هو الآن واقف على قارب وهو يمسك باحدى القصبتين ، تحت نظر الاميركيين المسحورين ، ويريد ان يتعلم استعمالها . ولم يبخل رجلا جورجيا بنصائحهما ولا بارشاداتهما التكنيكية .

وطوال ساعتين او ثلاث ، تعلم كاسترو رمي الصنارة واعادة الشبكة ، من غير ان يتعب ، وقد بذل اجتهاد وتواضع التلميذ ، وكرر مئة مرة ، بل ربما الف مرة حركة معصمه ، وحسّن بين ساعة وساعة قذفاته من غير ان يستطيع ، على ما يبدو ، ان يساوي معلميه . ولئن بلغ هذا المبلغ على كل حال ، فانه يكون قد بلغه بلا شاهد عيان ؛ ذلك أننا كنا قد عدنا واحداً إثر واحد ، الى الضفة الاخرى ، وقد اتعبنا هذا الصبر العجيب ، الذي لم يكن ليتعب .

وحين عاد ، بعد وقت طويل ، جرؤ على أن يقول لنا ، بهيئة جدية وسياسية ، ولكن ببسمة خفيفة في لحيته :

ــ وهكذا ! لقد قمت بدعاية ممتازة .

هذا هو الرجل . ان فكرته تتحرك ، كما ذكرت مراراً ، في عدة ميادين في وقت واحد . وما هو تفصيل عند هذا المستوى او ذاك ، يصبح على مستوى آخر ، جزءاً لا يتجزأ من كل .

ولكنه لا يخلو ، على اي حال ، من مزايا ؛ وهو بصراحة واخلاص كليين يُطلع الاذهان السطحية ان تسلياته العابرة

لها ، في العمق ، لحظات سياسية من الثورة القومية : فقد كنا نظن انه كان يتسلّى بقصبة صيد جديدة ، حين كان يربح معركة صغيرة في حرب السياحة .

ذلك هو وضعه ، وتلك هي شخصيته : فهو في الوقت نفسه ، الجزيرة ، والرجال ، والقطيع ، والنبات والارض . ثم هو ساكن ما من سكان الجزيرة : وفي هذا الفرد ستُعاش المواقف القومية دائماً عيشاً متحمساً مهووساً ، في العاصفة او في السكون . ولكن ينبغي ان يُفهم ؛ فليس هو الذي « يمتلك » كوبا ، كما كان يمتلكها الماليون ، او كما كان يمتلكها باتيستا ؛ كلا ، وانما هو الجزيرة برمتها ، لأنه لا يفكر بأخذها ولا في الاحتفاظ بشبر منها .

●

وعند هبوط الليل ، عاد بنا قارب ذو محرّك الى رامبوييه المستقبل . ولكننا لم نرَ منها الا التصاميم في مكتب المدير . وما أعجبنا ، بصورة خاصة ، هو الحرص على ان يوفر للعمال الرفاهية من مخزن للمؤن ومرقد الخ ..

والواقع ان العمال قد بدوا لي اكثر راحة في مسكنهم ، عند طرف المستنقع ، مما كانت اسرة كاسترو في مسكنها . وقد عدنا فيه الى الحرارة والبعوض ؛ وكان معظم سكانه قد غادروه . فبقينا في غرفة الطعام ، سيليا وكاسترو وسيمون دوبوفوار واركوشا واوتيرو وأنا . وتحدثنا طويلاً ، وأعترف

بخجل أني أنا الذي استأذنت عند الساعة الواحدة صباحاً.

وفي اثناء هذا الأسبوع نفسه ، نُسفت باخرة، لاكوبر. وعند ضجة الانفجارات ، انتصبت هافانا العاصمة ؛ كانت هذه المدينة ، البغي مدة طويلة ، تجد في الخطر وفي الموت صلابة روحها. وقد هرع الشعب من كل مكان ، فغمر أحواض السفن والشواطيء : وكانت الباخرة تطلق عليه نيرانها المميتة ، فلم يهتم لذلك احد ، فقد كانت المدينة تريد أن تنقذ رجالها. وقد وجب ، للمرة الاولى ، نصب صدور بشرية ، تجاه الجموع ، وحجزها وراء سد ، ومنعها من أن تعدو الى المذبحة.

وقد انتقمت الجموع على كل حال : ذلك ان كاسترو كان قد خرج من سيارته ، وكان على المرفأ ، وحيداً ، جاعلاً من الخطر ، امتيازاً يحتفظ به لنفسه ، معاكساً بذلك جميع المبادىء الثورية. ولكن عشرين ذراعاً أمسكته. ثم قلَبَه عشرون جسماً. وسحقته تحت ثقلها : وقد حدث ذلك في اللحظة المناسبة ، فان الرصاص كان يلامسه من أطرافه.

وفي اليوم التالي ، بعد عمليات الدفن ، رأيت هذه العاصمة منتصبة واقفة. خمسمئة الف رجل. وكان كاسترو يتكلم. وكان التصفيق ممنوعاً ؛ كانوا ينزعون من مستمعيه وسيلة رفعه الى ما فوق نفسه حين يعبرون عن حماسهم ؛ وكانت كلمات برافو التي تفرقع حين يتكلم ، تشبه صرخات « اوليه » الأسبانية ، هذا التضخم المخيف الذي يلهب الحماس

ويقرّب التوريرو ، مصارع الثيران ، من موته .

أما في ذلك اليوم ، فلا شيء : غيوم رمادية وسوداء ، ريح باردة ، طقس مقطب ، وواقع كئيب . وفي البدء اصطفاق ايد شاردة ، تتلاشى شيئاً فشيئاً ؛ وبعد تلاشيها ، خمسمئةالف صمت ، في صمتواحد ، والريح البحرية ، والصوت

وكان فيديل قد بدأ خطابه ، من غير ان ينظر الى المستمعين ، مطرق الرأس ، في لهجة عابسة ، تكاد تكون يومية . ثم وكّد الصوت نفسه وعجّل تدفقه . ولكن لم يأت ايقاع المستمعين لحظة واحدة ليفرض نفسه عليه من الخارج ؛ ان هذا الصوت ؛ لم تمتلكه قط عجلة الحاجات والحاحها ولا عصف الجماهير . وكنت سعيداً بذلك . فقد تُرك خطاب التأبين لنفسه ، لحماسه الداخلي وحده ، فكشف مرة اخرى ماهية جميع خطب كاسترو : إنها شرح وتوضيح .

وما لبثت المصابيح ان أضيئت ، فانتزعت من الظلام نصف مليون وجه . وكانت النيران الحمراء والخضراء ، وهي آثار لا جدوى منها لمرور لا ينقطع ، تكنّس بألوانها هذه السحن المقلوبة . ومن صميم الليل ، على أنوار شركة الكهرباء الاميركية ، توجّه كاسترو الى الاميركيين وألقى عليهم مسؤولية التخريب ، وقذفهم بتحديه :

ـ انكم لن تقضوا علينا لا بالمجاعة ولا بالحرب . وإذا هاجمتمونا ، فأعلموا جيداً أننا سنكون المنتصرين ١ .

---

(١) ليست هذه هي العبارات الدقيقة : فانا املي من ذاكرتي .

وكان قد تكلم اربع ساعات ، ولم يقل إلا ما هو ضروري . وصمت . ولكن الصمت الذي فرضته إرادته على الشعب ، بدأ يحيره هو نفسه بعض الشيء : ذلك أن الجرأة التي لا تصدّق والتي حمّل بها تحديه ، ظلت في الكلمات ، في الأفكار ، ولم تنتقل الى الصوت : ولعلها من أجل هذا بالذات قد سحرتني .

لقد كان الصوت ، بتعبه ومرارته ، بقوته ، يكشف لنا عن وحدة الرجل الذي يقرّر باسم شعبه ، وسط خمسمئة الف صمت . وكان على وشك أن يهبط من المنبر ، وبدأت الجموع تتفرّق ، من غير كلمة . وحيّته . فنظر اليّ متململاً وسألني ببساطة :

ــ وأنت ، ما رأيك بما قلت !

فقلت له رأيي . فأصغى اليّ . ثم اختفى .

ولقد رأيته مرة اخرى ، وسوف اروي قصة هذا اللقاء في كتاب اتحدث فيه عن مظاهر اخرى للعهد وعن قضايا اخرى وانتصارات اخرى . ولكن الأفضل أن اوقف هذا الكتاب عند عملية التخريب التي قامت بها سفينة لاكوبر .. ففي ذلك اليوم ، ظهر في وضح النهار شيء : هو الحقد :

إن لكوبا اعداء يَقتلون وسوف يَقتلون . انهم يحتقرون الجميع : كاسترو اولاً ، ولكنهم يحتقرون ايضاً قاطع قصب السكر وعامل المرفأ . مئتا قتيل من أجل عمل تخريبي واحد وهم لم يجدوا أن ذلك غالٍ اكثر مما ينبغي . من هم ؟ مستر

هرتر وموظفو وزارة الخارجية ؟ ان اي كوبي لم يزعم ذلك أمامي ، حتى في أشد أوقات الغضب .

ولكنهم كانوا يشكون فقط من أن تكون الولايات المتحدة قد أصبحت وطناً مفضلاً للمجرمين الباتيستيين . وان تكون الولايات المتحدة الاميركية ، بملء إعترافها ، عاجزة عن إيقاف الطائرات التي كانت تنطلق من ميامي يقودها طيارون اميركيون مأجورون ليُلقوا عدة مرات في الأسبوع قنابل محرقة على سهول القصب . وكانت الشكوى ايضاً بعد عملية التخريب ، هي أن تكون الحكومة الاميركية قد ضغطت على جميع حكومات اوروبا حتى لا تبيع سلاحاً للشعب الكوبي ، كما صرّح بذلك رئيس وزراء بريطانيا في مجلس العموم .

وبكلمة واحدة ، كشفت السنة اللهيب التي انبعثت من الباخرة التي أحرقت ، جدية الخطر أمام الكوبيين . ان هناك ذلك التوتر الذي لا يكف عن الازدياد والنمو بين مصالح الجزيرة ومصالح الشركات الاميركية الخاصة ، وبالاختصار ، بين الحكومة الكوبية ، التي تمثل ذلك الفريق ، وبين حكومة واشنطن التي تمثل هذا الفريق .

وحين نسِفت الباخرة الحربية لاكوبر ، اكتشفت الوجه المختفي لجميع للثورات : وجهها الكامن في الظل ، التهديد الأجنبي الذي يُحَس في القلق . ولقد اكتشفت القلق الكوبي لأني فجأة شاطرتهم إياه .

ان هناك فرحة مستيقظة دائماً للبناء ؛ وهناك قلق وخوف

دائم بأن يجيء عنف بليد فيسحَق كل شيء. ولا بد للمرء من أن يعيش اليوم في الجزيرة ، وأن يحبها ، ليفهم ان الكوبي ، يشعر ، في الدقيقة نفسها ، بالشعورين معاً ، وأن أحدهما يلهب الآخر .

* *

بعد عملية التخريب هذه ، ألغيت أعياد المرافع (الكرنفال) ونُظّمت حملة وطنية لجمع التبرعات من أجل شراء الأسلحة والطائرات .

وفي كل مساء ، كان شبان وفتيات جميلات يتبعون مركبات « الصوم الكبير » ، ويبرزون أمام المارة المحدقين ليطالبوهم بنصيبهم من التبرعات . وكان المار يضع يده في جيبه وهو ما يزال ينظر بأسى الى موكب طير التم ، والى المعابد اللاتينية الرومانية السائرة على اربع عجلات ، وأصوات الأبواق تصم الآذان .

وقبل ذلك بأيام ، كان التصفيق والصراخ قد كشفا لي عن فرحة الجموع الثورية لاستقبال مهرجانات ذلك العيد الوطني .

أما بعد الحادثة ، فان المركبات الكبيرة كانت تحتفظ بمرحها ، ولكنها كانت تجتاز شوارع مظلمة ، في بطء المواكب الجنائزية ، وكانت أبواقها الموسيقية تنفجر وسط صمت قلق .

وهذه الصورة الليلية الأخيرة تعكس خير ما تعكس ، على ما اعتقد ، حياة كوبا الفرحة المتجهمة .

إن المستقبل هو أملها : ومنه تنتظر كوبا الخلاص ؛ وهو كذلك خوفها ، فإنه يمكن أن يثب عليها كاللص .

ان هؤلاء الرجال الغارقين في العمل ، من غير أن يتخلّوا لحظة عن يقظتهم وتنبّههم ، يناضلون — تحت التهديد الاجنبي — ليحافظوا على أثمن مكاسبهم وانتصاراتهم : الحرية التي كانت كوبا تجهلها حتى الآن ، والتي خلقوها هم وهي تبرّر إصلاحاتهم وتبرّر سفينتهم الثورية الجديدة والثقة والصداقة التي تشدّهم اليوم فيما بينهم . وأنا لا أرى أن أي شعب يستطيع أن يطمح اليوم الى هدفٍ أشدّ إلحاحاً وعجلة ولا أجدر بجهودهم من هذا الهدف .

يجب أن يربح الكوبيون ، أو أن نفقد نحن كل شيء ، حتى الأمل .

طبع هذا الكتاب
على
مطابع « دار الكتب »
بيروت – لبنان

الثمن ٥٠٠ ق . ل
٦٠٠ فلس أو مليم